



Kuwait Capital of Islamic Culture 2016



الرجل الذي كان ينظر إلى الليل

إبداعات عالمية

رواية



18.12.2016

أغسطس 2016

414

تأليف: جُبير سِينُويه

ترجمة: د. محمود المقداد

مراجعة: د. حمادة إبراهيم

الرجل الذي كان ينظر إلى الليل
رواية

العنوان الأصلي

Gilbert Sinoué

L'homme qui regardait la nuit

Roman

© Editions Flammarion, Paris, 2012

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2016م

إبداعات عالمية - العدد 414

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

الرجلُ الذي كان يَنْظُرُ إلى الليل



الرجلُ الذي كان يَنْظُرُ إلى الليل رواية

تأليف: جَبير سِينُويه
ترجمة: د. محمود المقداد
مراجعة: د. حمادة إبراهيم

إبداعاتنا

تصدر كل شهرين من
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:
م. علي حسين اليوحة

مستشار التحرير:
أ. وليد جاسم الرجيب

هيئة التحرير:
أ. د. سليمان علي الشطي
د. ليلى عثمان فضل
د. زبيدة علي أشكناني
د. علي عجيل العنزي
د. حنان عبدالمحسن مظفر

مديرة التحرير: لمياء خضر القبندي
سكرتير التحرير: جعفر حسين حيدر

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج
في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-510-5

مقدمة المترجم

هذه الرواية واحدة من سبعة وعشرين عملاً منشوراً للكاتب المصري - الفرنسي ذي الأصول السورية - اللبنانية (جلبير سينويه)⁽¹⁾ Gilbert Sinoué، وقد أحصينا عشرة أعمال منها تمت ترجمتها إلى العربية، وترجمتنا الراهنة هي العمل الحادي عشر حتى الآن، كما ترجمت معظم أعماله إلى لغة أو أكثر من اللغات الأجنبية الحية، ومن أبرزها: الإيطالية، واليونانية، والتركية، والإسبانية، والإنكليزية، والألمانية.

(1)

المؤلف

(جلبير سينويه)

تعصف بالناس أحياناً عواصف الحداث، فتطوح بهم، اختياراً أو اضطراراً، من أرض إلى أرض، ومن بلد إلى بلد، وهذا داب البشرية منذ كانت على وجه الأرض. تقاسمت القبائل الأرض، وتصارعت عليها، وتقاسمت الأمم الأرض ولا تزال تتقاتل عليها، ويلحق الأفراد من ذلك وغيره ضيمٌ قليل أو كثير، ويتعرضون لضنك خفيف أو ثقيل، فتكون رحلتهم في سبيل العيش أو البقاء، ويضربون في الأفاق، ويلقون عصا الترحال حيث وجدوا الأمن والأمان، والراحة والاطمئنان، وربما قلقوا

(1) كتب بعض المترجمين اسمه الأول في العربية (جيلبرت)، ولكننا فضلنا كتابته كما يُنطق في الأصل الفرنسي (جلبير)، نظراً لأن الرجل، وإن كانت أصوله عربية اللغة على الأقل، فإنه متفرنسٌ، علماً بأنه كان يشعر بتمزق الهوية ووهن الأصالة في الانتماء إلى مصر وإلى فرنسا معاً.

مرة ثانية وثالثة ورابعة، فأمضوا العمر في التنقل وشقائه، ومعاركة الرعب وبلائه.

كانت أسرة جد كاتبنا (جلبير سينويه) أو أسرة جد أبيه من الذين انتقلوا من لبنان قبل أن يصبح له كيان مستقل إلى مصر إثر الأحداث الدامية التي وقعت سنة 1860 في لبنان وسورية، وكانت هذه الأسرة تدين بالنصرانية الكاثوليكية، وهم ينتمون إلى آل (كسّاب)⁽²⁾ هنالك؛ فكان مولد والد (جلبير) ونشأته وزواجه - بطبيعة الحال - في مصر، وكانت هذه الهجرة طلباً للأمن والرزق والحرية معاً، ومن المؤكد أنها كانت نقلة اضطرارية. وفي أجواء القاهرة ولد كاتبنا يوم 18 شباط/فبراير سنة 1947، وكانت أمه فرنسية الأصل ومن أم يونانية تعيش في مصر، وقد انتظم في هذه المرحلة منذ صغره في مدارس اليسوعيين الخاصة في (القاهرة) من البداية إلى أن نال الثانوية العامة، وكانت معظم دراسته، إن لم نقل كلها، باللغة الفرنسية، ويسّر له إتقانها أنها لغة أمه. ولذا افتتح أعماله الأدبية بسيرة حياة أحد البابوات الشهداء في المرحلة المبكرة من انتشار النصرانية وكفاحه كما سنرى⁽³⁾. وكان - بطبيعة الحال - ملمّاً بالعربية، أو على الأقل باللهجة العامية المصرية منها. وكانت أسرته تتمتع بشيء من الثراء والرخاء في هذه المرحلة، وقال - في بعض

(2) انظر مقالة الكاتبة الصحافية والروائية اللبنانية (كارول داغر) في صحيفة (لوريان - لوجور) L'OLJ البيروتية باللغة الفرنسية: عدد يوم 2013/2/11.

(3) ويكشف لنا في روايته التي بين أيدينا، التي كان لسيرته نصيب من شخصية بطلها، لأنها مزجت بين حياته والخيال السردي الإبداعي في خط الرواية الدرامي الخاص، يكشف لنا عن استراتيجية تعليم اليسوعيين في مدارسهم بقوله إن تلاميذهم «كانوا قد تعلموا نهر (السين) la Seine قبل نهر (النيل)، و(جيد) Gide قبل (محموظ)، و(لامارتين) Lamartine قبل (أبي نؤاس)»، ولهذا دلالات خطيرة بطبيعة الحال (انظر ذلك في هذه الرواية لاحقاً).

مقابلاته التلفزيونية - بأن المرء مرتبط دوماً بطفولته، ويعترف بأنه عاش في مصر طفولة سعيدة جداً، وبأنه يهيم بذلك البلد. وثانية النقلين نقلتُ عودة أسرته إلى لبنان سنة 1968، بعد أن أخذت الأوضاع الاقتصادية لأسرته في مصر تسوء منذ سنة 1956، بعد قرارات التأميم الناصرية ومصادرة الأراضي والشركات والمصالح، وكانت هذه النقلة ذات شعبتين: الأولى اضطرارية لأسرته، وقد عبّر عنها في روايتنا الراهنة قائلاً: «كان اللجوء إلى (لبنان) لوالدي»، والثانية كانت اختيارية لكاتبنا، وقد قال عنها: «والى لجوئي (باريس)»، ثم طرح سؤالاً وأجاب عنه: «لماذا (باريس)؟ لأنني كنتُ أحلم - على غرار جميع أبناء ديني - بـ(فرنسا) منذ مولدي، فقد نشأت على حب هذا البلد الذي لم أعرفه إلا من خلال الكتب المدرسية والسينما»⁽⁴⁾. ثم يؤكد ذلك بقوله: (رحلتُ إلى ثقافتي ولغة أُمي). وكان في نحو العشرين أو الحادية والعشرين حين سافر إلى باريس، على نية دراسة الموسيقى في مدرسة المعلمين للموسيقى، التي تحمل اسم مؤسسها سنة 1919 بباريس الموسيقي (الفريد كورتو) Alfred Cortot، للتخصص بألة (الغيتار) التي كان مولعاً بها وهو في مصر.

ويبدو أنه تخرج فيها، واستقر في فرنسا، وعمل في تعليم الموسيقى في المدارس. وقد كانت مرحلة الاهتمام بالموسيقى (1968 - 1987) مرحلة غامضة في حياته، لم يفصح كثيراً عما كان فيها من أنشطة، غير أنه يذكر أنه كتب كلمات أغان بالفرنسية لعدد من مشاهير الغناء في فرنسا، ويذكر أن أول أغنية له كانت

(4) انظر ذلك في هذه الرواية لاحقاً.

لـ (إيزابيل أوبريه) I. Aubret، كما أنه كتب أغنيات أيضاً لكل من (كلود فرانسوا) Cl. François، و(داليدا)⁽⁵⁾ Dalida، و(جان ماريه) J. Marais، و(ماري لافوريه) M. Laforêt، و(جان - كلود باسكال) J. - Cl. Pascal، و(شيلا) Sheila، و(شارل أزنافور) Ch. Aznavour، وغيرهم. وقد مارس هذا النشاط - كما يظهر لنا - في مرحلة تعليمه الموسيقى واهتمامه بها. ويبدو أنه كان في هذه المرحلة يعزف على الغيتار مع بعض الفرق الموسيقية في ملاهي باريس الليلية، ويغني فيها بعض الأغاني القصيرة من تأليفه أيضاً.

ونجده، في سن الأربعين، يوقف كل شيء - كما كتب فيما بعد - ويتوجه إلى الكتابة، بعد أن نشر روايته الأولى سنة 1987، عن كضاح رجل مغمور مؤمن يدعى (كاليكست) Calixte ليصبح في نهاية المطاف البابا السادس عشر باسم (كاليكستوس الأول) من سنة 217 إلى سنة 223م، ولينتهي به مصيره ليصبح شهيداً من شهداء الاضطهاد الروماني للنصارى، وكان عنوانها (الأرجوان وشجرة الزيتون)⁽⁶⁾.

ويبدو أن شعوره بأنه سيمارس الكتابة يوماً ما بدأ في مرحلة مبكرة من حياته، وذكر أن هذا الأمر اوده في سن الرابعة عشرة، أي نحو سنة 1961، وهو يصحب أباه على المركب السياحي الذي يملكه في نهر النيل، فقد كتب يقول: (وفي هذا الوقت بالتحديد، تملكني يقينٌ، وبشكل غريب، بأنني سوف أكتب يوماً ما)، وتأخر هذا اليوم عن ذلك الوقت نحو عشرين عاماً، وقد

(5) من جملة ما كتب لها باللغة المربية تلك الأغنية الشهيرة (حلوة يا بلدي).

(6) انظر الرواية ذات الرقم (1) لاحقاً من آثار الكاتب الأدبية.

فسر هذا التأخر فيما بعد بأنه الخوف والهلع من الكتابة، غير أنه في سن الأربعين رأى أن الوقت قد حان لذلك.

استغرق (سينويه) في كتابة روايته الأولى هذه - كما ذكر - نحو أربع سنوات، قضاها ما بين كتابتها وإعادة كتابتها مراراً. يُضاف إلى ذلك ضياع سنة حتى وافق أحد الناشرين على نشرها، وهو يعترف بذلك في قوله: (ويعد رفضها عدة مرات، قررتُ «منشورات أوربان Éd. Orban، أن تنشرها»⁽⁷⁾). وهذه المعلومة تقتضي انحرافه نحو الكتابة في حدود سنة 1982، وهو في الخامسة والثلاثين.

أما فيما يتعلق بأسرته الصغيرة، فقد أصبح أباً لطفل سنة 1997 تقريباً، ولا نعلم شيئاً كثيراً عن تفاصيل حياته الخاصة.

(2)

شخصيته

لقد وصف (سينويه) شخصيته بنفسه في عمله (كتاب حكم من الشرق)، وهو ذو الرقم⁽⁸⁾ لاحقاً، وللقارئ الكريم أن يستنبط من هذا الوصف ما في هذه السطور وما بينها بنفسه أيضاً، فقال:

(إنني أشبه هذا الكائن الغريب المعروف في كل الشرق منذ زمن طويل، وهو نصف مجنون، ونصف عاقل، ويُلقَّب بـ «المجدوب»؛ يُبالغ في جنونه حينما يحاول أحدهم أن يعامله على أنه عاقل، ويصبح ناقد الفكر حينما يسخر أحدهم من

(7) سيمر بنا بعد قليل أن ناشر هذه الرواية هو (دونويل وفوليو) لا (أوربان)، إلا إذا كانت الطبعة الأولى عند الأخير، ومن ثم أعيد طبعها عند الأول.

جنونه. ويمكننا أن نقابله في بعض الأماسي في طرقات بغداد، وحلب، أو القاهرة، يتقدّم متقلّب الرأس على صورة الدراويش، غير مبالٍ - في الظاهر - بالناس الذين يحيطون به؛ فأنا هو). وهو بهذه الصفة يكشف عن طبيعة معاندة، تجعله يخالف ظن المرء فيه بأن يجد عكس ما هو متوقع، وهذا يعني أنه من الصعب القبض على أفكاره أو أسراره العميقة، وهو دليل ذكاء، ليظهر غير مبالٍ بالأمور، في حين إن عينه عليها جميعاً ويتابعها بعمق.

(3)

آثاره الأدبية

كان (جلبير سينيوي) يتميز بغزارة الإنتاج، وواضح أنه كان يصدر في كل سنة تقريباً كتاباً، وهذه قائمة بكتبه المنشورة من سنة 1987 إلى نهاية سنة 2015⁽⁸⁾. وقد تميزت كتاباته عموماً بالطابع التاريخي⁽⁹⁾، وقد اجتذب بهذا اللون من الروايات جمهوراً واسعاً من القراء متعطشاً إلى معرفة الوقائع المدهشة والغريبة والشخصيات الوازنة في التاريخ⁽¹⁰⁾، وعلى وجه

(8) لما كان من الصعب استيعاب المعلومات عن كل كتاب في صف واحد من جدول، فقد لجأنا إلى طريقة الترقيم والتوالي الثابت بعده للمعلومات المتعلقة بكل كتاب، ووفق التسلسل التاريخي لنشر هذه الأعمال، على النحو التالي: الرقم، العنوان العربي للعمل، النوع الذي ينتمي إليه، عنوان العمل الأصلي (مع العنوان الفرعي إن وجد)، دار النشر، سنة النشر (في طبعته الأولى)، الترجمة إلى العربية وغيرها من اللغات الحية، ثم نختم بأي ملاحظة مختصرة حول موضوع العمل للاستئناس بها، ونذكر الجائزة التي نالها المؤلف عليه (إن وجدت).

(9) كتبت إحدى المعجبات بكتاباته هذه على الـ (فيسبوك) تقول: (شكراً لك جليب سينيوي، لأنك تروي لنا التاريخ من خلال الروايات المحببة اللطيفة للقراءة) (كليمانتين كونستانتيني Clé. Constantini). وكتبت (مارال باليان) Maral Balian - وهي صاحبة مكتبة بياريس - في مراجعة قصيرة لروايته (يريفان)، ذات الرقم (19)، تقول عنه: (إنه مؤلف متخصص بالمواضيع التاريخية المرؤة (التي حوّلت رواية)، ولكن بطريقة موثقة جداً، وجادة جداً).

الخصوص في المشرق العربي. لكنه لم يكن مؤرخاً محضاً ولم يكن في الوقت نفسه يكتب الرواية الفنية الخالصة، ونعني بها تلك الرواية التي يخترع كل ما فيها من شخصيات وأحداث من خياله الإبداعي، وإن استعمل الأمكنة والأزمنة المألوفة لدينا، ولعلَّ روايته الراهنة (الرجل الذي كان ينظر إلى الليل)، ذات الرقم (23)، هي الرواية الفنية الوحيدة التي ينطبق عليها هذا الوصف - كما سنرى - وتجري أحداثها في زمننا المعاصر. وهذه قائمة بكل أعماله حتى أواخر سنة 2015⁽¹¹⁾:

1 - (الأرجوان وشجرة الزيتون)، رواية تاريخية، La Pourpre et l'olivier، منشورات (دونويل وفوليو) Dénœl et Folio، سنة 1987، ترجمت إلى الإيطالية والإسبانية والألمانية، موضوعها ديني حول كفاح البابا 16 (كاليكستوس الأول) Calixtos I واستشهاده 217 - 223م، ونال عليها جائزة (جان دور) J. D'Heurs، والجائزة الأدبية الأولى.

2 - (ابن سينا: أو الطريق إلى أصفهان)، رواية تاريخية، (Avicenne ou La route d'Ispahan)، منشورات (دونويل وفوليو)، سنة 1989، ترجمها إلى العربية

(10) عندما نقول عن عمل إنه (رواية تاريخية) فإننا نعني بذلك أننا أمام كتاب أدب تمَّ تطعيمه بحقائق تاريخية، أو أننا أمام كتاب تاريخ تمَّ تطعيمه بالخيال الإبداعي والسرد والأسلوب الأدبي، وهذا يعني أن ما فيه من حوارات وسرد، وحتى شخصيات أحياناً، إنما هو من إبداع الكاتب، ولذا لا يمكن عدّه تاريخاً محضاً ولا أدباً محضاً، وإنما هو منزلة بين المنزلتين، ولا يحتاج به في التاريخ، لأنه لا يقوم على حقائق قطعية، وإنما على وجهة نظر الكاتب وميوله وعواطفه بوجهها المحبّة والكراهة على السواء.

(11) قَصَدْنَا بسرد أعمال (سينويه) الأدبية جميعاً حتى أواخر العام المذكور أن نعطي القارئ العربي الكريم صورة كاملة عن جهوده الأدبية في المرحلة الثالثة من حياته، بعد المرحلة المصرية، والمرحلة الموسيقية، وأن تكشف ساحته الأدبية كاملة ليتم تقويمه تقويماً صحيحاً من قبل المهتمين من النقاد العرب بهذه الجهود.

ضمن منشورات (الجمال) بكونونيا (ألمانيا) سنة 1999، الأستاذ التونسي (آدم فتحي)، كما تُرجمتُ إلى سبع لغات أخرى من أبرزها: الألمانية والإيطالية، جعل المؤلف السرد على لسان (أبي عبيد الجوزجاني) كاتب سيرة ابن سينا، وكان (سينويه) كان يبدو فيها مجرد مترجم لما كتبه عنه.

3 - (المصرية)، رواية تاريخية، L'Égyptienne، منشورات (دونويل وفوليو)، سنة 1991، ترجمها إلى العربية الأستاذ المغربي (محمد بنعبود) في منشورات (الجمال) ببيروت - بغداد سنة 2005، وترجمت إلى الألمانية بعنوان (شهرزاد الجميلة)، وإلى الإسبانية، تروي ثلاث قصص حب خلال حملة (نابليون)، نال مؤلفها عليها جائزة الحي اللاتيني.

4 - (ابنة النيل)، رواية تاريخية، La fille du Nil، منشورات (دونويل وفوليو)، سنة 1993، ترجمها إلى العربية في منشورات (الجمال) الأستاذ (محمد بنعبود) سنة 2007، كما ترجمت إلى التركية، يقول المؤلف في كلمته عنها إنها (تتمة «المصرية»).

5 - (كتاب الحجر الكريم «سفير»)، رواية تاريخية، Le livre de Saphir، منشورات (دونويل)، سنة 1996، ترجمها إلى العربية بعنوان (اللوح الأزرق) الأستاذ التونسي (آدم فتحي) في منشورات (الجمال) سنة 2008، كما ترجمت إلى تسع لغات أخرى أبرزها: الإيطالية والإسبانية والألمانية والتركية والإنكليزية، يتناول فيها البحث عن الحقيقة بين الأديان السماوية الثلاثة: اليهودية، والنصرانية، والإسلام، في ظل الصراع بين الإسبان والعرب ومحاكم التفتيش قبيل سقوط غرناطة سنة 1492. نال مؤلفها عليها جائزة أصحاب المكتبات لسنة 1996.

6 - (الفرعون الأخير: محمد علي باشا) 1770 - 1849
Le dernier Pharaon: Méhémet، سيرة حياة، (1849)
، منشورات (بيغماليون) Pygmalion، 1770 - 1849 - Ali،
سنة 1997، ترجمت إلى العربية، وإلى الإسبانية، يتحدث فيها
المؤلف عن حياة محمد علي باشا وإنجازاته العظيمة في مصر
في جميع المجالات من خلال شخصيته القوية وذكائه الحاد
وبعد نظره.

7 - (طفل بروج)، رواية تاريخية، L'enfant de Bruges،
منشورات (غاليمار) Gallimard، سنة 1999، ترجمت إلى
الإيطالية والألمانية والفلاندية (الهولندية)، موضوعها
خطورة معرفة بعض الأسرار على النفس، وقضية الموت في
ظروف غامضة لبعض المبدعين.

8 - (كتاب حكم شرقية)، مختارات من حكم لمفكرين
شركيين، Le livre des sagesses d'Orient، منشورات
(كالمان - ليفي) Calmann - Lévi، سنة 2000.

9 - (إلى ابني في مطلع الألفية الثالثة)، دراسة، À mon
fils à l'aube du troisième millénaire، منشورات
(غاليمار)، سنة 2000، ترجم إلى الإيطالية والليتوانية،
موضوعه محاولة التساؤل عن التركة التي سيتركها الجيل
الحالي لأبنائه نتيجة التلوث الخانق تدريجياً للبيئة والحياة
على الأرض في البر والبحر والجو، وكان دافعه إلى تأليف
الكتاب كارثة تسرب 37 ألف طن من النفط مقابل سواحل
إقليم (بريتاني) الفرنسي، إثر غرق الناقل (إريكا) Erika في
2 ديسمبر/كانون الأول سنة 1999.

10 - (أيامٌ وليالٍ)، رواية فلسفية كوميدية، Des jours et des nuits، منشورات (غاليمار)، سنة 2001، ترجمها إلى العربية في دار (ورد) بدمشق الأستاذ (عدنان محمد)، كما ترجمت أيضاً إلى عدد من اللغات أبرزها: الإسبانية والألمانية والإيطالية، تطرَح هذه الرواية من خلال بطلها تساؤلات حول قضية التناسخ والتقمُّص، وعيش الإنسان وموته، ثم عيشه وموته، إلى ما لا نهاية.

11 - (السفيرة)، رواية تاريخية، l'Ambassadrice، منشورات (كلمان - ليفي)، سنة 2002، ترجمت إلى الألمانية بعنوان (إيمًا: حياة الليدي هاملتون)، وإلى الإنكليزية بعنوان (الليدي هاملتون).

12 - (صمت الإله)، رواية بوليسية، Les silences de Dieu، منشورات (البان ميشيل) Albin Michel، سنة 2003، ترجمها إلى العربية في منشورات (الجمال) الأستاذ المغربي (شكير نصر الدين) سنة 2015، كما ترجمت أيضاً إلى الإيطالية واليونانية، وموضوعها جريمة قتل تحقق فيها كاتبة روايات بوليسية، ويتابع فيها المؤلف مناقشة الحقيقة بين الأديان السماوية الثلاثة التي عالجها في رواية (كتاب الحجر الكريم: سفير) أو (اللوحة الأزرق) (رقم 5 أنصاً)، ونال المؤلف عليها الجائزة الكبرى في الأدب البوليسي لسنة 2004.

13 - (أخناتون: الإله اللعين)، رواية تاريخية، Akhenaton، Le dieu maudit، منشورات (فلاماريون) Flammarion، سنة 2004، ترجمها إلى العربية في منشورات (الجمال) الأستاذ المغربي (عبد السلام المودني) سنة 2011.

14 - (سفينة إلى الجحيم)، رواية توثيقية، Un bateau pour l'enfer، منشورات (كالمان - ليضي)، سنة 2005، ترجمت إلى الإيطالية والإسبانية، تروي مأساة اللجوء اليهودي من ألمانيا النازية إلى دول العالم، من خلال سفينة خرجت، سنة 1938، من ميناء الماني وهي تحمل 937 من اليهود بينهم 550 امرأة وطفلاً، كان المقرّر أن يتم لجوء مَنْ فيها إلى (كوبا)، وفي اللحظة الأخيرة تمنع الحكومة الكوبية دخولها موانئها، فتوجه إلى بلدان العالم الحر: أولاً (الولايات المتحدة) فترفضهم، ثم إلى (كندا) فترفضهم، ثم إلى دول أمريكا اللاتينية فترفضهم، فتتوه في عرض البحار، وتكون حجة ل(هتلر) أن أحداً لا يتقبّل اليهود، ليصعد حملته عليهم أكثر فأكثر.

15 - (الملكة المعذبة)، رواية تاريخية، La Reine crucifiée، منشورات (ألبان ميشيل)، سنة 2005، ترجمت إلى الإيطالية والإسبانية والتركية. وموضوعها وصف معاناة (إينيس دو كاسترو) Inès de Castro حبيبة وريث العرش البرتغالي (دون بيدرو) سنة 1340م.

16 - (الكولونيل والطفل - الملك)، رواية توثيقية، Le colonel et l'enfant - roi، منشورات (ج. - س. لاتييس) G. - S. Lattès، سنة 2006، يقصد بالكولونيل: البكباشي (المقدّم) جمال عبد الناصر، وبالطفل: أحمد فؤاد، وريث عرش مصر بعد خلع أبيه فاروق، ويتناول المؤلف فيها التطور السلبي ما بين الجيل الجديد من النساء وجيل أمهاتهن وجدّاتهن الأكثر تحرّراً وانطلاقاً منهن.

17 - (انا، يسوع)، رواية تاريخية، Moi، Jésus، منشورات (البن ميشيل)، سنة 2007، ترجمها إلى العربية في منشورات (الجمال) الأستاذ المغربي (سعيد بوكرامي) سنة 2012، كما ترجمت إلى الإيطالية، وموضوعها الحديث عن بعض الوقائع غير اليقينية في حياة المسيح عليه السلام ومحاولة الوصول إلى يقين بشأن عدد منها.

18 - (سيّدة المصباح: حياة فلورانس نايتنغال)، سيرة حياة، La Dame à la lampe: vie de Florence، Nightingale، منشورات (كالمان - ليفي)، سنة 2008، ترجمت إلى الإيطالية، موضوعها حياة ممرضة إنكليزية (1820 - 1910) كانت مومساً ومدمنة على الكحول، ثم عملت ممرضة للقوات الإنكليزية في حرب القرم سنة 1854، وكانت تسعى ليلاً بمصباح كازبين خيام الجرحى، وظهرت عمل التمريض على أسس علمية، وأسست لذلك مدرسة للتمريض ومشفى في لندن سنة 1860.

19 - (يريفان أو أرمينيا: الرواية العظيمة لشعب)، رواية تاريخية، Erevan ou Arménie: Le grand roman d'un peuple، منشورات (فلاماريون)، سنة 2009، ترجمت إلى الإيطالية واليونانية، موضوعها محنة الشعب الأرمني أيام السلطان عبد الحميد ومأساته في الحرب العالمية الأولى، وكتب المغني الأرمني المتفرنس (شارل أزنافور) كلمة شديدة اللهجة تمهيداً لها.

20 - (نَفْحَةُ الياسمين) الجزء الأول من رواية (إن شاء الله - INCH 'ALLAH)، رواية، Le Souffle du

jasmin، منشورات (فلاماريون)، سنة 2010، ترجمت إلى اليونانية والتركية والإيطالية، موضوعها أربع أسر: إسرائيلية، وفلسطينية، وعراقية، ومصرية تحاول أن تعيش في اللجة التي فرضها عليهم الغرب من سنة 1916 إلى سنة 2001، ويتساءل دبلوماسي فرنسي: هل سيغطي صوتُ القنابل إلى الأبد على نضحات الياسمين؟ وذكر الناشر أن هذه الرواية تحاول تفسير تسلسل الظروف التي أدت إلى هجمات 11 سبتمبر/أيلول سنة 2001 على الولايات المتحدة.

21 - (صرخة الحجارة) الجزء الثاني من رواية (إن شاء الله - INCH 'ALLAH)، رواية Le Cri des pierres، منشورات (فلاماريون)، سنة 2010، ترجمت إلى اليونانية والتركية والإيطالية، موضوعها حياة أفراد الأسر الأربع في الجزء الأول ما بين (حرب الأيام الستة) أو 5 يونيو/حزيران سنة 1967، وحرب أكتوبر/ تشرين الأول أو (الغضبان) (كيبور) سنة 1973، واجتياح لبنان سنة 1982، وانتفاضة الحجارة أواخر سنة 1987، بعد كل هذه الأحداث مال بعض المتصارعين إلى طريق السلام، واختار بعضهم الآخر الاستمرار في الكفاح المسلح: فهل يبقى بعد ذلك مكان للحب؟

22 - (اثنتا عشرة امرأة من الشرق: غيّرت التاريخ)، مجموعة سير، 12 femmes d'Orient: qui ont changé l'Histoire، منشورات (بيغماليون)، سنة 2011، ترجمت إلى الإيطالية، تناولت سير مجموعة من النساء كُنَّ مؤثرات في الناس والتاريخ، ولكن ليس إلى حد تغييره كما ورد في العنوان، من أبرزهن: حتشسبوت Hatchespout، وزنوبيا، وعائشة، والكاهنة، وهدي شعراوي، وأم كلثوم.

23 - (الرجل الذي كان ينظر إلى الليل)، رواية، L'homme qui regardait la nuit، منشورات (فلاماريون)، سنة 2012، ترجمت إلى اليونانية.

24 - (ليالي القاهرة)، رواية، Les nuits du Caire، منشورات (آرثو) 2013، Arthaud، تحكي قصة رجل مصري في نحو السبعين من العمر، هو (كريم)، غادر مصر سنة 1967، وهو في مطلع شبابه، وقرّر أن يعود إلى الجذور، ويتعرف على مصير حبيبته (مريم)، وكان ذلك في يناير/كانون الثاني من سنة 2011، فوجد القاهرة تغلي في انتفاضة جماهيرية عارمة.

25 - (ليلة «ماريتسبورغ»)، (مدينة في جنوب أفريقيا)، رواية، La nuit de Maritzburg، منشورات (فلاماريون)، سنة 2014، تتناول حياة (مهندس غاندي) منذ أن أرسلته شركة هندية، وهو لا يزال محامياً صغيراً ناشئاً، إلى جنوب أفريقيا، ليدافع عن مصالحها هنالك، وكيف اكتشف فيها التفرقة العنصرية والإذلال من البيض للسلود والملونين، وحتى لمواطنيه الهنود فيها، فقرّر خوض حرب ضد هذا التمييز، ولكن من غير سلاح سوى سلاح (المقاومة السلبية)، فتحول المحامي الصغير الخجول، والجنّلمان على الطريقة البريطانية، يوماً بعد يوم، عملاقاً وخصماً كبيراً لبريطانيا الاستعمارية واحتلالها للهند، حتى استحق لقب الـ (مهاتما) أي (الروح العظيمة) للهند وشعبها.

26 - (النسر المصري: ناصر)، سيرة حياة، L'Aigle égyptien: Nasser، منشورات (فلاماريون)، سنة 2015، يتحدث فيها عن الوجوه المختلفة لعبد الناصر منذ تولي السلطة سنة 1954 إلى وفاته سنة 1970.

27- (رسول الله: حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم)، سيرة

حياة، L'Envoyé du Dieu: Une vie du Prophète،

Muhammad، منشورات الـ (أرخبيل) L'Archipel، سبتمبر /

أيلول سنة 2015، يتصور المؤلف رجلاً كان معاصراً للنبي صلى

الله عليه وسلم، وتكونت لديه قناعة بعد وفاة النبي صلى الله

عليه وسلم بأن الله كلّفه مهمة مقدسة هي جمع كل ما يعرفه

عنه من معلومات وأخبار وأقوال، وكتابته ليطلع عليه الناس.

ومن هذا العرض لأثار (سينوييه) نلاحظ أنها تنتمي إلى

ثلاثة مستويات من حيث المضمون، على النحو التالي:

1 - سِير الحياة: وهي تتعلّق بحيوات شخصيات تاريخية من

مختلف العصور ومختلف البلدان ومختلف المواقع في حركة

التاريخ أو المجتمع أو نوع الخدمة التي قدمتها كل شخصية

للإنسانية في التاريخ سواء أكانت خدمة إيجابية أم سلبية،

ونجد لدى (سينوييه) نحو إحدى عشرة سيرة حياة للشخصيات

التالية: أخناتون، يسوع عليه السلام، كاليكست، محمد صلى

الله عليه وسلم، ابن سينا، إينيس، ليدي هاملتون، محمد علي

باشا، فلورانس، غاندي، عبد الناصر.

2 - القضايا الإنسانية: كقضايا الاضطهاد والمجازر والتهجير

التي تعرّض لها الأرمن واليهود والفلسطينيون في القرن

العشرين، إلى جانب قضايا الحب والعلاقات الإنسانية المحضة.

3 - القضايا الفلسفية والدينية: التي تتعلق بمسألة الأديان

السماوية الثلاثة: اليهودية، والمسيحية، والإسلام من حيث

الاتفاق والاختلاف والصحة والشك، وقضية الوجود الإنساني

والخلق والمصير والغاية، وقضية البيئة على الكرة الأرضية،

وقضية العيش مراراً والتقمص والتناسخ لدى البشر.

4 - الرواية البوليسية: وهي (صمت الآلهة)، ويمكن ضمها

إلى المستوى الثالث من حيث المضمون الفكري الذي عالجه.

ومما يُذكر، هنا، أن بعض كتب (سينويه) هذه كانت تُدرّس في

بعض الثانويات الفرنسية لما لها من أهمية في توعية الناشئة.

(4)

أنشطة أخرى للمؤلف

كانت لكاتبنا (سينويه) أنشطة أخرى متنوعة سوى تأليف

الروايات، إذا ما استثنينا - بطبيعة الحال - مرحلة النشاط

الموسيقي والغنائي في العشرين سنة التي سبقت مرحلة

التأليف، ومن أبرزها:

1 - أنه كان يُستضاف في القنوات الثقافية الفرنسية أو في بعض

البرامج الثقافية في القنوات الأخرى لإلقاء الأضواء على عمل

معين تم نشره مؤخراً، أو لإعطاء صورة عامة عن أدبه وإنتاجاته.

2 - وأنه كان يستضاف أيضاً في المحطات الإذاعية الثقافية

الفرنسية أو في بعض البرامج الثقافية في محطات إذاعية

أخرى.

3 - وأنه كان يحاضر في بعض المنتديات الأدبية والمراكز

الثقافية حول أدبه أو حول شأن ما من شؤون الأدب أو بعض

القضايا المتصلة بالشأن العام، أو يوقّع على كتاب صدر له حديثاً

للمعجبين من القراء القدماء أو الجدد.

4 - وأن الصحافيين كانوا يجرون معه لقاءات يتحدث

خلالها عن أدبه عموماً أو عن آخر إصدار له أو عن آرائه في

الحركة الأدبية والثقافية في زمنه، كما كانت بعض مواقع النت الثقافية والأدبية تجري معه لقاءات حول ذلك.

5 - كما كتب سيناريو وحوارَ مسلسلٍ متلفز بعنوان (قَدَر الدكتور كالفيه) Le destin du docteur Calvet، بالاشتراك مع (دُني كوكولا) Denis Cocula، بُثَّ على القناة الفرنسية (FR1) في جزاين من سنة 1989 إلى سنة 1992 في نحو 150 حلقة كما ذكر (سينويه) نفسه، ومتوسط مدة الحلقة نحو 26 دقيقة. كما أنه حوّل روايته (أيام وليال) ذات الرقم (10) فيلماً متلفزاً أيضاً من جزاين سنة 2005 (على قناة France 3).

6 - شارك في كتابة سيناريو مسلسل متلفز بعنوان (أسطورة المفاتيح الثلاثة) La légende des trois clés، وبُثَّ في ثلاث حلقات آخر سنة 2007 وأول سنة 2008، على القناة (M6)، وهي القناة الثالثة من حيث كثرة عدد المشاهدين بعد القناتين (TF1) و(France2).

(5) تأثيراته

1 - البيئة المصرية:

كان كاتبنا (سينويه) متأثراً تأثراً عميقاً بالبيئة المصرية التي ولد وترعرع وشب فيها إلى مطلع شبابه، فانغrust طبيعة الحياة القاهرية خاصة في أعماق ذهنه وفكره بكل ما فيها من نكهات ومظاهر للحياة والعلاقات العامة وهذا التنوع والثراء الذي عاصره فيها، فكان وفيماً لمصر بإبراز عظمتها في الماضي وما يجول فيها في الحاضر، وكان يعبر عن حبه لها من خلال

زياراته المتكررة إلى مصر كلما شعر بشوق إلى مرابع الطفولة، أو كلما سنحت له الفرصة. وقد ألقى بعض الصحفيين، الذين زاروا (سينويه) في مكتبه، نظرة على محتويات هذا المكتب، وكتب يقول: (كلُّ شيء في مكتبه يُدكَّر باهتماماته: فهناك عدة كتب جميلة عن مصر، وهناك نارجيلة كان يحب أن يدخنها من حين إلى حين. وصورة المركب الشهير لوالده⁽¹²⁾، الذي قضى عليه القسم الأعظم من طفولته). كما أنه كان يضع (رباعية الإسكندرية) للكاتب الإنكليزي (لورانس دوريل) ⁽¹³⁾ Lawrence Durrell قرب سريره، لأنه كان دائم النظر فيها، وهذا يدل على حنين دائم إلى ربوع الوطن الأصلي الذي تكوّن فيه أولاً.

ولذا كان اهتمامه الكبير في كثير من رواياته ينصب على مصر القديمة أو مصر ما قبل حملة نابليون وخلالها وبعدها إلى يومنا هذا، وتشهد على ذلك رواياته التي مرت بنا، وهي ذوات الأرقام التالية (3 - 4 - 6 - 13 - 24 - 26).

2 - بعض الكتاب المصريين؛

يبدو لنا أن كاتبنا (سينويه) كان متأثراً في تجربة الكتابة الروائية أو التوثيقية أو التسجيلية التاريخية بتجربة الكاتب

(12) ذكر (سينويه) أن هذا المركب كان ملكاً للملك فاروق، فاشتراه منه.

(13) لورانس دوريل: كاتب رواثي وقصصي ومسرحي وشاعر وكاتب أدب رحلات إنكليزي مغترب (1912 - 1990)، ولد في الهند وتوفي في فرنسا، عاش خلال الحرب العالمية الثانية في الإسكندرية، واستوحى من أجوائها روايته الرباعية (The Alexandria Quartet)، وعناوين أجزائها حسب التوالي نشرها: ج1 - جوستين (Justine) 1957، ج2 - بالتازار (Balthazar) 1958، ج3 - ماونتوليف (Mountolive) 1958، ج4 - كليا (Clea) 1960. وقد ترجمت أجزاءها إلى الفرنسية بعنوان (Le Quatuor d'Alexandrie). وله أعمال أخرى كثيرة في المجالات التي ذكرناها آنفاً.

المصري (نجيب محفوظ) (2006م) في الكتابة التاريخية حين نشر في بداياته الأولى روايات ثلاثاً عن مصر الفرعونية: (عبث الأقدار: أو حكمة خوفو) 1939، و(رادوبيس) 1943، و(كفاح طبيبة) 1944. وكان نجيب محفوظ - فيما يبدو لنا - متأثراً أصلاً بترجمته، وهو طالب فلسفة في السنة الثانية، لكتاب (مصر القديمة) لـ (جيمس بيكي) Games Baikie، سنة 1932.

كما أنه - فيما يبدو لنا - كان يضع نصب عينيه روايات الكاتب (جرجي زيدان) (1914م)، وهو من أصل سوري - لبناني مثل كاتبنا (سينويه)، هاجر إلى مصر في القرن التاسع عشر، وأسس في القاهرة، سنة 1892، مجلة (الهلال) التي أصبح لها مؤسسة كبيرة باسمها هذا، وهي لا تزال قائمة إلى اليوم، وقد ألف عدداً كبيراً من الروايات التاريخية (نحو 23 رواية)، كان يمزج فيها الوقائع التاريخية بالوقائع الدرامية والخيال، ويضع الحوار على ألسنة الشخصيات التاريخية ويضيف إليها شخصيات فنية من عنده، ويجعل للرواية خيطاً يربط بين بعض شخصياتها بعاطفة الحب والغرام ليكون عنصراً تشويقياً جذاباً، ومن رواياته تلك: (أرمانوسة المصرية) و(الأمين والمأمون) و(العباسة أخت الرشيد) و(شجرة الدر). ويوجه بعض النقاد إلى أعمال (زيدان) الروائية التاريخية أنه اتجه في أغلب أعماله (إلى الفترات المظلمة التي تمثل صراعاً على السلطة والنفوذ)، أما (سينويه) فقد كان على عكسه، لأنه اختار - في معظم أعماله - الفترات المشرقة أو الشخصيات المجيدة في التاريخ العربي والإسلامي.

وربما تأثر أيضاً بشيء من مسرحيات (توفيق الحكيم) (م1987) التاريخية، من مثل: (شهرزاد) و(سليمان الحكيم)، أو بشيء من رواياته، من مثل: (عودة الروح) و(عصفور من الشرق).

وهكذا نجد (سينويه) - في رأينا - يسير على خطى (زيدان) و(محفوظ) و(الحكيم) على الأقل في اتجاهاتهم التأليفية التاريخية.

3 - ثقافته الأجنبية،

كان بحكم إلمامه العميق باللغة الفرنسية لديه اطلاع واسع على الثقافة الفرنسية من جهة، وعلى الآداب والتواريخ والفلسفات التي ترجمت إليها من مختلف اللغات من جهة أخرى. ويبدو أنه كان قارئاً نهماً، ولكنه كان يؤثر عدداً من الكتاب الغربيين على غيرهم، ويرتاح إليهم، ولذا نجده يعلّق صورهم في مكتبه، وهم: الأول الكاتب الفرنسي (غوستاف فلوبير) (1821 - 1880) G. Flaubert مؤلف رواية (مدام بوفاري) فقد كان يعلّق له صورة عَقْد اتفاق هذه الرواية مع ناشرها بقيمة (800 فرنك فرنسي). والثاني هو الكاتب الإنكليزي (لورانس دوريل)، صاحب الرواية الرباعية (الإسكندرية) التي جعلته في مصاف عمداء الأدب الإنكليزي، وقد تناول فيها أربع قصص حب من وجهات نظر مختلفة كانت تجري في ظل الأحداث نفسها، وفي ذات الأماكن (الإسكندرية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن 20). وقد وصفها أحد الصحافيين - كما رأينا آنفاً - بأنها كانت الكتاب الذي يضعه (سينويه) تحت المخذة، كناية عن إدمانه مطالعة أجزاءها بالترجمة الفرنسية. والثالث هو الكاتب الإيطالي

(دينو بوتساتي)⁽¹⁴⁾ Dino Buzzati، الذي اشتهر برأئحته الروائية (صحراء التارتار)⁽¹⁵⁾ Le désert des Tartares، وكان (سينويه) يضع هذه الرواية أيضاً قرب سريره لشدة إعجابها بها ليقراها أيضاً مراراً.

ويعترف (سينويه) بأن هذا المزيج العرقي والثقافي فيه هو سر النجاح الذي لقيته أعماله⁽¹⁶⁾، بل إنه هو الذي صنع الروح التي تنتشر في كتبه.

4 - ثقافته الدينية؛

كان لتكوينه التعليمي في مدارس اليسوعيين تأثير عميق في كل ما كتب من كتب تتعلق بشخصيات نصرانية أو ببعض القضايا الجدلية في هذه الديانة أو القضايا المقارنة بينها وبين اليهودية والإسلام، وقد تجلّى ذلك في مطلع صلته بكتابة الرواية التاريخية أو التوثيقية حين كتب سيرة حياة (البابا كاليكستوس الأول) وهي ذات الرقم (1) آنفاً، وفي الروايات ذات الأرقام (5 - 10 - 12 - 17 - 20 - 21)، وإن كان يبدو لنا غير ملتزم بالنصرانية إلا ظاهرياً، لأنه كان - فيما يبدو لنا - ارتيابياً متشككاً في أمور الأديان عموماً، لكنه كان منفتحاً - من

(14) دينو بوتساتي: كاتب روائي وقصصي وشاعر وصحفي ورسام إيطالي (1906 - 1972)، نشر روايته المذكورة بالإيطالية (Il deserto dei Tartari)، فأنشبت قدمه بين كبار الأدباء في القرن 20، وترجمت إلى الفرنسية سنة 1949.

(15) هو الاسم التشويهي عند الغربيين لـ (التتّر)، لأنه اسم مكان في جهنم يعذب فيه المجرمون، وأطلق الاسم هنا في الرواية على صحراء، ولا يعرف سبب ذلك.

(16) وهذا يذكرنا بأصول أمير الشعراء أحمد شوقي الذي كان ثمرة خليط عرقي متنوع قال عنه د شوقي ضيف في كتابه (شوقي شاعر العصر الحديث، ص9): (وكان أول ما أعدت ربة الشعر له ميراث دمه وأعراقه، فقد جاءت به من عنصر تركي، وآخر شركسي، وعنصر يوناني، وآخر عربي وكرد، فتأزرت فيه هذه العناصر، وأخرجت منه شاعراً ممتازاً، لعل مصر لم تظفر بمثله في عصورها المختلفة).

منطلق الموضوعية والفضول - على الإسلام مثلاً في آخر كتاب له عن سيرة الرسول الكريم، وهو ذو الرقم (27) آنفاً.
كان (سينويه) يضع أمامه في مكتبه (التوراة) la Bible. وكان يقرأ بانتظام (القرآن) و(التوراة)؛ إما محبّة، وإما فضولاً، لمحاولة العثور على جوابٍ للسؤال الأزلي: ماذا نفعل نحن على الأرض؟ فهل وجد الجواب عن هذا السؤال؟ ربما، ولكن هذا الجواب - بالتحديد - هو ما كان يبحث عنه عبر كل كتبه. ويبدو أن اهتمامه بالديانات كان يرمي إلى هذه الغاية المهمة التي حيّرت ولا تزال تحير بال المفكرين والفلاسفة والأدباء من القديم إلى يومنا هذا.

وينظر (سينويه) إلى التطورات السلبية والعشوائية القائمة على الجهل بحقيقة مقاصد الدين بعين القلق، فهو يدين ضمناً أي عنف أو تطرف غير منضبط باسم الدين، ويرى أن كل ما ركز عليه دعاة الحركات السياسية باسمه تركز على الشكليات كتغطية وجوه النساء وإطلاق لحي الرجال.. ومعاملة المرأة معاملة دونية، والخلافات المذهبية التي تغطي على الأولويات الجوهرية. كما يدين الازدواجية التي تظهر في سلوك كثير من المسلمين بين الالتزام بتعاليم الدين في الظاهر والتحلّل منها في السر والخفاء وفي خارج بلدانهم، وبخاصة في الغرب. وكان يرى مصر، على سبيل المثال، وهذا ما ورد في الرواية الراهنة أيضاً، يستشري فيها الدعاة المزيّفون الذين زاحموا الدعاة الحقيقيين، ليحوّلوا المجتمع المصري المنفتح إلى مجتمع متزمت لدرجة الانفلاق على التيارات العالمية خيراً كانت أم شراً، بعد أن خرجت من هذا المجتمع المغلق إثر الحملة الفرنسية

وفي زمن محمد علي باشا وفي عهد الخديوي إسماعيل. ولعل ما في الرواية الراهنة من وجهات نظر للمؤلف، بهذا الصدد، جاءت تلخيصاً لما ورد في روايته (الكولونيل والطفل الملك) ذات الرقم (16).

5 - رؤيته ومواقفه المبدئية وقناعاته:

يلاحظ المرء في روايات سينويه تعاطفه مع الإنسان عموماً بغض النظر عن انتمائه، ونجده يدين القوى الظالمة له أياً ما كانت، فقد كان معجباً بفلسفة (غاندي) في مقاومة الإنكليز في الهند، والتميز العنصري في جنوب أفريقيا، فخصه بكتابه ذي الرقم (25)، وله موقف صارخ من المسألة الأرمنية في روايته ذات الرقم (19)، ومن اليهود في الرواية ذات الرقم (14)، ومن الفلسطينيين في الروايتين ذواتي الرقمين (20 و21)، وكان ينظر بعين الريبة إلى حكم عبد الناصر ويتهمه بالاستبداد والطغيان، مع أنه أنصفه في بعض إنجازاته في الرواية ذات الرقم (26)، وكان يحن إلى فترة حكم الملك فاروق في الرواية ذات الرقم (16). وتحدث عن معاناة بعض الشخصيات وكفاحاتها كما في الروايات ذوات الأرقام (7 - 15 - 18). كما تطرّق إلى عواطف الحب في الروايات ذوات الأرقام (3 - 4 - 11). ولم يهمل التعبير عن إعجابه بأحد علماء المسلمين في ميدان الطب خاصة في الرواية ذات الرقم (2).

ويمكن القول، باختصار، إن (سينويه) كان سفيراً معرفياً لكثير من زوايا الشرق لدى الغرب؛ فقد عرفهم ببعض الشخصيات القديمة والحديثة، ويعدد من النساء الشهيرات، ويحكم المفكرين الشرقيين، ويبعض همومهم وقضاياهم.

(6)

الرواية الراهنة

(الرجل الذي كان ينظر إلى الليل)

لعل هذه الرواية هي الرواية الفنية الوحيدة المتكاملة التي ألفها (جلبير سينيويه) حتى اليوم، وقد اعترف هو نفسه بذلك حين عبّر عن تحوُّله عن نهج الرواية التاريخية فقال: (وذات يوم، لم يعد لديَّ رغبةٌ في التحدُّث عن الأموات. فقد قدِّمتُ كل ما كان عندي وأنا أروي عن الشرق)، ثم قال: (يجب أن يتعلَّم المرء كيف يمكن أن يغيّر طريقه في وقت ما).

وقد كتبت الصحافية والروائية اللبنانية (كارول داغر) في صحيفة (لوريان - لوجور) البيروتية يوم 2013/2/11، مقالة بالفرنسية، بعنوان صارخ عن هذا التحول هو (جلبير سينيويه يهجر التاريخ)⁽¹⁷⁾، قالت فيها: (إن (جلبير سينيويه) كاتب الروايات التاريخية الكبير، وهي الأكثر رواجاً، اختاران يقرب صفحة مهنته المتألقة، ليكتب نوعاً آخر من الرواية أكثر ذاتية. ثم استشهدت بكلام على لسان الكاتب نفسه في بعض تصريحاته حين يقول: (هذا الكتاب يعني لي الكثير، وقد وضعتُ فيه الكثير مني، من ذاتي، وهذا ما لم أصنعه في أي عمل آخر)⁽¹⁸⁾.

وإذا ما تساءلنا، في محاولة منا لفهم حقيقة عنوان هذه الرواية، الذي اختاره المؤلف لها: لماذا كان هذا الرجل، دائم النظر

(17) وقد ترجمت صحيفة (الحياة) العربية بباريس هذا المقال ونشرته يوم 2013/3/6 بالعنوان نفسه.

(18) ونجد إحدى المعجمات بالرواية تكتب تعليقاً عن معالجه للطبيعة البشرية فيها، فتقول: (اكتشافك للطبيعة البشرية هوَّي جداً كما في أعمال شكسبير) (أمل دوزي A. Douzi).

إلى الليل؟ هل كان يستطلع فيه جمالياته من ضوء القمر أو تنائر النجوم أم هو معجب بهذا السكون الذي يلف به الكائنات والطبيعة؟ فيمكن أن نجيب عن هذا السؤال، من خلال معايشة هذه الرواية، بأن هذا النظر إلى الليل إنما كان نظرة إلى الجانب المظلم، والمخفق، والمهزوم، والحزين، والمتشائم من الحياة. والدليل على ذلك أن الطبيب العجوز (باباداكيس)، الصديق العجوز لـ (تيوفان) ينصحه قائلاً: (إن أفكارك تعمل كمنقياتٍ (فلاتر) على جهاز تصوير، فغير منقياتك، أعني طريقتك في رؤية العالم، وسيتكيف جسدك مع إحساسك الجديد)، ويقول له مرة أخرى: (غير منقياتك، غيرها بسرعة، وكف عن أن تُرشد الليل إلى خلاياك).

ولكن هذه النظرة المظلمة إلى الحياة ستزول أخيراً، لتصبح في خبر (كان) الذي ورد في العنوان، وينتقل للنظر إليها نظرة تساؤل وحب وتعلق وأمل، فانتقل في نظره إلى (النهار) إن جاز التعبير. وعاد ينظر إلى الليل نظره الرومانسية الباحثة عن اللذة والجمال فيه.

من هو بطل الرواية؟

لقد اختار (سينويه) لروايته هذه بطلاً سماه (تيوفان دبانه) زعم أنه جاء من (مصر) ليدرس الطب في (باريس)، فانكب على دراسته وكان ينجح كل سنة نجاحاً باهراً لفت إليه أنظار أساتذته، فأبدوا إعجابهم به، ورشحوه لمتابعة دراساته العليا في الطب، وتخصص بجراحة القلب، وتخرج في جامعته، وراح يعمل في المشافي في هذا المجال ويرع فيه واكتسب شهرة عالمية، جعلت منه خليفة لأول من أجرى عملية في العالم، وهو (كريستيان

بارنارد)⁽¹⁹⁾ (م 2001) الذي أجرى أول عملية نقل قلب بشري في العالم، وفي تاريخ البشرية كلها، وزرعه في صدر مريض قلب تم استئصاله، في أحد مشافي جنوب أفريقيا يوم 1967/12/3، وتابع هذه العمليات وخرّج كثيراً من المختصين بها في العالم حتى سنة 1983.

وقد أصاب الدكتور (تيوفان دبانه) مجدداً عظيماً وحقق ثروة طائلة، وصار الجميع يتقربون منه ويطلبون صداقته أو رضاه، وعمد إلى اختراع طريقة خاصة به لإجراء العمليات في القلب. ولكنه عندما طبقها وقع في خطأ بسيط أودى بحياة المريض، ففقد الثقة في نفسه، وانكفاً على ذاته، ولم يتحمّل عذاب الضمير، وقرّر الانسحاب من عالم جراحة القلب والأضواء والشهرة والمال.

وبالفعل، يحزم أمتعته ويسافر سراً إلى إحدى جزر الأرخبيل اليوناني في شرقي بحر إيجه تدعى (باتموس)، كانت جدته لأمه تنتمي إليها، وهي جزيرة نائية وهادئة وسكانها بسطاء. وقد عرفت تاريخياً بأنها كانت ملاذ (يوحنا اللاهوتي) الرسول، وفي إحدى مغاراتها كتب (رؤياه) الشهيرة التي نقرأ نصها في آخر الأناجيل الأربعة، فأسبغ بذلك على هذه الجزيرة نوعاً من القدسية في تاريخ النصرانية.

(19) بارنارد: هو (كريستيان Christiaan -) طبيب من (اتحاد جنوب أفريقيا) (1922 - 2001)، أصبح مشهوراً بعد نجاحه في إجراء أول عملية لنقل قلب بشري وزرعه في 1967/12/3، استمرت عشر ساعات، نقل خلالها قلب شابة توفيت بحدوث سير، عمرها 25 سنة، إلى جسد رجل عمره 53 سنة. وقد توفي (بارنارد) نفسه في (بافوس) Paphos بقبرص عن عمر 78 عاماً بنوبة قلبية، وكان قد كف عن إجراء العمليات منذ سنة 1983، إثر إصابته بروماتيزم اليدين (المترجم).

لقد اختار الدكتور الشهير (تيوفان) هذه الجزيرة، وزعم لأهلها أنه طبيب عام، وأخفى عنهم حقيقته؛ وظلَّ يحمل في صدره آلاماً تعكّر عليه صفو حياته، وهو يكتُم السر الدفين فيه عن جميع الناس، وقد هجرته زوجته نهائياً، وكان ابنه (تيمور) فتى مراهقاً، دائم اللوم لأبيه لمسؤوليته في مغادرة أمه بيت الزوجية. ويتعامل مع أبيه تعامل الند للند، ويتحمّل منه أبوه نقده اللاذع والثقيل، لأنه كان يراه على حق في كثير من الأحيان ويتأفّف منه في بعضها، إلى درجة أن (تيمور) يجروا أن يقول لأبيه: (أنا إذا أخوك الأكبر). وكان أبوه يقول له: (نحن الاثنان كلُّ منا سجين في الآخر. فأنت أنا، وأنا أنت: فكيف الخلاص؟). وما يثير فضولنا ذات مرة أن (الباشا) سأل (تيوفان) إن كان عنده ولد فتجاهل السؤال.

ومنذ وصوله تعرّف على عدد من الأفراد الذين أصبحوا أصدقاء حميمين له، وبحكم كون جدته يونانية من هذه الجزيرة نفسها، فقد كان يتفاهم معهم باليونانية لأنه يتقنها، وأحياناً يكلم بعضهم بالفرنسية لدراساتهم في فرنسا، وكان في كل يوم يزور مرضاه قبل الظهر ويتفرّغ للذهاب بعد الظهر إلى المطعم - المقهى، وهو إلى ذلك يشرب ويلعب طاولة الزهر. وكان يدخل في البيت مساء، يعزف على (الغيتار) الذي هو آتته الموسيقية المفضلة، ويحب سماع بعض الكونشرتات والقطع الموسيقية المشهورة عالمياً. وكان يسارع إلى إسعاف أي حالة طارئة في أي وقت من النهار أو الليل وفي أي جو. وكان له حصان أحضره معه من فرنسا سماه (جيهول أو جيول) يمارس عليه هواية ركوب الخيل على الشاطئ كلما شعر بضيق، وقد عهد به إلى أحد

الفلاحين في (باتموس)، كما كان يمارس رياضة السباحة في البحر هنالك. وكان من أبرز أصدقائه:

1 - باباداكيس: وهو طبيب ومثقف ثقافة عالية ومتقدم في السن، ومتفلسف من الدرجة الأولى، ودائم النقاش مع (تيوفان)، حول قضايا فكرية وفلسفية وطبية وعلمية.

2 - ديمتري: وهو صاحب مزرعة عنب، ويعصر منها نوعاً فاخراً من الخمر، وهو رجل بدين يحب الطعام والشراب والنساء والتدخين ولعب طاولة الزهر، ويطمع في شراء أرض مجاورة لمزرعته ليتوسّع في عمله.

3 - بيبا: وهي امرأة ذات تاريخ معقد جداً، تبلغ الخامسة والأربعين تقريباً، اشترت نزلاً في الجزيرة لتديره بنفسها، وكان لها ابنة مشلولة الساقين من سن 12 تدعى (أنطونيا)، وتبلغ الآن 26 سنة، جميلة، لكنها عنيدة ومنطوية على نفسها، ومتشائمة من وضعها، إلى أن طلبت أمها الطبيب (تيوفان) ليعالجها من حمى، فكان لقاؤهما في البدايات عدوانياً من قبلها، ثم استأنست به ونشأت بينهما مودة خاصة، تحولت إلى إعجاب شديد وحبّ. ويحاول الطبيب أن يعيد إلى ساقها بعض التحسن قدر الإمكان، وينجح في ذلك تدريجياً، ويعترض ابنه (تيمور) على علاقتها. وكان لـ (أنطونيا) أخ أصغر هو (اليكسيس) مراهق ويحب تحطيم الرقم القياسي في كتم النفس تحت الماء في البحر.

4 - الباشا: صديق قديم لـ (بيبا)، يبلغ قرابة 76 سنة، يوناني الأصل كانت أسرته تسكن في الأناضول، واضطرت أسرته - وهو صغير - للجوء إلى مصر، وترعرع وشبّ فيها وخالط

أهلها، وأحبَّ (ليلى) المصرية المسلمة الجميلة، وتحول إلى دينها الإسلامي، ولو ظاهرياً، ليتزوج منها لشدة حبه لها، لم ينجبا، ثم ماتت ليلى وترمّل وبقي عزياً بعدها إلى أن تعرّف، وهو في نحو الستين، على (بيبا) لمجرد الصداقة، وبسط من وقتها رعايته عليها وعلى ابنيها اللذين أصبح بمنزلة الوالد لهما، وكان يعيش معهم في الجزيرة بعد انتقالهم إليها من (أثينا) العاصمة. واكتسب لقب (الباشا) من هيبة طلّعته ووقاره وغناه وأريحيته، تأثراً بسمعة الباشوات العثمانيين أو اليونانيين في العهد العثماني في اليونان. وربما اكتسبه على الطريقة المصرية في إضفاء لقب (الباشا) على كل متميز بالسلطة أو المال أو المنصب أو العلم أحياناً من باب الإجلال أو الاحترام.

كان في حياة (تيوفان) سر عميق يجعله دائماً غامضاً وحزيناً، وكانت (بيبا) أول من أدرك وجود سر يقلقه باستمرار: (إن هذا الرجل يخبئُ سرّاً كبيراً)، لكنها لم تعرف ماهيته، وتحاول مع (الباشا) و(أنطونيا) وصديقيه (باباداكييس) و(ديمتري) أن يدفعوه إلى البوح بما يثقل كاهله، ويتم لهم ذلك بعد أن تنفض له (بيبا) كل ما في جعبتها من أسرار خطيرة مليئة بالفضائح والعذابات في حياتها، ويلعب اهتمامُ الطبيب (تيوفان) ب(أنطونيا)، وإجراء جراحة ناجحة لأخيها في القلب، بعد أن علمت أنه كان في الأصل جراح قلب مشهوراً لا طبيباً عاماً، في إخراجِه من المتاعب النفسية التي كان يعانيها، ويتخلّص من تأنيب الضمير الذي كان يلاحقه باستمرار، ليعيش مع نفسه ومع الناس ومع من حاول أن يخرجهم من الآمهم، وليتصالح مع الحياة عموماً. وتكشّف السر الكارثي بصورة مفرّعة ورهيبة،

وظهر لنا السبب الحقيقي وراء هروبه الطوعي إلى العزلة عن عالم الشهرة والمجد والثروة والطبقات المخملية التي كان يعيش فيها ويتمتع بملذاتها النفسية والمادية.

(7)

فلسفة الرواية

كانت حياة (تيوفان) رحلة طموح، وتحقيق مجد، وإخفاق، ونجاح، وسرور وألم، وتعالٍ وتواضع، وعيش في برج عاجي وتحول إلى وسط الناس العاديين والبسطاء، أو من الطبقة الوسطى، وكان يعبر عن أزمة الهوية الضائعة ما بين مصر وفرنسا واليونان، أو أزمة انعدام الجنور التي كانت تشعره بأنه خارج المكان وإن كان فيه، وخارج الزمان وإن كان يحسّ به. علماً أن (أنطونيا) في هذه الرواية تعيده إلى هويته العربية لمجرد تسليمه بـ (المكتوب) تأثراً بقيم الإسلام الذي عاش في وسطه بمصر، حين تقول له: (أنت بعد ما يقرب من ثلاثين عاماً في الغرب تظلّ في النهاية عربياً). كانت فلسفة هذه الرواية تقوم على انبثاق النور من وسط الظلام، وخروج المرء من آلامه من خلال معالجة آلام الآخرين أو التخفيف منها، وهذا يقترب من بعض المقولات السائدة بيننا - نحن العرب - وهي أنّ مَنْ رأى مصائب غيره هانت عليه مصيبته، وأنّ ليس بعد الشدة إلا الفرج. واختيار الكاتب لبطله منفى في جزيرة (باتموس) دون غيرها من عشرات الجزر اليونانية، كان القصد منه السير على طريق النور الذي سار عليه (يوحنا اللاهوتي الرسول)، وبالفعل نجح الكاتب في تعريفنا بهذه الجزيرة وقيمتها التاريخية والدينية في النصرانية بخاصة،

كما أظهر لنا جماليات هذه الجزيرة الطبيعية، مما قد يفري القارئ الكريم بزيارتها يوماً ما.

تطرح الرواية مشكلة الإعاقة عند الإنسان، ويرى الكاتب أن معظم الناس معاقون بشكل أو بآخر، حتى (تيوفان) كان يشعر بأن لديه إعاقة نفسية لأن ماضيه كان يجثم على صدره ويكاد يخنقه بحمله سراً ثقيلاً منه، وكان يرى أن (أنطونيا) هذه الفتاة الشابة هي التي سوف تعالجه من هذه الإعاقة النفسية وتشفيه منها. وقد تحقق لكل منهما هذا الهدف في نهاية المطاف، فأقبلت الفتاة بتفاؤل على الحياة، وتجاوزت عقدة الشعور بإعاقتها، ولم تعد ترى في نظرات الناس إليها نظرات شفقة وإنما نظرات حب وإعجاب ولا مبالاة. واستعاد هو ثقته في نفسه وعاد إلى عمله الجراحي بنجاح بعد أن باح بكل ما في صدره من أسرار الماضي التي تفاعنا وتصدنا وتشعرنا بالحزن والألم الذي طالما شعر به هو نفسه وحاول كتمانها قدر ما استطاع.

لقد كان يمارس ركوب الخيل، على حصانه (جيهول) الذي كان يقول عنه: (جيهول هو طيببي)، ويقول عن ركوب الخيل بحد ذاته إنه (يريحني ويخفف من عصبيتي)، كان ذلك قبل التعرف على (أنطونيا) التي حاول أن يدمجها في الحياة ويدخلها في دائرة التفاضل، وكان يرى في علاجها علاجاً له بالذات، وقد استعمل وصفة الركوب على الخيل معها أيضاً، وعلى حصانه نفسه. وقد صرّح لها بأن بعض الناس يعالجون أنفسهم ولكن عن طريق ممارسة الفن أو السياسة أو غيرها، وهذا يكشف لنا عن صدق ما يقوله علماء النفس من أن الأدب والفن وسواهما تنفيس عن كرب عند من يمارسهما.

كتبت قارئة معجبة تعليقاً على قراءتها هذه الرواية تقول:
(تبدأ هذه الرواية معتمة جداً.. وفي القسم الأخير منها يظهر
النور، والحب، والتحرُّر، وساعةُ الخلاص)، وكان حقاً ما قالت.

(8)

بانورامية المواضيع

يلاحظ القارئ - أثناء رحلة قراءته هذه الرواية - أن حياة
(تيوفان) الطبيب المشهور، بتفاصيلها الكبرى، تسير على خطِّ
يكاد يكون متوازياً مع خطِّ حياة مؤلِّفنا الكاتب (سينويه)،
فكلاهما انطلق من مصر، وكلاهما حقَّق طموحه في النجاح
الذي كان يريده، وكلاهما مرَّ بأوقات سعادة وشقاء، وكلاهما
يشعر بتذبذب هويته في ميزان الانتماء الذي لا يرحم. لقد
كانت قضية الهوية والاندماج والشعور بالغربة هاجساً للبطل
وللكاتب في آن معاً⁽²⁰⁾، أي أن هذه الرواية تكاد تكون سيرة ذاتية
للكاتب ولكن في قميص طبيب من بنات أفكاره. ولذا قالت
الكاتبة (كارول داغر) في مقالتها التي أشرنا إليها: (إن أوجه
الشبه بين الدكتور «تيوفان» والروائي «جلبير سينويه»، واضحة
ولا تحتمل الشك).

وهذا يؤكِّد ما قلناه آنفاً من أن هذه الرواية كانت الرواية
الفنية الوحيدة الكاملة أو المتكاملة، خلافاً للروايات التاريخية
التي تغلب عليها - بطبيعة الحال - النزعة الموضوعية والتقييد

(20) ولكن مما يعزِّي كاتبنا في هذا المجال أن غيره من الجنسيات والبلدان الأخرى تفرسوا
وكتبوا بالفرنسية واشتهروا بذات الطريقة وربما عانوا ما عانى وأكثر، من أمثال: يونسكو،
وبيكيت، وأداموف، وآسيا جبار وغيرها من الجزائريين والمغربيين والأفارقة واللبنانيين، وغيرهم.

بالمعطيات التاريخية الثابتة عموماً. وهي سيرة شبه شخصية للكاتب، مما يدل على تأثير كتاباته السابقة في السير والتراجم الروائية التاريخية تأثيراً عميقاً في قلمه وفي تفكيره.

لقد كانت مصر التي خرج منها إلى بلد ثقافته - كما كان قد زعم - دائماً في تفكيره، وبدلاً من أن يغنيا - من خلال ثقافته الفرنسية - بشيء عن فرنسا وحضارتها أو حضارة الغرب، راح يغني الثقافة الفرنسية والغربية بما يعرف عن مصر بخاصة والشرق بعامة. وكانت ذكرياته، التي هي نسخة محفوظة في ذهنه عما عاشه عملياً في القاهرة والإسكندرية وغيرهما، كثيراً ما تطفو على سطح أوراقه في هذه الرواية، فيسردها بشيء من الحنين.

ولذلك نجد في هذه الرواية وقائع تاريخية وسياسية واجتماعية وفنية وأماكن وأحداثاً وشخصيات ومعلومات وأسماء حقيقية كثيرة تجعل كثيراً من فصول هذه الرواية تكاد تكون تسجيلية. ومن خلال هذه الحقيقة نستطيع أن نحكم على هذه الرواية بأنها كانت بانورامية المواضيع، لأنه التقط فيها لقطات كثيرة بشأن مواضيع لا يكاد يجمعها جامع سوى اهتمامات الكاتب، وتعرض علينا شرائح من الحياة متنوعة. وكان لمصر نصيب كبير من هذه الشرائح واللقطات. ووقف عند طبيعة التعليم اليسوعي في مصر، وقد ذكر بعض المعلومات عن شخصيات مصرية عامة: رياضية وغنائية وفنية وسياسية أيضاً. وقد بثّ الكاتب في روايته بعض الألفاظ العربية التي بقيت في ذاكرته، كما أن بعض الكلمات العربية وردت على لسان (الباشا) الذي عاش في مصر دحاً من الزمان قبل أن يعود إلى اليونان.

ويث الكاتب أيضاً على لسان (بيبا) و(ديمتري) كثيراً من الكلمات والعبارات اليونانية لتأكيد إمامه بشيء من هذه اللغة التي تنتمي إليها جدته لأمه وعيشه حقيقة، ولو في الخيال، على أرض اليونان، وقد كان يستعمل الحروف الفرنسية في التعبير عن أصوات هذه الكلمات، وقد قمنا بإثبات أصلها باللغة اليونانية. كما عرّفنا على كثير من المأكولات والحلويات وأنواع الأشربة وبعض أنواع الفنون والآلات الموسيقية في اليونان. وأهم من هذا ومن ذاك أنه عرّفنا على استغراق اليونانيين في أساطير أجدادهم، وأطلعنا على بعض المعتقدات التي تتعلق بجملة من الآلهة التي كانت موزعة الاختصاصات كما هو معلوم على مختلف أنشطة الحياة البشرية. وقد تطرّق إلى القدسية التي تحملها جزيرة (باتموس) في الدين النصراني وسبب ذلك. وبين كيف يعيش اليونانيون اليوم بين قطبين: الدين النصراني والأساطير القديمة الميتة - الحية في عقولهم. ووصف بعض أخلاق هذا الشعب المتوسطي العريق، وعرّفنا ببعض شعراء اليونان وأدبائها المشهورين في العصر الحديث.

وسجّل مواقف سياسية واجتماعية ودينية وإنسانية كثيرة من خلاله أو من خلال (الباشا) أو (بيبا)، وهو يندد دوماً بالأنظمة الشمولية والاستبدادية. ويتعاطف مع الشعوب التي عانت الاضطهاد والعنصرية والتصفية العرقية والاحتلال والإجلاء. وذكر حريق القاهرة سنة 1952، وما تلاه من ثورة الضباط الأحرار بمصر في السنة نفسها، وتأميم قناة السويس سنة 1956، وما تلاها من إجراءات، وكان له موقف من عبد الناصر، وموقف آخر من انقلاب الضباط أو العقداء في اليونان سنة

1967. كما كان يستنكر ما يجري في العالم من هتك لحقوق الإنسان في مختلف البلدان. ويستنبط القارئ أنه كان يرى أن ما جرى في مصر والأقطار العربية - بعد خروج الشاه من إيران وحلول الخميني محله - قد انعكس في صورة تحولات سلبية نحو التزمّت والتيارات السياسية الدينية العملية القائمة على التطرف أو الجهل بمقاصد الدين الحنيف الحقيقية والصحيحة، مع الانغماس في الشكليات دون الجواهر، والميل إلى العنف المناقض لطبيعة الدعوة السمحة، والانفصام عن الواقع المعاصر ومتطلباته الجديدة التي تحتاج إلى مرونة وصدق في الاجتهاد وحلّ المشكلات في كثير من الميادين بما يتناسب مع تطور الحياة عبر ألف وخمسمئة سنة من الزمان.

وأدخل في الرواية كثيراً من المعلومات الطبية المتعلقة بجراحة القلب، وبعض الأمراض كشلل الأطفال، والأزمات ومهنة الطب، ووصف وصفاً علمياً مخيفاً كيفية تحلّل الجسد البشري بعد مفارقة الروح إياه ودفنه.

وكان الكاتب يطرح بعض القضايا الفلسفية والعلمية والدينية التي تتعلق بالوجود والمصير والغاية من الحياة البشرية، وغير ذلك من القضايا التي تشغل بال الناس العاديين والفلاسفة والعلماء والمفكرين منذ أقدم أزمنة التاريخ الإنساني. ويدخل في جدال حول ذلك مع بعض أصدقائه. وكثيراً ما كان إبراز قيمة الحياة البشرية وإنقاذ الناس من الآمهم يتردّد على لسانه ولسان بعض الشخصيات الأخرى. وحين يلتفت إلى ما في العالم من مظالم كان يرى أن الإنسانية لا تستحق هذا الكوكب الجميل الذي تعيش عليه.

ومن أبرز الجوانب الإنسانية في الرواية تسليط الضوء على قضية الإعاقة عند كثير من الناس. وتسلط الرواية الضوء على موقف (الباشا) من إنجاب الأطفال، وعلى التأثير الذي وصفه (تيوفان) بأنه أقوى من أي مخدر للمجد، والشهرة، والقوة. كما تطرّق إلى عناد الشباب ومخالفته لأفكار الشيوخ من جيل الأجداد والآباء.

(9)

تقنيات بناء الرواية وأسلوبها

1 - من المسلمّ به أن المضمون الذي يتناوله الكاتب يتحكّم عادة بطبيعة الكتابة التي تحيط به وتستوعبه، فتناول موضوع تاريخي يختلف تماماً عن تناول موضوع ذاتي، وقد عبّر (سينويه) عن هذا الاختلاف بين تجربتيه في كتابة الرواية التاريخية والرواية الفنية الراهنة، فذكر أن كتابة الرواية التاريخية تتطلّب منه التقيد بما يحفظه التاريخ، وأن يظلّ ملتزماً به، أما كتابة رواية تغوص في الذات الإنسانية، فإنها تمنحك قوة استثنائية، وأضاف قوله عن تجربته في الرواية الراهنة: (وأنا أكتب هذه الرواية كنت متحرراً من كل شيء: من التاريخ ومن قيود الشكل والمضمون. تنقلت بحرية من غير أن أوجه لنفسي الأسئلة والحلول، وشعرت بأنني أكتب وهواء الحرية يعصف من حولي).

لقد كانت حرية الكتابة، بلا قيد من تقنيات الشكل والمضمون، هي التقنية الجديدة التي كانت تدير كتابته وتتحكم بها في هذه الرواية.

2 - قَسَم (سينويه) روايته أربعة وعشرين فصلاً مرقماً بلا أي عنوان لأي منها. وكانت هذه الفصول تتميز إجمالاً بالقصر، وتكاد تكون مساحاتها متساوية تقريباً.

لم تكن الرواية تقليدية من حيث الخط الدرامي الذي يتصاعد حتى يخلق فينا توتراً تعبّر عنه الحكمة، ليلها الحل واختتام الأحداث بإغلاق دائرتها أو بتركها عند حد معين. بل كانت سرداً أشبه باليوميات أو المذكرات التي تتراكم صعوداً وعرضاً فصلاً بعد فصل.

3 - يعتمد الكاتب على تقنية استعادة بعض المشاهد أو العبارات بحذافيرها عن طريق تقنية الاستذكار. كما أنه كثيراً ما كان يقطع اللحظة الراهنة التي كان مستغرقاً فيها بفواصل من الذكريات مفاجئ قد تستدعيه فكرة، أو موقف، أو صورة معينة، أو سؤال ما، أو لحظة ألم، وكانت ذكريات حنينه إلى مصر التي ولد وعاش فيها نحو عشرين سنة بكل ما فيها من نكهات خاصة لكل شيء، تثير فيه الدفء واللذة، وكانت صورة العملية الجراحية المخففة تلاحقه وتثقل على ضميره، وكانت بعض صور السعادة تتردد على ذاكرته، إلا أن ابنه (تيمور) كان قد رأى أن كل أنواع الذكريات كانت تثير فيه الحزن عموماً، ولذا نصحه بقوله: (تخلص من ذكرياتك، فإن الذكريات ساعات جدارية متوقفة).

4 - وكانت الواقعية شبه المطلقة تشكل عند (سينويه) تقنية أساسية في كل الرواية، لأنه كان يصور البشر كما هم في الواقع، فيسرد علينا رذائلهم وفضائلهم كما هي بلا وعظ، ولا دعوة إلى التحلي بما هو مثالي، ولا مبالغة. وربما أجرى على السنة

شخصيات روايته أنفسهم ما هم عليه مما يدل على شجاعة هذه الشخصيات وثقتها بنفسها.

5 - كانت هذه الرواية تحمل روحاً مسرحية، نظراً لأن الحوار كان طاعياً فيها على السرد طغياناً يكاد يحولها مسرحية بأقل جهد، وربما كان طغيان الحوار هذا قد قام، هنا، بوظيفة السرد نفسها، لأن الحوار يكشف طبيعة الشخصية وصفاتها وسماتها، لأن العرب تقول: (المرء مخبوء تحت لسانه)، ولا يدرك الآخر طبيعة هذا المرء حتى يسمع كلامه، وهنا تعبر الشخصية عن نفسها بنفسها، كما في المسرحية تماماً. ونلاحظ أن الرواية بهذه السمة يمكن أن نحكم عليها بأنها بين المسرحية والرواية، ويمكن وصفها بأنها (مَسْرُوِيَةٌ)، إن جاز لنا هذا الوصف لهذه الطائفة من الروايات التي تنطبق عليها هذه السمة الوسطية بين نوعين سرديين لهما في الأصل شروطهما النوعية المستقل بعضها عن بعض.

6 - كان الكاتب يتحدث عن بطله بضمير الغائب، إلا حين يجري الحوار على لسانه، وألسنة الشخصيات الأخرى فيتنقل الضمير ما بين هو وأنت وأنا ونحن.

7 - لعل التجربة المريرة التي مر بها آدم عليه السلام في قصة الخلق، وهي النقلة من النعيم إلى الشقاء بسبب هفوة، هي التي ألهمت (سينويه) الخط العام لروايته، وكأن لسان حاله يقول ما قال شاعرنا الفرزدق في العصر الأموي حين طلق زوجته المحبوبة (نواراً):

غَدَتْ مِنِّي مُطَلِّقَةٌ نَوَارُ
كَأَدَمَ حِينَ أَخْرَجَهُ الضَّرَارُ

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الكُسْعِيِّ لَمَّا
وَكَانَتْ جَنَّةً فَخَرَجْتُ مِنْهَا

مع فارق واحد هو أن بطل روايتنا الدكتورُ جرّاحُ القلب الشهير، عاد إلى السعادة التي كان قد فقدتها، بحب جديد ومجدد كان يرتسم تحت ناظريه في مستقبل جديد، بعد أن تغيّرت نظرته إلى الحياة، واكتسب تجارب جديدة جعلته أقرب إلى النبض الإنساني الذي هو جوهر مهنة الطب منذ أن وضع أبو قراط لزملائه عبر التاريخ إلى يومنا هذا قَسَمَهُ الشهير، والذي يخالفه الكثير منهم - للأسف الشديد - في هذه الأيام.

8 - من ميزات هذه الرواية الأسلوبية حشده لعدد كبير من الإشارات والوقائع والأحداث التي كانت تحتاج إلى قارئ واسع الثقافة - حتى في الغرب - ليتمكن من الإلمام بها جميعاً، وهذا ما اضطرنا إلى الوقوف عند هذه الإشارات لتفسيرها وتوضيحها على وجه العموم.

9 - كان (سينويه) ينقل النصوص المقتبسة من مصادرها بدقة وأمانة، كما فعل في خبر الرياضية الدانماركية المعوقة مثل (أنطونيا) في الخمسينيات حين كانت تمارس الفروسية وتدرّب عليها. وحين نقل مقاطع من (رؤيا يوحنا اللاهوتي) في آخر الأناجيل الأربعة المعتمدة.

10 - النزعة التسجيلية التي رأيناها في وقوفه على كثير من الوقائع السياسية والاجتماعية، وكأنه لا يزال واقعاً تحت تأثير كتاباته التاريخية السابقة.

11 - النزعة البانورامية في عرض المواضيع التي كان يتطرق إليها، حتى بدا لنا في الرواية خط عمودي عريض ومستقيم يبدأ بلبيل وينتهي بنهار، تتفرع على جوانبه مجموعة تفرعات موضوعية أشبه بالأغصان المنبتقة من جذع شجرة.

12 - كان الكاتب يستعمل في بعض جوانب روايته تقنية حديث النفس الداخلي أو التفكير بصمت، ليتيح لشخصياته أن تكشف ما حولها، وتوازن بين الأمور، وتحدد المواقف، لتتخذ لنفسها موضع قدم بين الشخصيات الأخرى في الواقع الذي تحدده العلاقات فيما بينها، أو ربما مجرد فهم ما يجري حولها.

(10)

دور الإنترنت في عمله الأدبي

كنا قد استنبطنا، عند ترجمتنا رواية (إني أتعافى)⁽²¹⁾، أن مؤلفها (دافيد فوينكينوس) كان بارعاً في الإبحار عبر مواقع الإنترنت، وكان يفيد منها معلومات يحشدها في روايته، ويبدو أن كاتبنا (سينويه) كان يتبع النهج ذاته في مثل هذا الإبحار، ولعل هذه السمة كانت عامة بين كتّاب الأقصوصة والقصة والرواية والمسرحية عند الكتّاب المعاصرين منذ أن أصبح الإنترنت المرآة السحرية للبشرية كلها من الناحية العملية منذ تسعينيات القرن 20 وإلى يومنا، وهي تزداد أهمية يوماً بعد يوم لما تقدمه من زاد معرفي لا حدود له. ولذا نجد كاتبنا (سينويه) يقول بكل صراحة عن مصير (الغيتار) الذي شغل هوايته منذ فترة مراهقته بمصر، حتى دفعه إلى دراسة الموسيقى بـ (باريس) والانغماس في أجوائها مدة عشرين سنة تقريباً، وكان صديقه ورفيقه الدائم، حتى إنه رافق (تيوفان) بطل روايتنا الراهنة أيضاً، يقول بعد أن صرف اهتمامه الرئيسي في مرحلته الثانية من حياته إلى الكتابة: (وَتَمَّ رَكْنُ الْغَيْتَارِ فِي زَاوِيَةٍ صَامِتاً، لِأَنَّهُ

(21) العدد 407 من سلسلة إبداعات عالمية، يونيو سنة 2015.

كان ينتمي إلى الماضي. وحل الكمبيوتر محلّه اختياراً)، ثم أضاف قوله عن دور هذا الكمبيوتر: (كنتُ أبدأ بحوثي غالباً على الإنترنت). ويفسّر لنا لماذا لا يأخذ إجازة، أو فترة راحة، بين كتابين، فيقول: (أولاً لأنني أعيش من قلمي، ومن ثمّ كان عليّ أن أصارع الجانب الشرقيّ في نفسي. وكان لديّ أيضاً ميلٌ مُزعجٌ إلى السباحة في الخيال، وإلى ترك الحياة تحمّلني حيث تريد). وقد أشرنا من قبل إلى بعض المواضيع التي تدل على إفادته من هذه المرأة السحرية التي تدل على عبقرية الإنسان، ونضيف إلى ذلك أن للكاتب موقعاً على الإنترنت يمكن متابعة أعماله وبعض المعلومات والصور عن حياته وميوله من خلاله وهو (sinoue.fr).

الختام:

لا يسعني، في ختام كلامنا عن هذا الكاتب العربي المستغرب والمبدع، إلا أن أتمنى له مزيداً من العطاء، ولا سيما أنه قد ختم هذا العام بما يعرف - بطريقته - الفرنسيين بخاصة والغربيين بعامة، برسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، سائراً في ذلك على خطى الشاعر والكاتب الفرنسي الشهير (ألفونس دو لامارتين) (م1869)، الذي كتب عن (حياة محمد) كتاباً من أروع ما كتبت في الغرب بموضوعية وإنصاف، وقد تُرجم كتاب (لامارتين) هذا ونُشر في مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري العربي بالكويت، بمناسبة عقد ندوة في مبنى اليونسكو بباريس في خريف سنة 2006 بعنوان (شوقي - لامارتين). كما أتمنى أن يكون في ترجمة الرواية الراهنة إغناءً للغتنا العربية العريقة،

وإمتاعٌ للقارئ العربي الكريم بما يجد فيها من تجارب جديدة
في الحياة، وتقنيات مفيدة في فن السرد على الطريقة الغربية
في آخر مراحلها. والله ولي التوفيق.

دمشق - الأربعاء 2015/11/5

د. محمود المقداد

«ولكن عمّ تبحث أرواحنا،
وهي تسافر هكذا من ميناء إلى ميناء
على هياكل سفن مهترئة؟
ناقلة أحجاراً لامعة،
مستنشقة رطوبة أشجار الصنوبر بصعوبة أكبر،
كل يوم،
تارة في مياه بحر، وتارة في مياه بحرٍ آخر،
بلا احتكاك، ولا أناس،
في بلد ليس بلدنا،
ولا بلدكم أيضاً.
لقد كنا نعلم أن الجزر كانت جميلة،
في أي جهة قرب المكان الذي نذهب إليه بلا تبصّر،
سواء أكان أخفض قليلاً، أو أعلى قليلاً،
على مَبعدةٍ طفيفة.»

(انظر: ميثولوجيا Mythologie لجورج سيفيريس⁽²²⁾ Georges Sféris، المقطع الثامن).

(22) شاعر ودبلوماسي يوناني (1900 - 1971)، اسمه باليونانية (جورجوس سيفيرياديس) Georgios Seferiades، وهو من أشهر شعراء اليونان في القرن العشرين، كان من جيل الثلاثينيات، نال جائزة نوبل للأدب لسنة 1961، ولد في (أورلة) Urla قرب (إزمير) التركية لأب كان محامياً وشاعراً، ثم غادر مع أسرته إزمير سنة 1914 إلى أثينا إثر نشوب الحرب العالمية الأولى، وعمل أستاذاً جامعياً ومترجماً، وقد تابع الابن دراسته الثانوية في أثينا، ثم سافر إلى باريس لدراسة القانون في السوربون ما بين سنتي 1918 و1925، ثم عاد إلى اليونان في السنة الأخيرة، وعين في وزارة الخارجية سنة 1926، وقد حرّر الأتراك إزمير من اليونانيين سنة 1922، فلم يرَ الابن إزمير حتى سنة 1950. تأثر في شعره بكل من (كافافيس) Kavafis، و(ت.س. إيليويت) T. S. Eliot، و(عزرا باوند) Ezra Pound. تزوج سنة 1941، عشية غزو الألمان لليونان، فانضم إلى حكومة اليونان الحرة في المنفى، وشارك سنة 1944 في تحرير أثينا. عين وزيراً مفوضاً في كل من سورية ولبنان والأردن والعراق من سنة 1953 إلى سنة 1956. منح درجة الدكتوراه الفخرية من جملة جامعات غربية (المترجم).

Twitter: @ketab_n

(1)

لم يكن (تيوفان) Théophane يتعرق. وما كان يتذكر أنه تعرق قط، لا ببذل الجهد، ولا نتيجة القلق.

واليوم أيضاً، لم ترشح قطرة واحدة من جبينه. مع أنه كان، منذ أكثر من ساعتين يناضل داخل هذا التجويف الصدري، مستكماً اللمسات الأخيرة، التي كانت تسمح لقلب المريض، المتوقف حتى الآن، بأن يخفق ثانية.

توجّهت نظرته للحظة وجيزة نحو وجه المريض النائم، مدركاً أنه لن يراه، نظراً لكونه مستتراً بقنطرة يقف وراءها خبير التخدير. وقد فكّر بهذا الجسد، المحروم افتراضياً من الحياة، وفي معجزة الطب والتقنية التي تجمّد كائناً على حدود العدم. لقد تخيّلته في فضاء آخر، في درجة حرارة - 32، نتيجة تبريد أعضائه، بفضل المحوّل الحراري.

بأي شيء كان الدماغ، الغاطس في هذه المنطقة العازلة no man's land، يحلم؟ ثم، هل كان يحلم؟ والروح؟ هل كانت ترتعب من عدم علمها إن كان الوقت قد حان لمغادرة الجسد أم لا؟ إنها 21 غراماً.. حسب نظرية أذاعها عالم أمريكي، تقول إن

الإنسان يملك روحاً تقدّر بـ 21 غراماً. وفي لحظة الموت، تفرّ من المتوفى الذي يجد نفسه وقد تخفّف بذلك من هذا الوزن. إنه لشيءٌ تافهٌ.

نصّ تشخيصُ المرض قبل ذلك بشهر على وجود (اتصال أذينيّ في القلب)، لا شيءٌ غيرٌ عادي. فالأمر يتعلّق بتشوّه خَلْقِيّ شائع في القلب⁽²³⁾، هو ثَقْبٌ داخل الحاجز الذي يفصل بين الأذنين ينسدّ عادة بعد الولادة. لا شيءٌ غيرٌ عادي.

قرّر (تيوفان)، خلافاً لكل الآراء، أن يُجري العملية، كاسحاً بقفا يده الطريقة التقليدية للقصّ الصدري الأوسط، واختار جراحةً أقلّ رَضِيَّةً، وذلك بشقّ صغير مستقيم في الصدر. أما نَشْرُ القَصّ، فسيحدث ضرراً لهذا الجسد. أو لم يكن (تيوفان دبّانه) Th. Debbané، من جهة ثانية، أكبر جراحٍ حيّ بعد (بارنارد)⁽²⁴⁾ Barnard؟ وهو الذي كان حتى نظراؤه يلقّبونه بـ(يَدَي المعجزة)؟

مدّ (تيوفان) راحته نحو مُناوِلة الأدوات (الجراحية). لم تكن عَشْرَتُهُما القديمة تحتاج إلى الكلام، وكانت الإشارة بينهما تكفي، فوضعت المرأة فيها مقصاً (طبيياً).

(23) يولد 9 أشخاص من كل ألف تقريباً بمثل هذا التشوّه الخَلْقِيّ في القلب، غير أن كثيراً من حالاته يتمّ إصلاحها ذاتياً، ولا يحتاج إلى علاج أو جراحة، والقليل جداً منها يتطلب أدهما (المترجم).

(24) بارنارد: هو (كريستيان Christian -) طبيب من (اتحاد جنوب أفريقيا) (1922 - 2001)، أصبح مشهوراً بعد نجاحه في إجراء أول عملية لنقل قلبٍ بشري وزرعه في 1967/12/3، استمرت عشر ساعات، نقل خلالها قلب شابة توفيت بحادث سير، عمرها 25 سنة، إلى جسد رجلٍ عمره 53 سنة. وقد توفى (بارنارد) نفسه في (بافوس) Paphos بقبرص عن عمر 78 عاماً بنوبة قلبية، وكان قد كفّ عن إجراء العمليات منذ سنة 1983، إثر إصابته بروماتيزم اليدين (المترجم).

وتحت النور الأبيض للمصباح عديم الظل، ثَقَبَ (تيوفان) شرياناً كي يُفْرِغَ بقايا الهواء التي يحتوي عليها، ولاحظ الدفقات الأولى من الدم تصبُّ في تجاويف القلب. وبصدمة كهربائية صغيرة، شَرَعَ القلب بالخفقان إزاء المِلْقَط. في البداية، كانت هنالك تَعْتَعَةُ عضلية على استحياء، ثم انتظمت. ولكن انبجس، في الحال، نَزَفٌ لم يبدُ أنه أثر في (تيوفان)، فهو نتيجة طبيعية، لأن ثَقَبَ التفريغ لم تتم خياطته بعد. وبعد نحو ثلاثين ثانية، وبعد التأكد من أن القلب قد استأنف خفقانه الذاتي، أمر (تيوفان) مناولة الأدوات قائلاً:

- أعطيني خيط 0/4

وكانت هي قد استَبَقَتْ هذا الطلب. عقد (تيوفان) الخيط ببراعة، وشَدَّهُ، وأبدى من وراء كَمَامَتِهِ ابتسامة رضا. لقد نجح! وأثبتَ للتو، بعكس كل التحذيرات، أن بالإمكان إصلاح الاتصال الأذيني في القلب من غير تطبيق طريقة نشر القص الصدري sternotomie، وكان على وشك الالتفات نحو مساعده، ولكنه أعاد النظر قائلاً لنفسه: غريب، إن النزف يستمر على الرغم من الخياطة، بل إنه يتفاقم. ثم قال:

- تَباً لهذا!

وفهم الأمر.

فهو عندما قام بثَقَبِ الشريان لتفريغ الهواء، نفذَ الثَقَبُ من جانب إلى آخر.

أصدر أمره إلى الجراح الثاني قائلاً:

- اسحب الهواء! فإنني لا أكاد أرى شيئاً.

قام المساعد بدس أنبوبة في التجويف الذي بدا فجأة أنه قد انكمش. لعله توهّم.

أخذ الدم الآن يُغْرِقُ موضعَ العملية. ولم تكن تظهر سوى الواجهة الأمامية - اليمنى من الشريان. قال (تيوفان):

- اَوْعًا تَنَحَّ!

وأخذت الأوامرُ تصطَلُكُ.

جلس المساعد على الجانب الأيسر من طاولة العمليات، وجلس (تيوفان) على الجانب الأيمن، منحنيًا على صدر المريض، ووجّه نظره إلى زميله المتضايق تعني أنه يعمل بلا تبصّر.

جرؤُ المساعدُ على تقديم اقتراح قائلًا:

- (تيوفان) هذا لن يجدي، يجب تطبيق التوسيع أو التحويل.

التوسيع يعني تكبير الشق إلى ما تحت لوح الكتف. أما التحويل فكان يؤدي للعودة إلى طريقة نشر القص الصدري. لا مناص! في الحالتين إقرارٌ بهزيمته.

وتردّد صوت المخدّر بدوره قائلًا:

- عنده حقٌّ، يا (تيوفان)، فالمريض سوف يُفْلِتُ منا. لا يمكنك أن تستمر.

كانت (الدوّارة) - وهو اسم غريب أُطلق على الممرضة الموكلة بالأدوات (الجراحية) المرتبة داخل خزانة ذات واجهة زجاجية - تقبّع عند زاوية طاولة العمليات، وهي تكظّم رعدة انتابتها. كانت في الثانية والخمسين من العمر. ولقد ساعدت بما يكفي في المداخلات، بحيث لا تنخدع بما كان يجري. وكانت تعلم

الرجلُ الذي كان ينظرُ إلى الليل

تماماً في أي وقت كان مخططُ الجراح المتوقع يحتاج إلى إعادة نظر، وتعلم أيضاً في أي لحظة كان السباقُ يبدأ مع الساعة، ومن ثمَّ مع الموت.

قال (تيوفان) لمساعدته:

- تَنَحَّ!

كان صوته مضطرباً. إن خياطة الشريان في طريقة نشر القص الصدري التقليدي كانت لعبة أطفال. ولكن الأمر هنا كان يظهر أكثر تعقيداً بكثير.

قال المخدر:

- إننا نخشى من صدمة نَزْفِيَّة.

والخ الجراح الثاني قائلاً:

- أرجوك، يا (تيو)، وسِّعْ أو حوِّل!

لم يكن (تيوفان) يسمع. كان وحده في مواجهة العدو، ولن يتركه يفلت.

كانت الساعة المعلقة على أحد جدران الغرفة تشير إلى 11.04.

وعندما وصل العقرب الكبير إلى الدقيقة السابعة، نهض (تيوفان) وقال:

- لقد فزنا!

لاحظ الجميع اضطراباً جديداً في صوته.

التفت (تيوفان) إلى مساعدته، وقال:

- يمكنك أن تغلق.

كان جبينه مبللاً بالعرق.

* * *

- هل أزعجك يا أبي؟

أثر صوت ابن (تيوفان) فيه تأثير العاصفة، ونقله دفعةً واحدة من الماضي إلى الحاضر. فأخذ نفساً، ومسح راحتي يديه الرطبتين بسترته بشكل عصبي. فهو منذ ذلك اليوم المشؤوم على أبواب الليل، أصبح يتعرق لأقل انفعال.

تمتم (تيوفان) قائلاً:

- (تيمور) Taimour؟ هل وقعت من السرير؟ فالساعة

ليست سوى الثانية عشرة.

- لقد حققتُ تقدماً، أليس كذلك؟ بالأمس أفقتُ في الثانية

عشرة وعشر دقائق.

- مدهش.

راقب (تيوفان) الصبي. وفكر: من أين جاءه انطباع بأنه قد

كبر منذ الأسبوع السابق؟ فقد كان، وهو في الخامسة عشرة،

يبدو في السابعة عشرة. ربما كان السبب شعره المشبك،

وعينيه الداكنتين جداً بشكلهما اللوزتي، وقامتة التي تقارب

170 سم، وتمنحه هيئة راشد مبكر جداً. لكن كان يشبه أمه!

وإذا كان (تيوفان) أيضاً ذا عَيْنين مَتوسِّطِيَّتين⁽²⁵⁾، والشعر

أسود، فإن الصفات المشتركة بين الأب والابن تقف عند هذا

الحد. وقد كانت لـ (تيمور) ملامح رقيقة شبه أنثوية، وكان

أنفه الدقيق يشكّل خطأً مستقيماً تماماً. أما (تيوفان) فقد

وَهَبَ أنفاً معقوفاً كمنقار العُقاب، في وجهٍ غليظٍ وجامد.

قال لابنه:

- هل نمتَ جيِّداً؟

(25) كان المؤلف يرى هنا تشابهاً في عيون أهل حوض البحر المتوسط (المترجم).

- بُفًا ما زلت أرى هذه الصور المرعبة.

- النهر الأسود؟

- وصاحب زورق بلا عينين.

- إنه كابوس بسيط.

- غريب. إنه حلمٌ يتردّد بشكل سيئ.

تناول (تيوفان) سمّاعته الطيبة، ودسّها في حقيبة صغيرة

من جلد أسود. وقال:

- عليّ أن أذهب. هذا وقت نوبتي. نلتقي بعد قليل.

- أوْكِي (OK) بعد (plusÀ) ..

- قليل.. (tard)

- ماذا؟

- يُقال: (بعد قليل) (26) tardplusÀ.

- أوْكِي، بعد قليل، يا أبي.

ودار على عقبه قائلاً:

- بعد قليل.

* * *

وما كاد (تيوفان) يجتاز عتبة البيت حتى غمرته الحرارة.

كانت السماء زرقاء داكنة. وكانت زرقعتها اليونانية التي لا تُوصَف

هذه تذكّره بسماء (مصر). وكان البحر على بعد بضعة خطوات.

ووراء ذلك البحر أيضاً، كان على الآلهة في (لِس) Lisse أن يهدأ

بالحال في أمسيات الشك. في 2 آذار/مارس سنة 1986. قبل ثلاث

سنوات. ثلاث سنوات في بطن هذه الجزيرة التائهة على تخوم

بحر (إيجة)، جزيرة (باتموس)، هذه الجزيرة المقدّسة.. ثلاث

(26) تعبير فرنسي مختصر دارج يراد به (نلتقي أو يرى بعضنا بعضاً بعد قليل) (المترجم).

سنوات أم ثلاثة آلاف سنة؟ لماذا؟ وبأي سحر يُؤلَد شخصٌ في (مصر)، ويترععرع فيها، ومن ثمَّ يعيش في (فرنسا)، ثم يجد نفسه منفياً على جزيرة يونانية؟ لماذا؟

والقَدَر، بوصفه نقاشاً غير مرئي، هل ينقش في راحات أكفنا خطوط حيواتنا؟ والدم الذي يجري في أوردتنا، هذا السائل الأُرْجواني، الذي يجرف البداية والنهاية، هل ينقشها هي أيضاً؟ لم يكن (تيوفان) يخطط لشيء، أو بالأحرى: نعم، كان يخطط بالضبط لعكس ما كان يعيشه: «إن كنتَ ترغبُ في أن تستغرق السماء في الضحك، فتحدّث لها عن مشاريعك». فعلى المرء أن يحبس بعض مشاريعه في سجون الجحيم.

يبلغ (تيوفان) الخامسة والأربعين من العمر. ولم يكن يملك شيئاً. فقد تم الاستيلاء منه على كل شيء. إنه أرضٌ محروقة.. خراب. ففي ليلة ذات قَمَرٍ متَسَخٍ رديءٍ، دخل النقاش غير المرئي إلى منزله ليسرق كنوزه الأكثر وضاءً. فطُرحت حياته المنكسرة أرضاً. ولحسن الحظ أبقى له الطفل، الطفل وهؤلاء الناس البُسطاء الذين أغدق عليهم منذ ثلاث سنوات، عنايته، في مقابل شيء يسير: كالبيض، وحليب الماعز أو الجبنة، وهذا ما كان يمثل، بكل اعتبار، قيمة أنبل بكثير من جميع أموال العالم.

كان (تيوفان) قد جمع من المال ما فيه الكفاية، وكُدس منه، خلال حياته السابقة، أكثر مما يستطيع أن يصرفه. ثم بماذا يفيد التكديس؟ ولأي غاية؟ إن هذه الفلوس التي يخزنها المرء سنة تلو سنة إلى الوقت الذي يصل فيه، إلى أرجل سريرنا الشبُّح

الذي يلاحق في ليلة عيد الميلاد البخيل (المستر سكروج)⁽²⁷⁾، M. Scrooge، فيقول له البخيل: «أنت مقيدٌ؟ (قل لي لماذا؟)⁽²⁸⁾»، فيجيبه: «أنا أحمل القيد الذي صنعتُه خلال حياتي كلها، (لقد صنعتُه حلقة حلقة، وياردة ياردة، وأحطتُ به نفسي بملء إرادتي الحرة. وسأظلُّ أحمله بإرادتي الحرة)⁽²⁹⁾. فهل يبدو لك تصميمه غريباً؟⁽³⁰⁾ أو لعلك تحبُّ أن تعرف وزن القيد الغريب الذي تحمله أنت نفسك مع طوله؟ لسوف أذكر لك ذلك: إن قيدك أثقل وأطول من القيد الذي تتأملُه عليَّ في هذا الوقت». واليوم، فإن (تيوفان)، حاملُ البَلَسَمِ المجهول، ومُفْرَجُ الألام، بلباسه الجديد، حطَمَ قيده، تحطيماً جزئياً على الأقل. بعيداً

(27) (إيبينيزر سكروج - Ebenezer) هو الشخصية المحورية في رواية الكاتب الإنكليزي (تشارلز ديكنز) Charles Dickens، التي تحمل عنوان (أنشودة عيد الميلاد) A Christmas Carol المنشورة سنة 1843. ومن أبرز صفات (سكروج) أنه كان شديد البخل، وقاسي القلب، وكارهاً للبشر، ويكره عيد الميلاد، وقد وصفه (ديكنز) بقوله: (كان البرد يجمد ملامح وجهه المجوز، ويقرص أنفه مدبب الطرف، ويجعل عينيه حمراوين، كما يجعل شفثيه الرقيقتين زرقاوين، ويتكلم بهاء بصوته المزعج). وقد ظهر له في ثلاثة أعياد للميلاد ثلاثة أشباح وحاووه لمحاولة إصلاحه. وكانت له لازمة تتردد على لسانه هي كلمة (هراء!) أو (كلام فارغ!) thumbug أما الكاتب (ديكنز) (1812 - 1870) فهو صاحب مجموعة من الروائع السردية مثل: (أوليفر تويست)، و(ديفيد كوبرفيلد)، وغيرهما، وأكثرها مترجم إلى العربية. وكان المؤلف يتناول فيها بالنقد المتشائم جوانب عديدة من المجتمع الإنكليزي في عصره. وقد مثلت (أنشودة عيد الميلاد) فيلماً سينمائياً سنة 1984 من إخراج (كليف دونر) Cliv Donner، بالإضافة إلى تمثيلها في أفلام رسوم متحركة (المترجم).

(28) تنمة سؤال (المستر سكروج) للشبح الأول، وهو لشريكه السابق في حياته المدعو (يعقوب مارلي) Jacob Marley، حين رآه مثقلاً بالسلاسل الحديدية من العنق حتى القدمين، وقد عُلق عليها ما يشبه صناديق المال الحديدية المقلّطة، ولعلّه يكتي بذلك عن أن الأموال المقدسة ستكون أغلالاً يحملها المرء بعد الموت، وهذه دعوة إلى نبذ البخل بالمال، وإلى إنفاقه فيما ينفع ويفيد صاحبه ومن يخصه أو يحيط به من الناس لتم فائدته، وقد نجح في تحويل سلوكه نحو الخير (المترجم).

(29) تنمة مفيدة من أصل رواية (ديكنز) بالإنكليزية أغفلها المؤلف من السياق (المترجم).

(30) وردت ترجمة التعبير هنا بصيغة الخبر لا الاستفهام: (قد يبدو تصميمه غريباً)، فأثبتنا صيغة الأصل الإنكليزي بالاستفهام (المترجم).

عن صخب المدن التي يعتقد المرء فيها أنه يستمع، في حين إنه يستمع لنفسه، وحيث الأيدي الممدودة ليست سوى قبضات مغلقة. أما هنا فقد كان مُنْسَجِماً مع شيءٍ ما ربما كان ينتمي إلى الحقيقة.

* * *

مشى نحو فيسبا، من نوع (بيادجو)⁽³¹⁾ Piaggio، المركونة قرب باب المدخل، وثبَّتَ حقيبتَه على حمالة الأمتعة، ودفع الدراجة إلى الطريق.

- مرحباً، أيها الطبيب⁽³²⁾!

- أهلاً، يا (ستافروس) Stavros. هل يوجد بريد؟

توقَّف الرجلُ الضئيلُ ذو الشاربين، وهو على دراجته الهوائية، ووضع رجله على الأرض، وقال:

- لا. ربما في الأسبوع القادم؟

كان (تيوفان) قد طرح سؤاله كمن يسأل آلياً عن الجو كيف هو؟ في حين إنه لا يبالي بأن يعلم أنه سيكون جميلاً أم لا، وكان كمن لا ينتظر إجابات من أحد، ما دام لا أحد لديه أي فكرة عن المكان الذي نعيش فيه.

وفيما كان ساعي البريد يهَمُّ بالانصراف، سأل (تيوفان):

(31) بيادجو: اسم شركة إيطالية لتصنيع الدراجات الهوائية والنارية والسكوترات ذات العجلتين المتجاورتين، وهي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا (المترجم).

من طريف المصادفات أن أكون، أنا المراجع، من قام بترجمة الكتيّب الخاص بهذه الفيسبا أثناء عملي في إيطاليا في السبعينيات من القرن الماضي و Piaggio تُتلق «بيادجو» وليس «بياجيو» (المراجع).

(32) وردت الكلمة بلفظ عربي وحروف لاتينية (toubib)، وهي كلمة شعبية دارجة في جزيرة (باتموس) بحكم قربها من الشواطئ التركية، أو بحكم سيطرة الأتراك عليها زمن العثمانيين المتأثرين أصلاً هم ولغتهم باللغة العربية (المترجم).

- هل أنت على علم بشأن نُزُلِ (بانسيون) الأسرة؟

- تعني البيت الواقع أسفل القلعة؟

- بالضبط. لقد تمّ شراؤه.

- حسناً. إنه مبنى جميل. بقي مدة طويلة جداً مهجوراً.

وهل تعلم من المشتري؟

قال (ستافروس) (باليونانية) وقد مَطَّتْ ابْتِسَامَةٌ خبيثةٌ

شاربيه:

- Ena yinéka (33)

- امرأة؟ يونانية؟

- محتمل. وإلا فإن الناس هنا سوف يلتهمونها نيئةً

تماماً⁽³⁴⁾. تحية، أيها الطبيب!

بقي (تيوفان) لحظةً بلا حراك، وهو يتابع بعينه الرجل

الضئيل، ثم ركب دراجته وأخذ طريق (شورا) Chora.

انقضى وقته مثل أغلب أوقاته فيما بعد الظهر. كان، في

هذا اليوم، قليلٌ من الانفعالات الخطيرة: فقد كان هنالك

ولد من أولاد الشوارع ضحية ورم لفاوي غير خبيث بسبب

خرمشات قط هائج من فرط مضايقته. وكانت هنالك أيضاً

حالة إسهال بسيطة أصيب بها مقاتلٌ نازلٌ عند أحد السكّان،

وهو هشٌ كأغلب الأميركيان، بسبب هوسهم بالتطهير. وكانت

(33) كلمة يونانية بحروف لاتينية، وتعني (امرأة)، وهي بالحروف اليونانية (γυναίκα ένα) (المرجّم).

(34) يشبه هذا التعبير اليوناني، هنا، قولنا في التعبير العربي الدارج، كنايةً عن الشيء الشهوي الذي يسارع المرء بتناوله لذته، ومن غير أن يحاول أن يضيف إليه ما يجعله مستساغاً أكثر، كالمّلع مع اللحم، مثلاً: (سوف ياكلونها بلا ملح)، ولهذه الكناية - في مجال الشر - معنى آخر يتعلق بالقدرة والسيطرة والتقلب بسهولة وسرعة (المرجّم).

هنالك حالة نَزلةِ وافدةٍ (إنفلونزا/كريب). وحالة التهاب لوزتين. وبعض (الجراح والحروق والنزوف البسيطة)⁽³⁵⁾ de la bobologie إجمالاً. فهو لم يواجهه، خلال السنوات الثلاث، سوى حالتين خطيرتين: الأولى ال (حمى القلاعية) (Behçet). والثانية اعتلال عضلة القلب بسبب فقر الدم الموضعي. ويقدر ما واجهه من صعوبات في وضع اسم للإصابة الأولى (قُلاع فموي، التهاب عيون، إسهالات)، بقدر ما كان التحقُّق من اعتلال عضلة القلب بسبب فقر الدم الموضعي واضحاً: أولم يكن يملك مفاتيح القلب؟

في الحقيقة، أخذ (تيوفان)، منذ أن عاش على جزيرة (باتموس)، يستطيب هذه الزيارات إلى البيوت. وقد نسي التقاليد التي نشأ عليها في المهنة أو أوشك على نسيانها. كانت هنالك سرعة، وجنون، وهروب إلى الأمام، وورقيات: كيف كان زملاؤه يستطيعون التصرف؟

لقد كان هو نفسه، خلال سنوات مجده، مقتصرأً، في إغداق عنايته، على أولئك الذين يتخذون القرار من مكتبه، وكان علامةً مزهواً بنفسه في قمة بُرجه، بينما هو، في هذه الجزيرة، لم يتعلم أهمية الاستماع فقط، ولكنه أدرك أن الروح ليست تلك التي يتصورها الطبيب الأمريكي المشعوذ، ولكنها تلك الأخرى، الهبةُ الإلهية، هذه الروح تتعذب ومن فرط العذاب تنقل العذاب إلى الجسد.

(35) تستعمل في الطب كلمة (bobos) للجمع بين هذه الحالات، ويتم العمل عليها ضمن مجال الطب العام (المترجم).

وصار يُدرك كيف يسأل نفسه: «وأنت يا (تيوفان): كيف حال روحك؟ لقد كان عليها أن تغادرِكَ منذ مدة طويلة. ألا تعتقد ذلك؟ من المعجز أنك لا تزال على قيد الحياة. ثم هل أنت حيٌّ؟».

* * *

وحين وصل إلى ميناء (سكالالا) Skala، الملتف على نفسه، داخل برزخ يفصل بين الأجزاء الشمالية والجنوبية من الجزيرة، ركنَ دراجته قرب المقهى⁽³⁶⁾ (Kafeneion). وكانت أجراسُ الدير - القلعة، القائم على جبل (كاستلي) Kastelli، تصدر، في الوقت نفسه، جملة من الإشارات الرصينة التي تتحدث إلى الرهبان. جلس (تيوفان) إلى الطاولة الأولى. وكان سطح البحر قد أصبح أكثر اخضراراً مع اقتراب المساء الذي كان يغمر المرسى شيئاً فشيئاً. وكانت مراكب الصيد البيضاء والزرقاء تهتز على المياه. وكانت الزوارق تتراقص. قال النادل:

- كالعادة، أيها الطبيب؟

- كالعادة.

وبعد بضع لحظات، صفَّ النادل على الطاولة كأساً مترعةً جداً من شراب الـ (أوزو)⁽³⁷⁾ Ouzo، وزيتونا، وفُسْتَقاً. أشعل الطبيبُ سيجارة، وهذه عادةٌ مؤسفةٌ رجع إليها منذ وصوله إلى الجزيرة، ثم سحب نفساً منها. وسمع صوتاً يقول:

- أتلعبُ دورَ طاولة، أيها الطبيب؟ فأنا مدين لك بغُلب.

(36) كلمة يونانية كتبت بالحروف اللاتينية، وهي بالحروف اليونانية (καφενίο)، والكاتب كثيراً ما يذكر مثل هذه الكلمات اليونانية في هذه الرواية بهذه الطريقة (الترجم).

(37) وهو الشراب الأكثر شعبية في اليونان (الترجم).

وقبل أن يُتاح لـ (تيوفان) الوقت للإجابة، ارتمى رجلٌ على الكرسي الشاغر، دافعاً أمامه كُرشاً على شكل يقطينة، فكان كأنه توأم (فالستاف)⁽³⁸⁾ Falstaff، القصير الغليظ، برقبة ثور تظهر من ياقة قميص ضيقة جداً.

- مهلاً، يا (ديمتري) Dimitri، دعني هادئاً. لقد ربحت الدور منك البارحة بمعجزة.

فتح اليوناني طاولة الزهر المكوّنة من حُجرتين، ورتّب الحجارة على المثلثات الرمادية والسوداء فيهما، متجاهلاً اعتراض (تيوفان).

أشار (تيوفان) لمحدثه بسبابته إلى البطن الكبير، وقال:

- متى ستتبّع نظام الحميّة (الريجيم)؟

- إن أمامي الموتُ كلُّه! ثم إنني ضخمٌ، ولكنني لستُ مجنوناً!

ثم ضرب على صدره وقال:

- كل شيء صلبٌ في الداخل! والدليل أنني لم أزر طبيباً قط،

ولا أزال بعدُ على قيد الحياة.

ثم أشار إلى سيكارة (تيوفان)، وقال:

- وهذه.. هل تعتقد أنها أفضل؟

ثم إنه نادى النادل قائلاً:

- هات شيئاً من (المزّة)⁽³⁹⁾ mezzes، يا (سبيروس) Spiros.

(38) هو (السير جون فالستاف Sir John -): شخصية خيالية ظهرت في مسرحيتين لـ (شكسبير) هما: مسرحية (هنري الرابع) بجزأيهما، وكان فيها رفيقاً للأمير (هال) Hal، الذي أصبح فيما بعد الملك (هنري الخامس). ومسرحية (زوجات وندسور) حيث كان مهرجاً لأمراتين متزوجتين. كما ظهر في أوبرا لـ (فردري) Verdi الإيطالي وغيره، وكان يتميز بالقوة وضخامة الجثة (المترجم).

(39) المزّة: ما يوضع على الطاولة مع المشروب من أنواع المقبلات والمشهيات: كالبابا غنوج، والحمص الدمس، والتبولة، والزيتون، والمخللات، والمكسّرات، إلخ (المترجم). والكلمة تستعمل في العامية المصرية. (المراجع)

ثم ناول زَهْرَ اللعب للطبيب، قائلاً:
- والآن، العب.

دحرج (تيوفان) المكعبات العاجية الصغيرة على طاولة اللعب. مرّت بذهن (تيوفان) قعقات مألوفة. وذكريات من طفولته. يبدو أن هنالك كيمياء عجيبة في الدماغ تربط، بصورة غامضة، الأصوات بالصور؛ فها هو خيال جدّه (يوسف بك) Joseph bey، وعلى رأسه طربوش، يسير في شارع (سليمان باشا)⁽⁴⁰⁾، غير مبالي بالحرارة. وبعد خمسمئة متر، كان يجلس على رصيف مقهاه المفضّل.

وكان في المقهى مذياع يبثّ أغنية للرائعة (أم كلثوم)، وسط بقبقات النراجيل. وعلى بعد خطوات، يجرّ تاجر جِوَالٌ عربية مليئة بالأسمال البالية، ويصيح: «روبا فكيا! روبا فكيا!»،⁽⁴¹⁾ Roba vecchia Roba vecchia! والأمر الغريب هو أن هذا العربي كان يصيح على بضاعته بالإيطالية⁽⁴²⁾.

وكان هنالك نادلٌ من أصل يوناني يتلقى الطلبات. وقد انضمّ إلى (يوسف بك) رجلٌ ذو لحية بيضاء، كانت بدلته من ثلاث

(40) من شوارع الإسكندرية الشهيرة (المترجم).

(41) هذا هو النطق السليم لصيغة النداء، وهي تتألف - في الأساس - من كلمتين إيطاليتين تعنيان (حاجة عتيقة) أو (ثياب عتيقة) أي مستعملة، وكان التاجر بتجواله يبيع ما عنده منها ويشترى ما عند الناس، وحُرّف النداء على السنة هؤلاء التجار ليصبح (روبا بيكيا)، وصار يفهم منه مع الزمن كل شيء (مستعمل) من ثياب وأثاث وأدوات وخرادوات وسواها (المترجم). حتى الآن، ما زلنا نصحو في الصباح الباكر على نداء البائع الجائل الذي غالباً ما يقصر نداءه على الكلمة الثانية من العبارة الإيطالية، فيقول: «بيكيا! بيكيا» ثم يتبها بالعربية كل حاجة قديمة للبيع! (المراجع).

(42) في الحقيقة، ليس في الأمر غرابة، لأن أبناء الجالية الإيطالية في الإسكندرية والقاهرة على وجه الخصوص هم الذين فتحوا باب هذا النوع من التجارة، ثم انتقلت مع اسمها إلى المصريين أنفسهم، ويحدث مثل ذلك في أمور اجتماعية وفنية أخرى أيضاً بتأثير الجاليات الأجنبية أيضاً (المترجم).

قطع⁽⁴³⁾، ومتقنة التفصيل، من نسيج (دورموي)⁽⁴⁴⁾ Dormeuil. كانت أحجار الطاولة تفرقع: وأين سحر هذه اللعبة إن لم تفرقع أحجارها؟

Chehe yak Bing yak Dauche⁽⁴⁵⁾ .
ومن الغريب أيضاً أن هؤلاء المصريين يحسبون النقاط، (في لعبة الطاولة)، بمزيج من اللغتين الفارسية والتركية⁽⁴⁶⁾.

صاح (ديمتري) (في تيوفان) (الشارد):

- وبعد! أنت تحلم أم تلعب؟

فردّ وقد تخلّص من الذكريات:

- أنا ألعب.

وبعد سلسلة من العبارات الحادة وتعليقات اليوناني المتتهبة،

أبدى (تيوفان) ملاحظة قائلاً:

(43) يبدو أن المقصود بالقطع الثلاث هنا تلك البِدَل التقليدية المؤلفة من: بنطال، وصدريّة، وجاكيت (المترجم).

(44) هذا الاسم علامة تجارية (ماركة) لهذا النسيج، هذا النسيج ليس قديماً إلى هذا الحد، بدليل أنني شخصياً وأبنائي نملك حلاً وجلاليب (دشاديش) من هذا النسيج (المراجع)، ولا يزال هذا النوع من النسيج أو الأجوّاح يحمل هذه العلامة إلى يومنا هذا، وهناك شركة للخياطة بهذا الاسم، وقد علق أحد مواقع صناعة الألبسة على بدلات هذه العلامة بالقول: «عبر ستة أجيال، أصبح مشروع (دورموي إخوان) اسماً كبيراً للأناقة مع أجود أنواع النسيج في العالم» (المترجم).
(45) من المعروف أن قراءة الزهر في لعبة الطاولة تكون رقمين رقمين، ولذا نجد نقص رقم في الزوجين الأخيرين، والكتابة الإجمالية لما ذكره بالحروف اللاتينية حسب النطق العربي بها لا النطق بلغتها: شيش يك! بنج يك! دو! أي: ستة واحداً خمسة واحداً اثنان!

ونلاحظ هنا أن المؤلف أو الطّبَاع أخطأ في كتابة (Chehe) التي يجب أن تكتب Cheche، كما أخطأ في كتابة (Dauche) التي يجب أن تكتب Dau أو Do فقط (المترجم).

(46) في الواقع كانت الأرقام التي تذكر في لعبة الطاولة جميعاً من اللغة الفارسية، فيما عدا الرّقم 5=beṣ الذي ينطق به (بيش) ويرجع أصله إلى اللغة التركية، ويستعمله اللاعبون أحياناً بديلاً للرّقم الفارسي بنج=5. أما الأصول الفارسية للأرقام المكتوبة بالحروف العربية، فهي: يك=1، دو (ويلفظ مثل: 2=Do)، سه (ويلفظ مثل حرف: c بالفرنسية)=3، جَهار=4، بَنج=5، شش=6. أما الأرقام التركية المقابلة فهي بالحروف اللاتينية المستعملة اليوم للتعبير عن أصواتها: ، 3=üç، 4=dört، 5=beṣ، 6=alti، 2=iki (المترجم).

- ها هي عِبارة الساعة السابعة.

- ماذا تقول؟

كرّر (تيوفان) قوله، مشيراً إلى مدخل البرزخ:

- عِبارة الساعة السابعة.

في الحقيقة، كانت الكتلة الضخمة لسفينة (النجمة الزرقاء) Blue Star قد دخلت إلى المرسى.

قال (ديمتري):

- إنها تتقدّم. وبعد؟ ألا ننهي هذا الدور؟

ألقى الطبيب زهره للمرة الأخيرة، فأصدر صديقه فوراً صرخة مروّعة، قائلاً:

- ستّتان⁽⁴⁷⁾! لقد كسبت أيضاً! هل تعلم ماذا يُقال عندنا؟

يقال: حتى الديك يضع بيضاً للمحظوظ!

ثم أغلق طاولة الزهر بعنف، وقال:

- أنت لا تعرف شيئاً في هذه اللعبة! وتلعّب بلا أي

استراتيجية، وتترك أحجارك مكشوفة، ومع ذلك تجد سبيلاً للتغلّب!

ردّ (تيوفان):

- لا عليك! إنها مجرد لعبة.

- أنت مخطئ! لك جدّة يونانية، وتكلّم لغتنا، ولكنك فقط

لا تفهم عقليتنا. فدور الطاولة ليس لعبة؛ وإنما هو الحرب العالمية!

(47) ورد في الأصل (double six) أي (سته مضاعفة)، يعني أن كلاً من الزهرين سجل رقم 6 (أي: شش)، وهذا قمة ما يشتهي اللاعب الحصول عليه، لأنه نادر الوقوع (المترجم).

ثم غَطَسَ قطعةً من الخبز في صحن (تساتسيكي) (48) tzatziki،
والتقمها لقمَةً واحدة. وقال بغتةً بسأم مفاجئ:

- تجري الأمورُ بشكل سيئٍ، ولا أدري إن كنتُ أتمكن من
التحمُّل مدة طويلة.

- ولكنك تنتج خمرًا ممتازة. وعنبك (فوكيانو) fokiano طيبٌ
ومن أجود الأعناب المحلية في (اليونان). وتملك الكرم الوحيد في
الجزيرة، وليس لك منافس.

- لا تبالغ! فالمنافسة موجودة، وهي تأتي من القارة (49)، ومن
كل مكان. ومن أجل مواجهتها، يجب عليّ أن أضعف إنتاجي
ثلاثة أضعاف، وهذا يتطلّب امتلاك قطعة الأرض المجاورة.
ولكن فقط هذا الوغد (سيفاكيس) Sifakis لا يريد أن يستمع
إلى أي كلام عنها. وهو يفضّل أن يهلك على أن يبيعي إياها!

- لماذا؟

- لأنني قبلتُ أخته من ثلاثين سنة، ورفض أن يزوجني
إياها. يا له من غبي!

لم يسمع (تيوفان) أكثر، فقد كان يراقب زورقاً أوشك على
الرسوّ عند الشاطئ. كان هنالك بحاران يرفعان باحتراس امرأة
شابة على كرسيٍّ متحرّك. كانت سمراء، وفي حدود السادسة
والعشرين من العمر تقريباً. وكانت، على الرغم من الحرارة،
تضع حراماً صوفياً يغطي جسدها حتى مستوى العنق. وفي

(48) التساتسيكي: نوع من الصلصة اليونانية يتكوّن من لبن الزبادي والخيار المفروم مع الثوم
والنعناع والفليفلة البيضاء وعصير الليمون والملح (المترجم).

(49) قد يفهم من (القارة) هنا أحد أمرين: الأول القسم القارّي المتصل بأوروبا من (اليونان)،
والثاني القارة الأوروبية نفسها. وتغلب الأمر الأول، لأنه لن يستطيع المنافسة على مستوى أوروبا
بالتاكيد (المترجم).

الرجلُ الذي كان يَنْظُرُ إلى الليل

الحال لحق بها صبيُّ فتِي تماماً. بعد ذلك ظهرت امرأة سمراء أيضاً، كان جسدها الدائري والممتلئ يُذْكَرُ (تيوفان) بممثلة إيطالية في سنوات الخمسينيات. ماذا كانت تُدعى آنذاك؟ وبعد أن تبادلت المرأة بعض الكلمات مع البحَّارَيْنِ، أشارت إلى الصبيِّ، فأمسك بمقبضي الكرسي المتحرِّك، ودفعه على طول رصيف المرفأ. وكانت هنالك سيارة أجرة في انتظارهم.

علّق (ديمتري) الذي لمهم قائلًا:

- Koukla⁽⁵⁰⁾، إنها دُمِيَّةٌ حقيقية، وفاتنة.

- أيُّ منهما؟

- هل تمزح؟ إنها الشابة بالتأكيد... لا العجوز.

-- عجوز؟ إنها في مثل سني.

- أنا لا أحب النساء إلا ما بين الثامنة عشرة والعشرين من

العمر، وما عدا ذلك فإنك تنام على ذكراهن. وهذا مثبِّطٌ للهمة.

ثمَّ غيَّرَ الموضوع قائلًا:

- إنني أتساءل مَنْ هم هؤلاء الثلاثة؟ إنهم ليسوا سواحاً

على كل حال.

تدخَّلَ النادل الذي كان قريباً فقال:

- هذه هي ((بيبا)) (Béba)⁽⁵¹⁾ المالكة الجديدة للمنزل

الواقع أسفل القلعة.

رفع (ديمتري) حاجبيه وقال:

- وكيف عرفت ذلك؟

(50) كلمة يونانية بالحرف اللاتيني تعني (دمية أو لعبة) تعبيراً عن جمال المرأة، وهي بالحروف اليونانية (κούκλα) (المترجم).

(51) اضطررنا إلى وضع اسم المرأة هنا لاقتضاء السياق وضعه، لأن (ديمتري) سيذكره بعد قليل، مع أنه لا يعرفه، ولم يصرح به النادل الذي يعرف المرأة (المترجم).

- لأنها أخبرتني بذلك. فقد كانت، قبل ثلاثة أسابيع، تجلس إلى طاولتكما نفسها.

- والصغيرة؟ والصبي؟

- لا أدري. فهذه هي المرة الأولى التي أراها فيها. ربما ابناها.

- هذه الـ (بيبا) تخطط لإقامة نُزُل (بانسيون) مع ابنة

مُعاقة في ذراعها؟ إنها مجنونة!

قال (تيوفان):

- على رسلك، يا (ديمتري)! إن كانت هنا فالمحتمل أنها تملك

القدرة على ذلك.

- فسُرّاً!

- لا، ليس الآن. فأنا مُرهقٌ. سأعود إلى البيت. ربما أفسر لك

ذلك في مرة أخرى.

كان الأصيل قد محا ضوء النهار.

وخيم الظلام.

رمق (ديمتري) الطبيب، الذي كان يركب دراجته، بنظرة

شُرّاء، وقال للنادل:

- سأذكرك، يا (سبيروس): إن سكنت هذه المجنونة في

(باتموس)، فسيضعها الطبيب في رأسه.

(2)

كان منزل (تيوفان) أبيض اللون وذا نوافذٍ زرقٍ. ومن الشرفة كنتَ ترى، على مدِّ البصر، البحرَ والفاصلَ الأسود للأفق. لقد كان يحب هذه الأوقات التي كانت الظلال تتلاشى فيها، وكان القلب فيها يخفق، حيثُ لا يضطرب النظر ولا الفكر بآلاف من أنواع الصخب السخيف. وقد حاول أن يتصوّر ما الذي كان الآخرون يفعلونه في هذه اللحظة المحدّدة عبر العالم: هنالك جندي كان يسقط بالرصاص في بلدٍ ما في حالة حرب، لأنه ما زال هناك حرب في مكانٍ ما. وفي (لندن) أو (شنغهاي) Shanghai كانت هنالك صرخاتٌ تدوي من طفل يندفع من بطن أمه. وكان هنالك بريءٌ يُعذّب في سجنٍ بـ (كابول) Kaboul. وهنالك زوجان ينفصلان. وآخران يبحث أحدهما عن الآخر. جانب من ظلام وجانب من نور. إنه الزمن الأزرق.

أمسك بـ (الغيتار) الموضوع إزاء الجدار، وعزف بعض (النوتات). لقد كان في شبابه، المولع بهذه الآلة، يحلم بأن يعزف

يوماً ما (كونشرتو آرانجويوز)⁽⁵²⁾ Concertod' Aranjuez في وسط (أوركسترا) كبيرة. وهو عملٌ ساحر.

إنه صراع غرامي بين (الغيتار) و(الأوركسترا). وكان عليه أن يخفّف من غلوائه. وهو أمر شديد القسوة. لقد كان (الغيتار) و(الكمان) قد أصبحا آلتَي تعقيد مثبّط للعزيمة ما إن نبدأ بعزف الموسيقى الكلاسيّة le classique.

فجأة، صدر صوت من شبه العتمة يقول:

«كنتُ غير مرئي في وقت ما. وكنت أعيش قربه. ثم وجدتُ نفسي في المملكة عن كُتْبٍ».

اقترب (تيمور) ببطء.

– ماذا تُهنرُم يا بُنيّ؟

– الحقيقة.

– هذه الكلمات ليست لك.

– يمكن أن تكون كذلك. إنك تشكّ فيها، أعلم ذلك. في الواقع، أنت لا تعرفني حقيقةً. إنني ابنك، ولكنك لا تعرفني.

– أنت إذن متأكّد جداً من ذلك؟

– لو كنتَ تعرفني، لما كنتَ أخلّفت كل هذه المواعيد معي، ومع

أمي.

(52) هو بالإسبانية (كونشيرتو دي آرانخيث Concerto de Aranjuez)، ويعزف على (الغيتار) بصحبة (أوركسترا)، وهو من أعمال المؤلف الموسيقي الإسباني الشهير (خواكين رودريغو) Joaquin Rodrigo، ألفه سنة 1939، أثناء السنة الأخيرة من إقامته في (باريس). وكان قد كتب خمسة (كونشرتوهات) لـ (الغيتار)، وكان هذا (الكونشرتو) أولها وأشهرها. وقد استلهم هذا (الكونشرتو) من جمال حدائق القصر الملكي (آرانخيث)، الذي بني في (مدريد) لملك إسبانيا (فيليب الثاني). وكان قصد المؤلف أن ينقل المستمعين من خلاله إلى فضاء آخر وزمن آخر. وقد ذكر هو نفسه أن عمله يأسر عبيس (المنبوليا) magnolia، وتغريد العصافير، وخرير النوافير في حدائق قصر (آرانخيث). ولد المؤلف في إقليم (بلنسية) Valencia سنة 1901، وتوفي في (مدريد) سنة 1999، واسمه الكامل (خواكين رودريغو فيدره) Vidre (المترجم).

استغرق (تيوفان) وقتاً لإشعال سيكارة قبل أن يبدي ملاحظة

بالقول:

- ألا تعتقد أن لي ظروفًا مخففة؟
- هذا ما كنتَ تقوله لها أيضاً؛ ظروفٌ مخففة.
- هل يمكن تغيير الموضوع؟ أنت تثيرني!
- وها أنت ذا، تتهَرَّب. لستَ شجاعاً جداً.
- توقَّف، يا (تيمور)!
- وساد صمت قصير قطعته الفتى المراهقُ أولاً بقوله:
- هل أحببتَ أمي حقاً؟
- أعتقد نعم.. حباً قوياً جداً.
- تعتقد.

- بصورة ناقصة، أعترف بذلك للأسف. وهكذا يكون الحب دائماً. بصورة ناقصة دوماً. يعتقد المرء بأنه يقدم الأفضل. في حين إنه يقدم في الحقيقة ما يقدر عليه. وقد قدِّمتُ ما قدرتُ عليه.

- لقد خنتها كثيراً، لماذا؟ بينما كنتَ تحبها؟

- سوف تتعلَّم فيما بعد أن الرجل صيادٌ يتصوَّر أنه يصيد، في حين إنه هو الفريسة. إن النساء هن دوماً اللواتي يقررنَ.

- أنت الضحية إذاً، إنني أشفق عليك.

- لقد تجاوزت الحدود. انتبه!..

- سأؤمك: أنتَ لم تقدِّم ما تقدر عليه. لقد كنتَ تُخادع. وقد راقبتُك طيلة هذه السنوات. لقد كنتَ تقضي أوقاتك بالخداع. وقد لقبتُك سراً بـ (حَفَّار الأبار) le puisatier. فقد كنتَ تنقُبُ

داخل القلوب. حضرت، و حضرت، و حضرت لتروي عطشك. وها أنت ذا في الصحراء.

نَفَثَ (تيوفان) سحابةً من الدخان نحو السماء المرصعة الآن بالنجوم، واحتفظ بوجهه متّجهاً نحو الليل. وكان يمعن النظر فيه، كأنه يحاول أن يكتشف فيه وجوداً يعزّيه، فلا يرى سوى مخلوقٍ قبيحٍ بألف وجه.

إنه محكومٌ عليه، محكومٌ عليه بأن يعيش في جحيم.

إن الخطأ الذي ارتكبه قبل ثلاث سنوات لسوف يلاحقه حتى يومه الأخير. وليس هنالك غفرانٌ ممكنٌ له ولا فداء. يحيا، يواصل الحياة، يموت.

لقد أكّد رجلٌ (الناصره)⁽⁵³⁾ Nazareth للخاطئة قائلاً: (إيمانك قد شفاك)⁽⁵⁴⁾، وقال للمفلوج: (مغفورةٌ لك خطاياك)⁽⁵⁵⁾. فهل يتعيّن عليه أن يمتلك الإيمان، أم عليه - في المطلق - أن يلتقي رجلٌ (الناصره). إذ إن الريائيّ نجار الهياكل لم يعد يتردّد على المدن منذ زمن طويل.

أمعن (تيوفان) النظر في الفتى المراهق، وقال:

- إن لديك ضراوةً الشباب، يا (تيمور). وهي لا تعرف الصفح لأنها تربّت على عدم اليقين. فالشباب يحلفون بأن الأرض مسطّحة فقط لأن الراشدين يؤكّدون لهم العكس. إنك على بعد مليون سنة ضوئية عما يجول في رأس أناس من سنّي، وأنت لا تعرف شيئاً عن العواصف العابرة.

(53) يعني المسيح عليه السلام (المترجم).

(54) انظر: الكتاب المقدس، الترجمة المنشورة في المطبعة الأمريكية ببيروت، سنة 1913، العهد الجديد (المترجم عن اليونانية)، إنجيل (متّى)، الإصحاح التاسع، من الفقرة 22 (المترجم).

(55) المصدر السابق، إنجيل متّى، الإصحاح التاسع، من الفقرة 2 (المترجم).

- وعندما يموت الشباب قبل الأوان بسبب الراشدين؟

- والحالة هذه، فإن الراشدين يموتون أيضاً..

- ومع ذلك، فأنت حي.

- أنا أظاهر بأنني أحياء.

ومن بعيد، كان صوت دراجة نارية يقطعُ. وكان هنالك

فانوس يضطرب على سطح الماء كنجمة واقعة.

- كم من الوقت سنظل لابئين هنا؟

- لماذا؟ أولست سعيداً؟

- لقد اشتقت إلى أمي.

- لقد اشتقتُ أنا إليها كذلك!

ورفع نبرة صوته:

- لقد اشتقتُ إليها!

توقف قليلاً وقال:

- لم يبقَ لي سوى الذكريات، أفهم؟ إنني أتشبَّث بها. إن

جسمي يتألم فأتشبث بها إلى هذا الحد وأنا أتعزَّى بصور

الماضي. الماضي، يا (تيمور)، ومواسم اللامبالاة.

خاطر (تيمور) قائلاً:

- إنها (مصر)، بالتأكيد.

- طبعاً. فهنالك، أنا أيضاً كنتُ أحلف بأن الأرض مسطحة..

- لماذا لم تكلمني قط بالعربية؟

- لأن أمك لم تكن تتكلمها، وأنا لم يتبقَّ لديَّ سوى نُفُصٍ

منها.

ولوح بسيكارته في الفراغ.

فسأل الصبيُّ:

- أهذا هو التفسير الوحيد؟

- وهل هنالك تفسير آخر؟

- (ديميتري) Dimitri معه حق: أنت دائماً تجيب عن سؤال

بسؤال. على أي حال، عندي فكرة صغيرة.

- أسمعك.

- لقد دفعتُ ثمن إنكارك لجنورك.

اتخذ (تيوفان) هيئة منذهل، وقال:

- إنكار جنوري؟

- بالتأكيد. فمنذ أن وصلت إلى (باريس) بدلت اللباس

الفرنسي بلباسك العربي القديم. والبستني مثلك. وكنت تهتم

بأن أكون - كما يُقال - مندمجاً. أليست هذه هي الكلمة؟ ولم تكن

ترغب في أن أختلط مع الآخرين، وجميع هؤلاء العرب، وهؤلاء

السود المتهمين بتدنيس مدننا. ولما كنت خجلاً من أصولك،

لم تكن ترغب في أن ينعكس هذا الخجل عليّ.

تمتم (تيوفان) قائلاً:

- تأخر الوقت، هيا لننام.

- أليس هذا صحيحاً؟

انتصب الطبيبُ دفعة واحدة، وقد تغيرت ملامحه من

الغضب. وقال:

- هل تعلم ما تكون؟ إنك غبي صغير، متفطرسٌ وجاهل.

أنت تؤكّد، وأنت تقرُّ! جنوري؟ أنا أنكرتُ جنوري؟ انظر، يا

بنيّ، إلى الأمور مثلي، فهؤلاء الذين انتزعوا من أرضِ تعلموا

فيها كلغة أمّ لغة أخرى غير لغة البلد الذي ولدوا فيه،

هؤلاء الذين كان كتابهم المدرسي الـ (لاغارده) Lagarrde

و(ميشار)⁽⁵⁶⁾ Michard، وكبروا وتحت عيونهم طرق قروية تمر في الأرياف الخضراء⁽⁵⁷⁾، في حين إن الصحراء كانت تهيمن على ما حولهم. وهؤلاء الذين كانوا قد عرفوا نهر (السين) la Seine قبل نهر (النيل)، و(جيد)⁽⁵⁸⁾ Gide قبل (محموظ)⁽⁵⁹⁾، و(لامارتين)⁽⁶⁰⁾ Lamartine قبل (أبي نواس)⁽⁶¹⁾. فهؤلاء الأشخاص عرفوا أسوأ أنواع العقوبات: ففي بلاد اللجوء، وعلى الرغم من اندماجهم كما أشرت، كانوا يُعدّون دوماً ومهما فعلوا (وافدين)، وكانوا كذلك يُعدّون في بلدهم الأصلي؛ فهم دوماً وافدون من مكان آخر. فانت تكون ذا ازدواجية أو لا تكون شيئاً. إنه انفصام في الشخصية (شيزوفرينيا) Schizophrène، يا بُني! إذا، من فضلك، يا سيّد أبا العُريف، جنّبتني خطبك التافهة.

همس الفتى المراهق مرتبكاً ويخجل قائلاً:

- هذا ثراء، أليس كذلك؟ فالجدة يونانية، والأم فرنسية،

والأب مصري من أصولٍ سورية - لبنانية.. أليس هذا ثراء؟

(56) يقصد بذلك الكتب المقررة في المدارس التي تعلّموا فيها وهي من تأليف فرنسيين، وهي تتضمن تاريخ آداب بلادهم لا بلد المدرسة التي تعلّم فيها تلك الكتب، والمقصود بالطبع هذه المدارس التبشيرية وغير التبشيرية التابعة لعدد من بلدان الغرب، لربط الجيل الواعي في البلاد العربية بتلك البلدان، لأنهم يعرفون عنها أكثر مما يعرفون عن بلدانهم التي ولدوا فيها، وهي ظاهرة مستشرية أكثر في زماننا وفي مختلف البلدان العربية، وفي ظلّيتها لبنان (المترجم).

(57) لعله يقصد هنا البيئة اللبنانية تحديداً (المترجم).

(58) أندريه جيد: كاتب فرنسي (1869 - 1951) كتب الروايات واليوميات. من أشهر رواياته إيزابيل، ترجمها المراجع ونشرت مرتين، والأخلاقي، والأقوات الأرضية، وقد ترجمتا إلى العربية. حصل على جائزة نوبل 1949 (المراجع).

(59) يعني الكاتب الروائي والقصصي الكبير (نجيب محفوظ) (1912 - 2006)، الذي نال جائزة (نوبل) للآداب سنة 1988، وهو أشهر من أن يعرف (المترجم).

(60) الفونس دو لامارتين: شاعر ورجل سياسي فرنسي (1790 - 1869)، كان رائد الرومانسية في فرنسا بديوانه الشهير «تأملات»، وله مؤلفات كثيرة (المترجم).

(61) أبو نواس: واسمه الحسن بن هانئ (145 - 198هـ)، من شعراء العصر العباسي الأول، ولد في البصرة، وتخرج في الشعر على يد الشاعر والبة بن الحباب بالكوفة، والرواية خلف الأحمر وأقام في بغداد، وكان مقرباً من الخليفة الأمين، أغلب شعره كان في الخمريات.

- أنا لا أنكر ذلك. وهذا لا يمنع، أحياناً، من أن يحصل لي
أن أغبط الفقراء.

ولدى التوجّه نحو السَّلْم الذي يُفضي إلى الدور السفلي،
استأنف (تيوفان) قوله بصوت متفطرس:

- غداً، مع الفجر، سأنتقل إلى (ليفادي) Livadi.

- هل أفترض أنك تذهب لركوب الخيل؟

- بالضبط. وهذا سيزيل عني التوتر.

وأثناء نزولهما على درجات السَّلْم، أبدى (تيمور) ملاحظة
قائلاً:

- عندما أفكر في أنك أحضرت حصانك (أشقر
فرنسا) alezan de France، لا شك في أنه الحصان الوحيد
في (باتموس)⁽⁶²⁾ Pátmos.

- لا شيء في العالم يفصلني عن (جيهول)⁽⁶³⁾ Jehol.

- إنني لا أزال أذكر وجوه الناس عندما رأوه يصل إلى
(سكالا)⁽⁶⁴⁾ Skala.

- إنني لا أرى ما يدهش جداً في الأمر.

وصاح (تيمور) بحدة قائلاً:

- هل تريد أن تضحك؟ الحصان في حاجة إلى فضاء واسع!

وحاجة (جيهول) للفضاء أكبر من حاجة الخيول الأخرى! وهنا

لا يشاهد المرء سوى دروب شديدة الانحدار، وجبال قاحلة، وأرض

كثيرة الحجارة. وفي كل متر يُخشى من دَهِس عجوز. هل كنت

تتصوّر العَدُوّ في الصحراء مثلما كنت تعيش في (القاهرة)؟

(62) باتموس: اسم جزيرة يونانية (المترجم).

(63) ويمكن نطقه على الطريقة الفرنسية (جيول) (المترجم).

(64) سكالا: مدينة رئيسية في جزيرة (باتموس) المذكورة، وفيها ميناء للسفن (المترجم).

الرجلُ الذي كان يَنْظُرُ إلى الليل

- عَدُوٌّ، حَبَبٌ⁽⁶⁵⁾. أنت تعلم تماماً أنني لا أستطيع الاستغناء
عن أوقات الانطلاق تلك. ثم إن الحصان يشفى. لقد تحدثنا
عن ذلك مئة مرة.

- غريباً .. ولكن ليس بطريقة علمية بالنسبة لطبيب.
نَفَثَ (تيوفان) نفثة غيظ، ونزل بسرعة على السلم.

* * *

أطلَّ الفجر.

كانت قطعان من الماشية تهبط من الحظائر في جوقة من
الثَّغَاء⁽⁶⁶⁾، وحول أعناقها أطواقٌ من الخرز الأزرق. وكانت حُمَلائن
عيد الفصح تتوالى، وهي تقفز، غيرَ واعيةٍ للمصير الحزين
الذي كان يتربص لبعثها: فنحن في منتصف شهر آذار/مارس.
وفي أقل من شهر، سيكون عيد الفصح الأرثوذكسي، وكما تقضي
العادة، فإن كل أسرة كانت تحترم نفسها، ستقدم حَمَلاً مشوياً
على السَّفُود⁽⁶⁷⁾. كانت السماء فوق الجزيرة مشبعةً الآن بأريج
الزيت والزعتر.

ثَبَّتَ (تيوفان) حوضه، ورفع معصميه برشاقة، وجذب
العنان، فتوقَّف الحصان فوراً، ثم فتح (تيوفان) أصابعه، وحرَّرَ
يده اليمنى، ليدغدغ بها عنق الحصان، وانتظر بصبر أن يعبرَ
القطيعَ الطريق.

هل تريد أن تضحك؟ الحصان في حاجة إلى فضاء واسع!
الحقُّ مع (تيمور) إلى حد بعيد! لم يكن (تيوفان) يستطيع

(65) الخبب: نوع من عدو الحصان (المترجم).

(66) الثغاء: الصوت الذي تصدره الأغنام والماعز (المترجم).

(67) السفود: السيخ الذي يشوى عليه اللحم (المترجم).

شيئاً. ما إن احتفل بعيد ميلاده السادس، حتى أركبته والده، للمرة الأولى، على حصان. كيف يصف تأثره في ذلك اليوم؟ وبأي كلمات؟ لقد كان يشعر بأنه سيد العالم الذي لا يُقهر.

وكان قد حظي، في السبعينيات، بالتعرف على (رندا) Randa، وهي فارسة مصرية هائلة، كانت تعمل معلمة لفنّ الترويض، وكانت تذكر بإعجاب علاقة التناغم، لا الإكراه، التي تنعقد بين الإنسان والحيوان. وقد أجابت حين سُئلت عن ولعها الموروث بالخيل عن أبيها - وهو المنتج الشهير والمخرج السينمائي⁽⁶⁸⁾ في الزمن الذي كانت (القاهرة) تلقب فيه بـ (هوليوود الشرق) Hollywood de l'Orient - فقالت: «إن الحصان دوماً في رأسي». وأضافت: «كان والدي مغرمًا إلى حد بعيد بحيواناته، إلى درجة وصلت به كثيراً إلى أن يفتح أفلامه أو يختمها بمشهد للخيل». وكانت (رندا) أول امرأة تمارس فن ترويض الخيل غير المعروف في (مصر) حتى ذلك الحين، وهو الفن الذي يمثل، في رأيها، شكل التواصل الأكثر تهيئة مع الحصان، وقالت: «أنت تتعلم التحدث معه، وتعلمه تصرفات وحركات فطرية فيه، ولكن ينبغي تنميتها». وأعلنت، ذات يوم، بالجديّة الأكثر في العالم، قولها: «الحصان هو أيضاً طبيب». فقهقه (تيوفان)، فقالت له: «لا، يا (تيو)⁽⁶⁹⁾ Théo، لا تضحك. لسوف تُدرك ذلك عندما تكف عن ركوب الحصان

(68) واسمه (هنري بركات) (1914 - 1997) المخرج المصري المعلق الذي أخرج عدداً كبيراً من الأفلام، من أشهرها: لحن الخلود، دعاء الكروان، في بيتنا رجل، الحب الضائع، أفواه وأرانب. ولد في القاهرة، وهو من أصل لبناني كالمخرج (يوسف شاهين). كان يُلقب بـ (شيخ المخرجين) (المترجم).

(69) وهو نداء اختصار للتحبّب لاسم (تيوفان) (المترجم).

الرجل الذي كان ينظر إلى الليل

بطريقة ميكانيكية». وما كان (تيوفان) لينسى ما كانت ترويه له بشأن وصول الفاتحين إلى أمريكا الجنوبية: عندما اكتشف الهنود (الحمير) الخيول الأولى التي يركبها الغزاة الإسبان، كانوا يعتقدون أن في كل كائن مخلوقاً وحيداً بذاته.

واستخلصت الفارسة المصرية قائلة:

- أنت تُدرك أن هدف كل مروّض أن يكون واحداً مع مطيته، إلى درجة أنك ترقص مع حصانك، كما في رقص (الباليه)، من غير حاجة إلى كلمات، إذ لا يكون هنالك شيء مع القلب.

من غير حاجة إلى كلمات، إذ لا يكون هنالك شيء مع القلب أصبح طريق (تيوفان) خالياً منذ بضع دقائق. وقد لاحظ ذلك للتو. فأطلق العنان بحركة مرنة لـ (جيهول) باتجاه شاطئ (ليفادي). كان المكان مقصراً في تلك الساعة، التي كان الفجر يبزغ فيها ببطء.

كان هناك بضع شجرات زيتون تلقي بظلها الخجول على الامتداد الرملي، وضبابٌ صباحي خفيف يطفو على البحر، وهنالك أيضاً ماساتٌ متحركةٌ تتلألأ تحت هذا الستار⁽⁷⁰⁾.

هنا، كان بإمكان (جيهول) أن يعدو بقدر ما يريد. وقد أطلقه، فانطلق كهزيم الرعد المخنوق، فأفزعت ضجة انطلاقاته سرياً من العصافير. أشعل (جيهول) الرمال بعدوه، فسفّها إلى بطنه، وكأنه كان يحاول التخلص من فارسه، غير أن هذا الفارس بقي لا يتزحزح، لأن إرادته لا تُقهر. وكان (جيهول) يحسّ بذلك، فكان يعدو على امتداد الشاطئ، ويتصبّب منه العرق حتى قوائمه،

(70) يغلب على الظن أنه كان يقصد بهذه الماسات التماعات أمواج البحر، نظراً لانعكاس أضواء الفجر الأولى عليها (المترجم).

بينما كانت موجةٌ بين الحين والحين ترتمي شفاقةً على الرمل، وترشق الرذاذ على عُرفه.

لم يكد (تيوفان) يضع رجله في الركاب، حتى اجتاحه شعورٌ بالنشوة، بعيداً عن الصرخات، والأوجاع، والمآسي، والأطياف الراكعة، وواضعاً مسافةً أبعد فأبعد بينه وبينها. أو على الأقل كان يتصور قدرته على فعل ذلك.

* * *

- دكتور (دبانه)، إنني أكلّمك من غرفة العناية المركزة⁽⁷¹⁾ réa.

أصبحت كل أحاسيس (تيوفان) في حالة إنذار، وسأل:

- ما الذي يجري؟ هل يتعلق الأمر بـ..

- نعم. إن حالته مُقلّقة. ومن المحتمل جداً أن نكون أمام

صدمة نرّفيّة. وقد حقنّته بلترين من (الكريستالويد) Crista

lloïde في الوريد، و..

ردّ (تيوفان) بقوله:

- أنا قادم!

ارتعد كلُّ جسده.

لقد كان يرتعد مثل صبيّ في الظلام.

سمع من خلال التشوش صوت زوجته القلق تسأل:

- ما الذي جرى؟

فردّ:

- لا شيء خطير.

ليس ثوب المنزل r. de ch، واندفع نحو سيارته حافي القدمين.

* * *

(71) هذه الكلمة اختصارٌ لكلمة (réanimation) أي: إنعاش (المترجم).

- يا إلهي! متى ستتلاشى هذه الذكريات؟
أوقف حصانه قليلاً، وأطلق صرخة مرّوعةً، ثم أرخى العنانَ،
وأمسك عُرف الحصان بيدٍ، بينما أنشَبَ يده الأخرى في بطنه،
كما لو كان يريد أن ينتزع أحشاءه.
ثم ارتقى على الرمال.

(3)

كان بابه يُقرَع.. يُقرَع على بابه أم في رأسه ؟
استوى على سريره، مشوّشَ الذهن.
سأله (تيمور):

- هل أنت بخير؟

- إني.. إني لا أدري.

- كنتَ مُغمَى عليك.

- في (ليفاذي)، أليس كذلك؟

- بلى.

- وكيف عدتُ أنا إلى البيت؟ انتظرا! إني أتذكّر. كان هنالك

ذاك الرجل، إنه إنكليزي. وعلى أي حال، كانت نبرته إنكليزية.

لم يكن منظره لطيفاً. بل كان منفرّاً جداً..

- فسُرّ ذلك.

- طوال الوقت الذي كان هذا الرجل الطيب يكلمني فيه، كان

متاعه يتدلّى على بعد بضعة سنتيمترات من وجهي.

انفجر الفتى المراهق ضاحكاً:

- من هواة العُرّي..

- لقد ساعدني على النهوض.

دسّ (تيوفان) يده في شعره المنفوش.

- إنني لا أفهم. ما الذي يمكن أن يكون جرى لي؟
 اقترح (تيمور) وهو يختلس ابتسامه قائلاً:
 - في رأيي، ينبغي استشارة طبيب.
 - بالتأكيد. سأذهب لرؤية (باباداكيس) Papadakis.
 - هذا العجوز الذي يحسب نفسه طبيباً؟
 - أنت تقول أي شيء كان. إن (باباداكيس) طبيبٌ ممتاز. وإنني
 لأحبُّ أن أصل إلى سنِّه بمثل وعيه وانفتاح ذهنه.
 - على أي حال، لست في حالة سيئة جداً، نظراً لأنك تمكّنت
 من امتطاء حصانك (جيهول) مرة أخرى، وأرجعته إلى عند
 (مانوليس)⁽⁷²⁾ Manolis.

- وبعد ذلك..

- اصطحبك بسيارته إلى هنا. كان ينبغي لك أن تنظر إلى
 رأسك.

تضاعفت شدة القرع على الباب.

- يا دكتور!

- قرّر (تيوفان) أن يفتح الباب، فإذا برجل، ذي وجه متعرق، نَفدَ
 صبره على العتبة.

- أخيراً، يا دكتور (دبانه)! لقد أوشكت على العودة.

- ماذا هناك؟

- أنا مبعوث من قبل السيدة (بيبا) Béba. ابنتها ليست
 على ما يُرام. وقد حاولنا أن نتصل بك هاتفياً طيلة الصباح،
 ولكن لم يرد أحد. كان الهاتف يرن في الفراغ.
 - السيدة (بيبا)؟

(72) وهو الفلاح اليوناني الذي عهد إليه (تيوفان) بحصانه (الترجم).

- (بيبا فاسيلي Vassili). المالكة الجديدة نُزِّل (بانسيون) الأسرة.

وأشار الرجل إلى سيارة أجرة في الأسفل.
- لقد كلفتنى بإحضارك. وإعادتك بالتأكيد.
كان (تيوفان) يشعر بالآم في كل جسمه. وكان يشعر بأنه
محموم، ومحطم. فتأوه قائلاً:
- انتظرنى. سأعود.

* * *

كانت سيارة الأجرة تسير على الطريقة اليونانية. تسرع على
الشواطئ، ويُطفأ محرّكها في المنحدرات، طريقة مثل أخرى
للاقتصاد في البنزين. والبيوت ذات الشكل المكعب، والمتراص
بعضها بجانب بعض على امتداد الأزقة المتعرجة التي تفضي
جميعاً إلى دير القديس حنا (جان) Saint - Jean، لم تكن
تبدو له ناصعة البياض. توقفت سيارة الأجرة أمام سُوِيحةٍ
ظليلة كان الرجال يلعبون فيها الورق.
- هنا.

وأشار السائق بإصبعه إلى باب أزرق.
نزل (تيوفان). على يمين الباب نُقِشت كلمة:
Epiphaneia⁽⁷³⁾. وهو اسم غريب لنُزِّل أُسْرِي. جذب (تيوفان)
جرساً صغيراً من النحاس. وبعد بضع دقائق، فتحت الباب امرأة

(73) وهي بالفرنسية (Épiphanie) وفي الإنكليزية (Epiphany) وتعني في النصرانية
(عيد الظهور الإلهي) أو (الغطاس) أو (العماد)، أو (عيد الملوك المجوس الثلاثة) الذين جاؤوا
بحثاً عن ظهور المسيح، ويكون في يوم 1/6 من كل عام، لأن (يوحنا المعمدان) عمّد المسيح في
نهر الأردن. و(إبيفانيا) اسم عجوز تأتي ليلة 1/6، على غرار (بابا نويل) ليلة 12/25 من كل
عام، لتوزع الحلوى على الأطفال المطيعين، وقطع الفحم على الأشقياء، وتدخل البيوت من خلال
المداخن، ولذا يكون وجهها أسود من السُخام، ولها صلة ببعض الأساطير القديمة (المترجم).

ذات وجه جامد، ترتدي السواد، وقد غطت شعرها بفضولار، وقبل أن يعلن عن وصوله، دعته ليتبعها على امتداد ممر تحفه أشجار السُرو ويؤدي إلى بيت من طبقة واحدة، تزينه نبتة الجهنمية المتعرشة الحمراء. كانت هنالك بضع درجات حجرية. أدخلت المرأة الطبيب إلى غرفة كبيرة ذات جدران فاتحة. وقالت له:

- انتظر هنا، من فضلك. لسوف أعلم السيدة.

كان أول تفصيل لفت (تيوفان) هو العدد الهائل من الكتب التي تملأ الخزائن على مدار الجدران. كثير من الروايات، والآداب اليونانية القديمة، وأيضاً الروايات البوليسية. وبالعكس، كان هنالك قليل من الأثاث. أريكة نثرت عليها الوسائد المزينة برسوم متعددة الألوان. وكتبتان. وطاولة منخفضة من خشب الـ (باليساندر) palissandre وضعت عليها لعبة ورق (التاروت) tarot وصندوق سيكار cigarillos. وكانت هنالك أيقونة مرصعة بالفضة المطلية بالقصدير معلقة قرب باب - نافذة يفتح على مصطبة. وفوقها تماماً كانت تلمع عين زرقاء من الـ (بورسلين) porcelaine. تحالف بين الإيمان والتطير.

كان (ديميتري) قد فسّر له ذات يوم قائلاً:

- ضع في رأسك جيداً أن عشرة بالمئة من البشرية يموتون ميتة طبيعية. والبقية يموتون من الحسد والغيرة. لا تضحك! إنني جاد. وتنبعث من بعض الناس طاقات سوداء، وأفكار أكثر سُميّة من السم الذي قتل (سقراط) (74) Socrate.

(74) سقراط: فيلسوف يوناني (470 - 399 ق م)، عُرف من قبل مريده (أفلاطون) Platon، وهو أبو الجدلية (الديالكتيك)، وبالنتيجة أبو الفلسفة كلها. وقد حُكم عليه بالموت عن طريق تجرع السم (الترجم).

وكان (تيوفان) يتظاهر بالاهتمام، وسأله:

- وما أعراض هذا المرض الرهيب؟

- تكون تعباً باستمرار، وتنام نوماً سيئاً، وتأخذك قدامك إلى كل مكان، والأشياء تفر من يديك، وبخاصة.. وبخاصة تكون منحوساً، ولكنه نحس! ومهما تفعل تخفق. وإذا أُعْطِيت سبيكة من ذهب، تحوّلت إلى نفاية حديد.

رسم صديقه إشارة الصليب ثلاث مرات وهو خافض الجفنين.

- توجد وسيلة واحدة لمعرفة إن كانت العين الشريرة فيك.

اسكب ماء في كأس، وأضف إليه بضع قطرات من الزيت. فإذا رسا الزيت في القعر، فلا يكون عليك حينئذ سوى الصلاة. هل فهمت؟
- نعم، نعم. منذ هذا المساء سأقوم بالتجربة.

ومن المؤكّد أن (تيوفان) لم يقم بشيء. لأن حياته كانت قد

تحطمت: فماذا يمكن أن يحلّ به أكثر؟

سار (تيوفان) نحو الباب - النافذة، كان المنظر رائعاً. فقد كانت

جزيرتا (ليبسي) Lipsi و(ماراثي) Marathi الصغيرتان îlots

تشبهان من بعيد، حوتين منقلبين على ظهريهما بلا حراك. وفي

الوقت الذي كان يتقدّم فيه نحو المصطبة، كانت هنالك أنعام

تنبعث من آلة الـ (باغلمّا)⁽⁷⁵⁾ baglama، وكان هنالك صوت

عذب قريب جداً من صوت آلة الـ (بوزوكي)⁽⁷⁶⁾ bouzouki. كان

(75) الباغلمّا: آلة موسيقية متطورة عن (البوزوكي) أو (البزق)، وهما من الآلات الوترية الأكثر شمبية وانتشاراً في البلقان وتركيا وإيران وبعض المناطق في سورية والعراق (المترجم).

(76) البوزوكي أو البزق من سلالة وترية واحدة، وهو ذو نغمات شجية رائعة، وقد كان من أشهر عازفي البزق المنفرد في سورية الراحل (محمد عبد الكريم)، الذي لقب في حياته بلقب (أمير البزق)، وتحتفظ الإذاعة السورية بتسجيلات كثيرة ونادرة لمعزوفاته. وهنالك مقطوعة على البزق تبث صباح كل يوم قبيل افتتاح بث إذاعة دمشق، وقبل النشيد السوري مباشرة (المترجم).

بعضهم يعزف داخل البيت، من غير مهارة في العزف، غير أنه لم يكن رديئاً.

- نهارك سعيد، يا دكتور.

فاستدار نحو الصوت.

نعم. كانت امرأة شبيهة تماماً بتلك الممثلة الإيطالية التي نسي اسمها، وكانت رائعة بلباس حاصدة الرز، ومثيرة بالبنطال القصير (الشورت)، كما أنها كانت مثيرة جداً وهي عارية الفخذين إلى درجة لا تُصدّق، مثل مُضيفته في هذا الثوب المفصّل على قدر الجسم، والذي يكاد ينبجس منه محيط الخصرين. قالت بصوت بطيء:

- أشكر لك قدومك. هل يمكن أن نجلس لحظة؟ أود أن

أكلّمك قبل أن تفحص ابنتي.

كان في صوتها بُحّة خفيفة، كُبْحَة مُدخّنة كبيرة عند الاستيقاظ.

أَتخذ (تيوفان) مكانه على كَنَبَة، وقال:

- لقد لمحتكم عندما نزلتم من سفينة (النجمة الزرقاء).

وكان معك أيضاً صبيّ صغير.

- إنه (اليكسيس) Alexis، أجل. هل ترغب في تناول

القهوة؟

واصلت أنغام (الباغلمّا) ملء المنزل. فسألها:

- هل ابنتك هي التي تعزف؟

- نعم. إنها تأخذ بالعزف في كل مرة تشعر بأنها ليست

بخير، وتسمي ألتها «ترياقى ضد الموت». أنت لم تجبني: قهوة؟

أشار لها بالنفي، وقال:

- كَلْمِينِي عَنْهَا. لِمَ هَذَا الْكُرْسِيِّ الْمَتَحَرِّكِ؟

- أصيبت (أنطونيا) Antonia بشلل الأطفال la poliomyélite في الثانية عشرة من عمرها، فكان ذلك أمراً رهيباً. كان كابوساً حقيقياً. وأسوأ الكوابيس تلك التي تهجم عليك عند النهوض من النوم. ومع ذلك عرفنا أوقاتاً من الأمل. صدق ذلك أو لا تصدق، في الاثني عشر يوماً الأخيرة تراجع الشلل، وهذه معجزة.

- لسوف أخيب أملك. ليس هنالك معجزة في الأمر. ولكنه السير التقليدي لهذا المرض: فبعض الخلايا المصابة لا تتجاوز الطور الالتهابي، وهذا ما يفسر انعكاسيتها، وبعضها الآخر يموت.

بدأت الخيبة على وجهها، فقالت:

- إنني أرى أن الحياة تسير بشكل سيئ: فالناس الطيبون يدفعون دوماً فاتورة الخبيثين. ولم تكن (أنطونيا) لتستحق ذلك. لو كنت تعرف كم كانت تتألق قبل ذلك! لقد كانت في حركة دائبة، وجريئة، وحادة الطبع. لقد كانت بنتاً رائعة.

- كانت؟

- إنها تعيش إعاقتها بشكل سيئ جداً. ولا تعبر عن ذلك، ولكني أعلم أنها تلعن، في كل يوم، الظروف التي رمتها بهذا الحجر. وقد انطوت على نفسها، ولا تتواصل إلا قليلاً ونادراً. فلا تصدم إن بدت عدوانية أو قليلة الأدب نحوك. فهي بنت لطيفة. وقد قلت لك ذلك. فقد كانت قبل هذه السفالة.. عفواً.. قبل هذا المرض تشبه شمساً.

- ومم تشكو اليوم؟

- منذ أكثر من ثلاثة أسابيع وهي محمومة. حُمى محيرة تصعد وتهبط بشكل دوري. وكانت تشكو، من وقت لآخر، من آلام مَفصليّة. وأقرُّ بأنني، عند رؤية حالتها، لم أكن شديدة القلق. وقد دخلنا اليوم، مع ذلك، في الأسبوع الرابع، وفي هذا الصباح استيقظت ودرجة حرارتها أربعون.

أمعن (تيوفان) النظر في المرأة كما لو أنه كان ينتظر منها أن تتابع كلامها، ولكنها حافظت على صمتها، فأمسك بحقيبته، وقال:

- هلاً أخذتني إليها!

* * *

كانت النوافذ مغلقة. وكان مصباح السرير يبعث ضوءاً شاحباً.

وكانت (أنطونيا) جالسةً على سريرها، وظهرها مستند إلى كومة من الوسائد، وكانت تحتضن (الباغلمأ)، لكنها بقيت عديمة التأثير عندما دخلا إلى غرفتها. واستمرت تعزف، وكانت تتوقف، من حين لآخر، كي تدقّ على صندوق الرنين. وكانت هذه الآلة تبدو كبيرة جداً بجانب هذا الجسم الرقيق، مع أنها لا تكاد تبلغ خمسين سنتيمتراً.

وعلى عكس أمها، كان وجهها دقيقاً، شاحباً جداً، تزيينه وجنتان بارزتان، ولها جفنان ورديان تقريباً، رموشهما طويلة، وعينان بُنيّتان واسعتان.

وكان شعرها الأسود ينسدل على كتفيها. وما كان يُدهش فيها، على وجه الخصوص، جمال يديها البيضاءوين وجمال أصابعها. بدأت (بيبا فاسيلي) بالقول:

- Kouklamou⁽⁷⁷⁾، يا دُمَيْتِي، ها هو الدكتور (دِبَانِه).

بقيت (أنطونيا) غيرَ مبالية، فقال (تيوفان) للأم:

- هلاً تركتنا، أرجوك!

لَبَّتِ الأمَ الطَّلب. فتقدَّم (تيوفان) خطوة من السرير، قائلاً:

- اسمي (تيوفان).

لم يتحرك أيُّ ملامحٍ في وجه (أنطونيا). واصل (تيوفان)

قائلاً:

- أنا أيضاً كنت، في شبابي، أعزف على آلة موسيقية، هي

(الغيتار)، ولا أزال أعزف عليه أحياناً حتى الآن وأنا وحدي،

هذا أفضل. رحمة بأذان الآخرين. إنه يكون أفضل بمحبة أذان

الآخرين.

ثم أخذ سماعته.

كانت الريح الخفيفة، في الخارج، في أشجار الزيتون، تحدث

خشخشة.

مر بعض الوقت. جلس (تيوفان) على حافة السرير، وقال:

- هل تعرفين أصل (الباغلمَا)؟ إنه يعود إلى الزمن

الذي احتلَّ فيه الأتراك اليونان، فقد منعوا آلة (البوزوكي

= البُزُق). وعندئذ، وذات يوم، تصوَّر أحدهم (الباغلمَا)، وهي

بُزُقٌ صغير يمكن إخفاؤه بسهولة تحت معطفٍ طويل. وهكذا،

وحتى في السجون، كان السجناء يعزفون عليه طوال مدة

حبسهم.

أمعن (تيوفان) النظر في (أنطونيا)، ثم قال:

(77) هذه الكلمة يونانية بحروف لاتينية، بمعنى (لمبتي) أو (دميتي) التي تلتها تماماً في الأصل

الفرنسي، وهي بالحروف اليونانية (κούκλαμου) (الترجم).

- تملك الكائنات البشرية وسائل خارقة: فهم يلاحقون، ويحملون على السكوت، ويُعدَّبون، لكنهم ينجحون، مع ذلك، في المقاومة. هل فهمت؟

ظَلَّتْ (أنطونيا) صامته. فهل كانت تصغي إليه فقط؟
وحيثُذ، قَرَّبَ صَوَانِ السَّمَاعَةِ مِنْ صَدْرِ (أنطونيا) التي رفعت فوراً آلة (الْبَاغْلَمَا) لتتخذ منها درعاً. فقال لها:
- يجب أن أصغي إلى قلبك يا (أنطونيا)، فهو لا يكتُم سِراً. وعليّ أن أفعل ذلك.

وتحرّك جفناها، فقال:

- نعم، قلتُ بوضوح إنه لا يكتُم سِراً. إنَّ مَنْ يَصْغِي إلى قلب ما يَسْمَعُ أيضاً الأسرار الأكثر سِرِّيَّةً عند الكائنات. فإن كنتِ ترغِبتين في ذلك، فلسوف أعيد عليك ما يرويه قلبك لي. أعدك بذلك.
أمعنت (أنطونيا) النظر في (تيوفان) وهي مرتبكة، ثم تمتمت قائلة:

- هل أنت مجنون؟

- قطعاً، وحتماً، ونهائياً.. أنا مجنون.

ثم بادر إلى القول:

- أنا وأنتِ نشكّل ثنائياً جميلاً.

- أنا لستُ مجنونة.

- لست مجنونة؟ لقد خاب أمني. ومع ذلك، فأنتِ تبدين لي ذكية جداً كي تكوني كذلك. أنا لا أتحدّث عن الجنون المألوف، ذلك الجنون الذي يحيط بنا يومياً، لا.. إنني أتحدّث عن الجنون الحقيقي، ذاك الذي يتيح لنا أن نرى العالم لا كما هو عليه، وإنما كما نحلم أن يكون.

الرجل الذي كان ينظر إلى الليل

أخذ من يديها (الباعلمًا)، وهو يناجي نفسه، ووضعها في آخر السرير. وهذه المرة، لم تقاوم (أنطونيا). فأزاح ببطء قبة ثوب نومها ودسّ السماعة في التجويف. فقالت:

- إنها باردة!

بعينين نصف مغلقتين، تابع (تيوفان) فحصه، بينما كانت هي تراقبه خلسة.

قال لها (تيوفان):

- الآن يجب أن تتمددي. سأساعدك.

رفعها قليلاً وجعلها مستلقية. وقد تركته يفعل ذلك، كما لو كان الأمر لا يخصها.

وعند الجس، لاحظ زيادة في حجم الكبد والطحال، ولاحظ كذلك تضخماً بسيطاً في الغدد اللمفاوية على مستوى العنق. قال وهو يجلسها عند رأس السرير:

- حدثتني أمك عن أوجاع مفصليّة، فهل هي شديدة؟

- هذا يكفي! دعني هادئة.

- أجيبيني، يا (أنطونيا).

أشار إلى ساقها الهامدتين، اللتين كانت اليسرى منهما مشوهة بشكل محسوس بسبب الضمور العضلي l'amyotrophie وارتفع صوته درجة قائلاً:

- ألا تعتقدين أن مرضاً واحداً يكفي؟ وهل ينبغي أن يُضاف إلى أوجاعك وجع آخر؟

- رُدّ لي (باعلمتي)!

تناول ألتها، ولكن بدلاً من أن يردها إليها مرراً أصابعه على طول ذراع هذه (الباعلمًا)، وقال:

- هذا غريب. خمسة أوتار. الأسفلان منها توافق
جواباً octave في أعلى الثالث. لماذا؟
- أعدها إليّ!
- والوتر الأول من الأعلى يوافق جواباً فوق الثاني. هذا
غريب حقاً.

رفعت يدها مغتاظة، وقالت:

- اخرج!

- أكرّر: هل أوجاع مفاصلك شديدة جداً؟

- لا!

- هل هي منتظمة؟

- لا!

- سؤال آخر: هل شربت حليباً في الأسابيع الأخيرة؟

- حليباً؟

- أو أكلت جبنة؟ وعلى وجه الخصوص جبنة ماعز؟

- جبنة ماعز، نعم.

- أكلتها حديثاً؟

- أعطني (باغلمتي)!

- حديثاً؟

- إنني أكل منها في كل الأوقات!

- حسناً جداً.

أعاد إليها الآلة، وهو يقول:

- غداً سيأتي أحدهم لياخذ منك عيننة دم،

فأرجو أن تستقبله بمزيد من الرقة. وإلى اللقاء، يا
(أنطونيا).

فصَّكَه الجواب التالي:

- اذْهَبْ إلى الشيطان!

* * *

سألتُ (بيبا):

- ماذا هنالك، يا دكتور؟

- اطمئني. تحتاج إلى بعض المضادات الحيوية، وسيعود كل شيء منتظماً.

- وماذا عندها؟

- لا شيءٍ خطيرٍ. إن مرضها شائع جداً في بلدان البحر المتوسط. إنها الحمى المتواجدة، وتدعى أيضاً (الحمى المالطية) fièvre de Malte. وسيؤكدُها فحص الدم.

- فعلاً، إن سوء الطالع جادٌ في ملاحقة هذه الطفلة المسكينة.

ابتسم (تيوفان)، وقال:

- هل هي العين الشريرة؟

- بالتأكيد! أرجو أن تكون مؤمناً بها. أما زلت لا تريد شرب القهوة؟

- الآن، بلى. ويكل سرور.

- أتريدها سكرًا زيادة أم وسطاً.. أو غير ذلك؟

- بلا سكر.

صَفَّقَتِ السَيِّدة بيديها، ونادت:

- (ديسبينا) Despina.. تعالي!

ثم قالت لـ (تيوفان):

- لنجلس.

ظهرت المرأة التي ترتدي السواد فوراً تقريباً، فأمرتها (بيبا) قائلة:

- Ena gliko, ena khoris zakhari⁽⁷⁸⁾.

ثم تناولت علبة السيكار الموضوعه على الطاولة المنخفضة، وقدّمت واحداً لـ (تيوفان)، فقال:

- لا، شكراً. إنني أفضل سُمي الخاص⁽⁷⁹⁾.

ومدّ إليها قَدَاحَتَه وأشعل لها سيكارها، وبعد أن نفتت نفتتين خفيفتين، قالت:

- أنت لستَ يونانياً. إذن كيف حصل أن..

- أن أتكلّم لغتك؟ إن جدتي لأمي يونانية.

- حقاً؟

- وأصلها من هنا. من جزيرة (باتموس).

- ومن أين جاء اسمك الأول؟ أتصوّر أنك تعرف معناه.

وقبل أن يتاح له الوقت للإجابة، تابعت كلامها بالقول:

- (ثيوس) théos يعني (الإله)، و(فانوس) phanos أي

(المصباح) أو (المضيء)⁽⁸⁰⁾، لقد كانت جدتك بعيدة النظر. وأنت

من أي البلدان؟

تظاهر (تيوفان) بعدم سماع السؤال، وقال:

- لقد اشتريت منزلاً جميلاً.

(78) عبارة يونانية بحروف لاتينية، وتعني ((فنجاناً) واحداً حلواً، وواحداً بلا سُكَّر)، وهي بالحروف اليونانية (χωρίςζάχαρηέναγλυκό ، ανέ) (الترجم).

(79) يعني سيكارته ونوع دَخَّانه (الترجم).

(80) الكلمة الأولى باليونانية (θεος)، والثانية (φανος)، ولعل كلمة (فانوس) المستعملة في لغتنا مأخوذة عن اللغة اليونانية (الترجم).

- نحن هنا في القسم الخاص. وهو الأقل خراباً. وأرى أنني في حاجة إلى وقت لتجديد الغرف وصالة الطعام، وأنا افتقر إلى الوقت. والمستأجر الأول سيصل خلال أيام. ولحسن الحظ أنه صديق قديم جداً. وسيكون صبوراً. ومنذ متى تعيش في (باتموس)؟

- منذ أكثر من ثلاث سنوات بقليل.

- هناك ما ينبغي أن يكون قد صرفك عن المدن الكبيرة.

- أولم أقل لك من قبل أين كنت أعيش؟

- من المؤكد أنك لم تقل لي، أليس كذلك؟ أنت لا تشبه فلاحاً، ولا رياضياً. وتصورك من (لندن)، أو (باريس)، أو (برلين)، ما يدريني!

أشار بإصبعه إلى لعبة (التاروت)، وقال:

- هل أنت معتادة على قراءة ما يسكتُ عنه محدثك؟

- هذا ممكن. لقد تعلمتُ أيضاً كثيراً عن نفسي وأنا أنعم

النظر في الآخرين. فقط كنتُ قصيرة النظر، ومن هنا كانت لي أخطاء كثيرة في التقدير.

وضعت الخادمة، ذات الوجه الجامد، القهوة على الطاولة

وانسحبت. قالت (بيبا):

- لماذا تقيم هنا؟ وهنا أقاصي العالم؟

فردت مبتسماً:

- وأنت؟ لماذا اشتريت هذا المنزل هنا؟ وهذا آخر العالم؟

فوضعت، وسط حفيف (النابلون)، ساقاً على ساق، فظهر

أعلى فخذيها، فسارعت إلى تصحيح ثنية تنورتها. وقالت:

- اعتقد انك كنت تلميذاً قديماً عند (اليسوعيين)⁽⁸¹⁾ les jésuites. فقد عرفتُ منهم اثنين أو ثلاثة من نوعك: يجيبون عن سؤالٍ بسؤالٍ. وعلى كل حال، أنا لا أتهربُ من الجواب، لقد اشتريت هذا المنزل لأنني كنتُ أرغب فيه. وتناولت رشفة من القهوة، ثم قالت:

- هل تعرف ما أعلنه مفكّرٌ صينيٌّ كبيرٌ بخصوص رغباتنا؟
لقد قال: «إنها كالأطفال: كلما أذعنا لهم، أصبحوا أكثرَ تطُّلباً». وقد أصبحتُ رغبتِي مستبَدَّةً.

رفع (تيوفان) حاجبيه، لأنه لم يكن يتخيّل هذه المرأة تستشهد بمفكرين صينيين، ولا حتى بمن دونهم.

كرّرتُ (بيبا) سؤالها لـ (تيوفان):

- والآن؟ لماذا أنت هنا؟

- لنفترض أنني أحب البحر.

انفجرت (بيبا) ضاحكة، وقالت:

- إنك لتستخف بي إذاً في هذا الموضوع، يا دكتور، فهل تتصوّر

أنني سأقتنع بهذا النوع التهريري من الجواب؟ أنت..

(81) اليسوعيون: أسست جماعة اليسوعيين سنة 1540، وهي أحد أهم مكُونات الكنيسة الكاثوليكية، والبابا الحالي (فرانسوا أو فرانسيس Francis) هو أول يسوعي يتولى منصب البابوية منذ تأسيس الجماعة. وهي تشكل أكثر الجماعات فعالية بعد جماعة (الفرنسيسكان)، وقبل جماعة (الدومينيكان). وعدد أتباعها 19.000 عضو عبر العالم. وهم معروفون بثقافتهم العالية بفضل تكوينهم الذي يمتد 15 سنة، يتلقون خلالها دروساً في (اللاهوت) و(الفلسفة) و(العلوم) وغيرها. ويتميزون بالطاعة المطلقة للبابا. وشعارهم (من أجل المجد الأعظم للرب). وهي لا تقبل النساء في صفوفها. والرئيس الأعلى للجماعة اليوم يدعى (أدولفو نيكولاس) Adolfo Nicolás. من أبرز مهام الجماعة اليسوعية تعليم الناشئة وأبناء النخبة في المجتمعات المختلفة، في المدارس، والمعاهد، والجامعات المنتشرة في أنحاء العالم، وهم يفاخرون بأن عدداً كبيراً من الوزراء والمسؤولين في العالم من خريجي مؤسساتهم هذه، ويذكرون أن الرئيس الأمريكي السابق (بل كلينتون) كان من خريجي الجامعة اليسوعية في جورجيتاون الأمريكية (المترجم).

ولم تكمل جملتها.. فقد دخل إلى الغرفة صبياً في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر. كان نحيفاً جداً، إلى حدّ الهزال تقريباً، شعره كستنائي فاتح ومتوسط الطول. ذهب نحو (بيبا)، وعانقها، والتفت من ثمّ إلى الطبيب، وقال:

- أَدْعَى (اليكسيس)، وأنت؟

- (تيوفان).

فتمتت الأم قائلة للصبي:

- (اليكسيس) اكم مرة قلتُ لك لا تخاطب الكبار بصيغة المفرد⁽⁸²⁾! إن المستر (دبّانه) طبيبٌ، وقد جاء للعناية بأختك.

.. آ..

ثم استعلمت الأم منه قائلة:

- ماذا بك؟ قالوا لي إنك غير سعيد.

- (طونيا)⁽⁸³⁾ Tonia ما تزال مريضة. وأجد هذا أمراً ظالماً.

دَهَشَ (تيوفان)، وقال:

- أمراً ظالماً؟

- بالتأكيد. فإن مرضها جعلها مثيرةً للاهتمام، بينما أنا

لم يحصل لي شيء أبداً. هل ستسكن.. ستسكنون⁽⁸⁴⁾ هنا؟ إننا نؤجّر غرفاً.

- هذا لطيف. ولكن عندي منزل.

- آ..؟ شيء مؤسف. إن الأمر عاجل. يجب أن يكون لدينا

زبائن على جناح السرعة. وإلا صرنا في ضائقة.

(82) أي بصيغة (tu) يعني (أنت) بدلاً من (vous) أي (أنتم) المعبرة عن الاحترام (الترجم).

(83) وهو اسم التحبّب أو الدلع لأخته (انطونيا) (الترجم).

(84) استدرك الصبي بقوله (ستسكنون)، الدال على صيغة الاحترام، على قوله (ستسكن)، تطبيقاً لتبنيه أمه إياه على ذلك (الترجم).

- (أليكسيس)!

- هذه هي الحقيقة أم لا يا أمي؟ فكثيراً ما كنت ترددين منذ أن غادرنا (أثينا) Athènes: «بشرط أن يكون هنالك زبائن، وإلا.. فوضعنا سيء».

كادت (بيبا فاسيلي) تختنق، فقالت:

- توقّف!

تدخّل (تيوفان) قائلاً:

- دعيه. عليّ أن أذهب.

وتناول حقيبتَه وأضاف قائلاً:

- سأطلب إلى مستوصف (شورا) Chora أن يبعث إليك

أحدهم لأخذ عَيْنَةَ دَمٍ من (أنطونيا)، وسأعود عندما أحصل على النتائج.

- تمام. بكم أدينُ لك؟

فأوقفها بحركةٍ تظاهر بها أنه يتناول حقيبتَه الموضوعة قرب الأريكة. وقال:

- فيما بعد.

- ولكن..

- لقد فسّرت لي شراءك لهذا المنزل، ذاكرةً رغبةً أصبحت

مستبدة. وأما تفسير رغبتِي، وتحصيل أتعابي، فلم يحن وقتها بعد.

(4)

أبدى الدكتور (لوكاس باباداكيس) رأيه بصوت واهنٍ كحفيظ
الريش، فقال:

- نعم، يا عزيزي (تيو)، إن لخلايانا ذاكرةً، وذكاءً فائقاً. فلا
تشكَّن في ذلك.

بقي (تيو) صامتاً، لأن الغرض الذي كان زميله قد تبناه لم
يفاجئه. فقد قرأ، خلال حياته، ما يكفي من المؤلفات بشأن هذه
المسألة أو الأطروحة غير المناسبة. لكن بعض الإثباتات تركته
حيران. تشبيه الخلايا بمنمنمات بشرية؟ إن تفسير الطبيعة
ذات الشكل غير البشري بتشابهها مع السلوك البشري يحمل
اسم «أنثروبومورفيزم» anthropomorphisme. وهذا
تدنيس للمقدسات في عيون كل عالم يحترم نفسه.

فتمتم وهو سارح الفكر قائلاً:

- ذاكرة وذكاء..

كان (باباداكيس) يغوص بمشقة في كنيته. ويلاحظ المرء
تماماً، في طريقة تحركه، أن الرجل، المقعد من داء المفاصل، يبدو
أنه يرفض بجسمه الحركات الأقل أهمية. وكم يمكن أن يكون
عمره؟ أكثر من سبعين عاماً بالتأكيد. وهو يشبه إلى حد ما،

بلحيته الصغيرة البيضاء، وشاربيه المعقوفين، نبيلاً إسبانياً هارياً من لوحة للمصوّر (فيلاسكويز)⁽⁸⁵⁾ V. Velásquez.
واستأنف اليوناني قائلًا:

- (تيو)، فكّر قليلاً. إن العضويات وحيدات الخلية كانت تمثل الأشكال الأولى للحياة على هذا الكوكب. وبعد سبعمئة وخمسين مليون سنة ظهرت بدورها العضويات متعددة الخلايا. هل تتابعني؟

- تماماً. لكنني لا أرى دوماً أين تضع الذكاء؟ فإن ما ذكرته آنفاً يسمّى بكل بساطة تطوّراً. (داروين)⁽⁸⁶⁾ Darwin مثلاً..
فأصدر الرجل العجوز ضحكة جشّاء هزت كل أعضائه، وقال:
- آ.. (داروين)! من الواضح.. (داروين). سنتحدّث عنه، ولكن دعني أتابع. لأي الأسباب تعتقد أن هذه الخلايا قرّرت ذات صباح جميل أن تتجمع في طوائف أكثر ترابطاً؟ قل لي يا صديقي.

(85) فيلاسكويز: هو (دييغو رودريغو - 1660 - 1599) (Diego Rodrigo)، واسمه الأخير بالإسبانية (Velázquez) وينطق (هيلانكيث)، وهو مصوّر القصر الملكي الإسباني زمن الملك فيليب الرابع، وبعد أحد أهم المصوّرين في العهد الذهبي لإسبانيا، اشتهر برسم لوحات (البورتريه)، واللوحه المراده هنا هي بورتريه لأحد النبلاء الإسبان المعاصرين للمصوّر، وأشهر لوحاته لوحة (الوصيفات) las Meninas. كان له تأثير في كثير من اعلام فن التصوير المشهورين بعده (المترجم).

(86) داروين: (تشارلز - Charles) عالم طبيعة إنكليزي (1809 - 1882)، وضع - بكتاباته الأساسية، وأهمها كتابه (أصل الأنواع) On the Origin of Species (وهو مترجم إلى العربية) - نظرية تطور الأنواع الحية على الأرض، عن طريق الاصطفاء الطبيعي، وتأثير البيئة، والأهمية الوظيفية للأعضاء (والأخيرة قال بها العالم الفرنسي (لامارك) (Lamarck (1829م)، وكان أول من فتح بها باب الحديث عن التطور). وقال بفكرة الصراع من أجل البقاء، وفكرة البقاء للأصلح أو الأقوى. غير أن هذه النظرية، جوبهت بالرفض من قبل أتباع الخلق الإلهي، وأيد موقفهم أنه لم يستطع أن يثبت وجود الحلقة المفقودة بين أكثر القرود تطوراً (الشامبانزي) والإنسان. وقد كان لهذه النظرية ارتدادات خطيرة على المجتمعات البشرية، أواخر القرن 19 إلى منتصف القرن 20، متمثلة في الحركات الاجتماعية والسياسية، ونظريات التمييز العنصري، وتضيق الرجل الأبيض، ومركزية أوروبا في قيادة العالم، وظهور الفلسفات المادية كالماركسية، وارتقاء موجة الإلحاد بين البشر، وبخاصة في الغرب (المترجم).

لم يُتَح الوقت لـ (تيوفان) كي يجيب، فقد تابع الرجل يقول:
- بكل بساطة لأنها دُفِعَتْ بأمر: هو البقاء على قيد الحياة.
البقاء على قيد الحياة، يا (تيو)، أرايت؟ حتى لا تزول، وقد
توزعت هذه الخلايا المهام بأكثر قدر من الدقة والفعالية كما
هو الأمر في الهيكل التنظيمي متعدد الجنسيات. فإذا لم تسمِّ
هذا المسلك ذكاءً، فأي اسم تُطلق عليه؟ إنه ذكاء، لكنه أيضاً قوة
ذاكرة. ذلك بأن الخلايا تمتلك ذاكرةً وذكاءً.

حاول (لوكاس باباداكييس) أن يتخذ وضعاً أكثر راحة، فجعله
ذلك عابس الوجه. قال:

- أنا لم اخترع شيئاً. فمنذ سنوات كان (بروس ليبتون)⁽⁸⁷⁾
Bruce Lipton، المتخصص بعلم الحياة الخلوي، يدافع عن
تفوق الروح على الجسد. وأنا لم أفعل شيئاً سوى نقل عباراته.
وبطبيعة الحال، كانت صرخةً في وادٍ.

- لو عدنا إلى سبب حضوري إلى هنا، وهو سقوطي عن
الحصان. ففي رأيك أنني فقدت وعيي، وليس هنالك شيء
عضوي.

- أولم أفحصك؟ واستبعدنا جميع العوامل الفيزيولوجية؟
ولم نجد شيئاً. وبعد الذي رغبت في أن تفضي به إليّ عن
ماضيك، تفاجأت بأن أراك شديد التشكك. وهذه الكدمات
الفضيعة؟ وهذه الجراح الفاغرة في روحك؟ كيف يمكنك أن

(87) بروس ليبتون: عالم حيوي تطوري أمريكي (ولد في نيويورك سنة 1944)، له نظريات
تقول إن إيمان المرء يمكن أن يتحكم بمكر ودهاء في المورثات (الجينات) genes والحمض
النووي DNA. ويرى أن الخلايا تتلقى المعلومات وتعالجها. له أربعة كتب رائجة منها:
(بيولوجية الإيمان) the Biology of Belief (سنة 2005) و(التطور العقوي) Spontaneous
Evolution (سنة 2009)، وهي مذكورة على موقعه الإلكتروني (bruce-lipton.com)
(المترجم).

تتصور أن خلاياك يمكن أن تنساها؟ إن النزهة على الحصان، ذلك الصباح، تذكرها بنزهة أخرى، صادمة تلك أنفاً. وأنت تظن بسذاجة أنك نجحت في محوها، إن خلاياك لا تنسى شيئاً. وقد تفاعلت وتصرفت. وبشكل مذهل.

ردّ (تيوفان) قائلاً:

- (لوكاس)، تقبل رغم ذلك أننا أمام نظرية محضة. أمام فرضية.

- حسناً جداً. إذن، لنصبح علماء. هل ترغب حقاً في أن تتقبل أن تكون خلية مفردة قادرة على أن تتعلم من تجربتها؟
- أنا..

- لناخذ مثلاً ملموساً: عندما يصيب فيروس الحصبة طفلاً، ما الذي يجري؟ تقوم خلية مناعية بالتدخل، وتكون جسماً مضاداً بروتينياً ضد هذا الفيروس. موافق؟
- موافق.

- وأثناء هذه العملية، تكون الخلية جيناً (مورثاً) جديداً، يُستخدم لتصنيع بروتين للجسم المضاد الخاص بالحصبة. موافق أيضاً؟
يوافق (تيوفان).

- وفي هذا الطور تصبح الظاهرة مذهلة. وجمع قطع الـ (ADN)⁽⁸⁸⁾ وتركيبها بطريقة احتمالية، فإن هذه الخلايا تنتج مجموعة كبيرة من الجينات (المورثات) المختلفة، وكل منها يقدم

(88) وهو اختصار للكلمات (l'Acide DésoxyribNucléique) بمعنى (الحمض النووي الريبوزي المنقوص الأوكسيجين)، وهو بالإنكليزية الـ (دي. إن. إي) (DNA)، ويحتوي على التعليمات الجينية (الوراثية) التي تصف التطور البيولوجي للكائنات الحية (إنساناً، وحيواناً، ونباتاً)، كما يحتوي على التعليمات الوراثية اللازمة لتكوين أعضاء هذه الكائنات (المترجم).

الرجل الذي كان ينظر إلى الليل

بروتيناً لجسم مضاد بشكل متفرّد. وعندما تولّد خليةً بروتيناً لجسم مضاد هو الأقرب إلى فيروس الحصبة، فإن هذه الخلية تنشط حينئذٍ. وبعد ذلك، وفي الوقت المناسب لعملية معقدة لا تنتهي، تقوم هذه الخلايا النشطة بتصنيع مئات من النسخ من جين (مورث) الجسم المضاد الأصلي. وهي ستنتقي النسخة المختلفة التي ستزود الجسم المضاد الأكثر فعالية. ومن هذه اللحظة، عندما ينشأ الجسم المضاد هكذا، فإنه سيحاصر الفيروس، ويبطل فعاليته، ويدمره، حامياً بذلك الطفل من أضرار الحصبة.

كلّما همّ (تيوفان) بالتدخّل، كان (باباداكيس) يوقفه بإشارة من يده، قائلاً:

- الصبر، يا صديقي، لقد انتهيتُ تقريباً. وفي نهاية هذه العملية تتحقّق المعجزة. وخلايانا لن تصنّع فقط أسلحة ضد الغازي، ولكنها ستحتفظ ب(ذاكرة) هذا الجسم المضاد، وتكون مستعدةً لشنّ الهجوم مباشرة، إذا تعرّض الشخص نفسه ثانية، ذات يوم، للفيروس نفسه. فالخلية لم «تتعلّم» فقط، وإنما كوّنت ذاكرةً تنتقل لذريتها.

ثم عقد الطبيب العجوز ذراعيه بطريقة ساخرة، وقال:

- إذا؟ خلاياي ليست ذكية؟ ولا تنعم بذاكرة؟

- والنتيجة..

- النتيجة، إن أفكارك تعمل كمُنقّيات (فلاتر) على جهاز تصوير. فغيّر مُنقّياتك، أعني طريقتك في رؤية العالم، وسيتكيف جسّدك مع إحساسك الجديد.

مال (باباداكيس) إلى الأمام قليلاً وأصبح صوته أكثر جدية،

قال:

- أنت مريضٌ، يا (تيو). مريضٌ بشكلٍ خطير. إنك تحمل نجومًا ميتة، وتنسى أن تنظر إلى السماء، لأنك مقتنع بأنها غير موجودة. فغيرُ مُنْقِيَاتِكَ. غيرُها بسرعة. وكُفَّ عن أن تُرشد الليلَ إلى خلاياك، وإلا فإنه سينتهي بها الأمر يوماً ما إلى أن تَحْمَد. أعطها شيئاً من الشمس، وهي تعرف كيف ستردُّ لك ذلك.

خطَّ اليوناني بعض الكلمات على ورقةٍ وقدمها لصديقه،
قائلاً له:

- ستقرأ هذه الجملة كل مساء. وطبعاً، لا شيء يُلزمك بذلك.
دَسْ (تيوفان) الورقة في الجيب الداخلي لسترتِه الكَتَانِيَّة.
وقال:

- سؤال: لقد شعرت أنك مرتابٌ بشأن (داروين)، فلماذا؟
- لأنه، في رأيي، لا يمكن أن يُعدَّ مؤسسَ نظرية التطور. فقبله بخمسين سنة، أثبت عالم فرنسي، يدعى (لامارك)⁽⁸⁹⁾ Lamarck، أن الإنسان قد تطوَّر بدءاً من شكل بدائي من الحياة. فلم يُتَّهَم فقط بالهرطقة، بل سخر به زملاؤه من العلماء.
إنهم خَلَقِيُون⁽⁹⁰⁾ créationnistes أغبياء كما هو شأن الخَلْقِيَيْن جميعاً. إذا (دارون)..
انخرط (تيوفان) في الضحك، وقال:

(89) لامارك: (جان - باتيست دو - Jean - Baptiste de) عالم طبيعة فرنسي (1744 - 1829)، أسس النظرية الأولى لتطور الكائنات الحية (المترجم).

(90) يريد بالخلقين، هنا، اتباع نظرية الخلق الإلهي créationnisme، التي قالت بها الشرائع السماوية (الإبراهيمية) الثلاث، وقد وقفوا من نظرية التطور الطبيعي موقفاً معادياً، نظراً لعجزها عن إثبات وجود الحلقة المفقودة بين (الشامبانزي) و(الإنسان)، ولأن المورثات في الكائنات الحية ثابتة عبر الأجيال، وأن كل كائن يظل تطوره حبيس نوعه (المترجم).

- حقاً، يا (لوكاس)، أشكر السماء لأنك لم تؤد في زمن (محاكم التفتيش)⁽⁹¹⁾ l'Inquisition. وإلا لكنت قد تعرضت للهلاك.

ومشى نحو الباب. فقال (باباداكيس):

- اسمع آخر نكتة! في بداية القرن العشرين، سافر قسيس عالم -جناس، وهو (موريس لينهارت)⁽⁹²⁾ Maurice Leenhardt، إلى (كاليدونيا الجديدة)⁽⁹³⁾ la Nouvelle Calédonie، ليلقي موعظة على شعب (كاناك)⁽⁹⁴⁾ Kanak فيها، وذات يوم كان يتباحث مع زعيم القبيلة، فسأله: ما الجديد الذي جلبناه، نحن الأوروبيين، بهذا الشعب وكان الأكثر أصالة؟ هل تعلم ماذا أجابه الزعيم؟ قال له: «لقد جلبتم لنا الجسد». نهارك سعيد، يا (تيو)!

* * *

(91) محاكم التفتيش: هي محاكم كنسية استثنائية سادت في أوروبا الخاضعة لسلطة بابا الفاتيكان، من القرن 13 إلى القرن 16، ونشرت جواً من الإرهاب والكمب لحرية الاعتقاد والتفكير والتعبير والتطور العلمي، وكان هدفها محاربة (الهرطقة)، وملاحقة من لا يحترمون العقيدة، ومقاومة المذاهب المنشقة عن الكاثوليكية، وكان هدفها في إسبانيا في القرنين 15 و16، ملاحقة المسلمين واليهود، وطردهم من البلاد، أو إكراههم على التنصر، وتتبع صحة تنصرهم بعد ذلك، وتعرض بعض العلماء لأحكامها، من أمثال (كوبرنيكوس) (1473 - 1543) الذي نقض فكرة مركزية الأرض في الكون le géocentrisme، وقال بمركزية الشمس ودوران الأرض وبقيّة الكواكب حولها le héliocentrisme، فحكم عليه بالإعدام؛ وكانت أحكام هذه المحاكم تتدرج من العذاب البسيط، إلى مصادرة الأموال والممتلكات، وانتهاء بالإعدام بطرق رهيبة، منها (الخازوق) الذي أشار إليه (تيوفان) آنفاً (المترجم).

(92) موريس لينهارت: قسيس وعالم إثنولوجي فرنسي (1878 - 1954)، متخصص بدراسة شعب (الكاناك) في جزيرة (كاليدونيا - الجديدة)، وقد حال عند ذهابه إليها، سنة 1902، دون استمرار التطهير العرقي البطيء لهذا الشعب، وترجم بمساعدة تلاميذه الأوائل هناك (المعهد الجديد) إلى لغتهم. عاد إلى فرنسا سنة 1927، وأسس (جمعية المحيطيين). ثم عاد إلى الجزيرة لمدة عشر سنوات، ورجع إلى فرنسا ليدرس، سنة 1944، لغات الجزر المحيطية في (المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية) l'Institut National des Langues et Civilisations Orientales (المترجم).

(93) كاليدونيا الجديدة: جزيرة في المحيط الهادي، تقع شرقي قارة أستراليا، وهي مستعمرة قديمة لفرنسا، ولا تزال تابعة لها، وعاصمتها (نوميا) Nouméa (المترجم).

(94) الكاناك Canaques أو les Kanaks: هم شعب الجزيرة المذكورة.

كانت الحركة الثانية من (كونشرتو أرانجويس) تصحب انبلاج الفجر.

الساعة الآن الخامسة صباحاً. ولم يغمض لـ (تيوفان) جفن. أغلق ديوان قصائد (كفافيس)، وهو (كونستانتينو بيترو كفافيس)⁽⁹⁵⁾ Konstantinos Petrou Kavafis. أحد يونانيي (مصر)، وقد ترعرع على زبد شواطئ (الإسكندرية): يوناني؟ مصري؟ فهل هو عضو في جمعية المصابين بالفصام؟ لقد حفظ (تيوفان)، أثناء إقامته الأخيرة في (الإسكندرية)، شيئاً من أشعاره. إن هذه المدينة، التي لا نظير لها في التراث الإنساني والثقافي، كانت تحتضرُ تحت التراب الأسود، الذي تغذيه الأشباح والصورُ المصفرة. كما كانت الحقائقُ تذوي من الحسرات. والصدأ ينخر العمارات ذات الطراز (الهوسماني)⁽⁹⁶⁾

(95) كفافيس: شاعر يوناني، لأبوين يونانيين مولودين في إسطنبول، وقدموا إلى الإسكندرية في مصر، فولد فيها سنة 1863، وتوفي سنة 1933. عمل صحافياً وفي الوظائف العامة بمصر، كتب نحو 154 قصيدة، كان أهمها تلك التي كتبها بعد الأربعين، وقد كان ينشرها في الصحف والمجلات، وجمعت ونشرت سنة 1935 بعد وفاته، وكان كثير منها ناقصاً لم يتم. عاش بعض الفترات في لندن، وباريس، وإسطنبول، وزار اليونان. وكان يعرف الإنكليزية والفرنسية، وبعض الإيطالية. ترجمت بعض قصائده إلى لغات أخرى، غير أنها ترجمت جميعاً إلى الإنكليزية ونشرت ضمن منشورات جامعة برنستون في الولايات المتحدة سنة 1992. أخرج (يانيس سماراغديس (Yannis Smaragdis) فيلماً عنه باسمه الذي عرف به في الإنكليزية (Kavafy). حوّل بيته في الإسكندرية إلى متحف خاص به. تُدرّس أشعاره في مدارس اليونان وقبرص وبعض الجامعات في العالم (المترجم).

(96) طراز العمارة الهوسماني: ساد في ظل الإمبراطورية الثانية حين تولاهما (نابليون الثالث) (1852 - 1870)، وكان القصد منه إعادة تصميم العاصمة (باريس) وتحديثها لتليق بإمبراطوريته، وهو منسوب إلى البارون (جورج هوسمان) (1809 - 1891) Georges Haussmann سنة 1870، لأنه كان وراء المشروع برمته، وقد نقل هذا الطراز إلى الإسكندرية زمن الخديوي إسماعيل الذي كان شديد الولع بالحدائث والفخامة الغربية، وبخاصة الفرنسية، كما نقله الفرنسيون إلى بعض مدن مستعمراتهم، كمدينة الجزائر في الفترة نفسها تقريباً. وهذا الطراز المعماري يلاحظه كل زائر لباريس اليوم، والفرنسيون يحافظون عليه داخل محيط العاصمة المقسمة إلى 20 قطاعاً (المترجم).

hausmanniens، من الزمن الغابر. و(التراموي) le tramway ما يزال يسير، ولكن عرباته مخلّعة. وأقضرتُ ساحة (محمد علي) من عربات الخيل (الحناطير)، وفي (الرملة) تبعثر الشاطئ الرياضي على الرمل. وتقوَّض (أوتيل كارلتون) Carlton Hôtel، في (ستانلي بك) Stanley Bay، على أساساته. ولم تعد ساحة القناصل تشبه أكثر من ستارة تتلاعب بها الرياح.

انتهى ذلك.. وساد الصمت

أنت مريضٌ، يا (تيو). مريضٌ بشكلٍ خطير. إنك تحمل نجوماً ميتة، وتنسى أن تنظر إلى السماء، لأنك مقتنع بأنها غير موجودة.

ما الذي كان العجوز (باباداكيس) يعرفه عن نجوم (تيوفان)؟ وبعد الذي رغبتُ في أن تفضي به إليّ عن ماضيك.. نعم، يا عزيزي (لوكاس)، «الذي رغبتُ في أن أفضي به إليك». وأما البقية؟ الجزء الغاطس؟ إنني لم أظهر سوى وجه الوسام، يا صديقي. ولم أظهر قفاه.

كان لقاء (تيوفان) بـ (لوكاس) يعود إلى شهر كانون الأول/ديسمبر من سنة 1983، بعد بضعة أسابيع من وصول (تيوفان) إلى الجزيرة. ففي ذات مساء، كان (تيوفان) يتعشى في شُرْفَة (كارافيتيس) Karavitis، وهو المطعم والمقهى الوحيد المطلّ على الميناء. لم يكن هنالك سُوحاح. ولم تكن الكائنات البحرية تقترب من الجزيرة إلا مع قدوم الربيع. وكان في المطعم ثلاثة زبائن: زوجان في أقصى الصالة.. و(لوكاس باباداكيس) قرب (تيوفان). كان الرجل يطالع،

ويتوقف لتناول لقمة. وعندما التقت نظراتهما، رسم اليوناني ابتسامة خفيفة من باب المجاملة. إنه تواطؤ بين منفردين. وعندما قُدِّم طبق الحلو إلى (باباداكيس)، وضع كتابه والتفت نحو (تيوفان)، وسأله:

- يبدو لي أنك فرنسي؟

ومن غير أن يتيح له أن يجيب، تابع يقول:

- إنني أحب بلدكم، فقد درست فيه الطب. ولكنني لا أمارسه منذ بعض الوقت.

ردُّ عليه (تيوفان) قائلاً:

- يا للمصادفة! أنا أيضاً طبيب.

- حقاً؟ إنها فعلاً مصادفة. هل تسمح لي بالانضمام إلى

طاولتك؟

كان بإمكان الأحاديث الجذابة بينهما أن تتوالى حتى مطلع الفجر، لولا تدخل صاحب المطعم بتنبيههما على وجوب إغلاقه.

اقترح (باباداكيس) على (تيوفان) قائلاً:

- تعال إذا نشرب كأساً أخيرة في بيتي، إلا إذا كنت ترغب في النوم. أما ما يخصني فأنا أرق. ومنذ بعض الوقت، لا أرى في ملاءات السرير سوى أكفان المستقبل.

لم يمتعض (تيوفان) من هذه الاستعارة. واتخذها لنفسه. قبل إذن الدعوة. وهكذا نشأت صداقتهما وافرة الحيوية ومفعمة بالرزانة.

كان (باباداكيس) ينحدر من تلك الأسر اليونانية العريقة التي كان عدم التكلم فيها بالفرنسية يدل على سوء التربية. وبعد مواظبة مثالية على الدراسة في (ثانوية ليونان) lycée

Léonin الأسطورية في (أثينا)، بإدارة (الإخوة المريميين)⁽⁹⁷⁾ maristesfrèresles، ثم سافر لدراسة الطب في (باريس)، واختار التخصص بـ (طب الجهاز العصبي) la neurologie. واكتشف (باباداكيس) مؤخراً من عمره، عند التقاعد la retraite - وكانت هذه الكلمة توحى إلى (تيوفان) دوماً بانسحاب روسيا⁽⁹⁸⁾ Russiela retraite de - ميله الحقيقي إلى (علم الوراثة الطبي) la génétique médicale. ومنذ نحو عشر سنوات، لجأ إلى جزيرة (باتموس)، ووقف أكثر أوقاته على دراسة الوراثة عند الأفراد والأسباب الوراثية للأمراض. وأما حياته الأسرية، فلم يعلم (تيفان) عنها كبير شيء، سوى أنه كان أرملاً، وأن ابنه الوحيد، الذي كان طبيباً أيضاً، يعيش في (شيكاغو) Chicago، وهو متزوج من أمريكية.

إن عدم الإنسانية القاسي والمتزايد، واللامعقول الذي يسيطر على العصر، والأعمال غير اللائقة لمساعينا، والموت، والإله، والآلهة الأخرى، وكل موضوع من المواضيع التي تؤرق العقل البشري، لم يُستبعد من النقاش تلك الليلة. ولما كانت بين الرجلين مشاركة صامتة، وهي القادرة وحدها أن تبدع وأن

(97) الإخوة المريميون: نظام ديني علماني أهلي laïque كاثوليكي، أسسه في فرنسا سنة 1817 الراهب الفرنسي (مارسلان شامبانيا) (م1840) Marcellin Champagnat. وتختص أعضاء هذه الجماعة بالتربية النصرانية للفتيان، وبخاصة الفقراء والذين يعيشون في الأرياف، ولهم نشاط تعليمي في عدد من البلدان (المترجم).

(98) كانت كلمة (retraite) هذه في المجال الوظيفي تعني (التقاعد)، وفي المصطلح العسكري تعني (الانسحاب)، وكان التقاعد نوع من الانسحاب من الحياة أو العمل. والمقصود بالانسحاب من روسيا هنا هو انكفاء الجيش النابليوني من موسكو إلى فرنسا شتاء سنة 1812، وبعض المؤرخين يخفف من وطأة الكلمة فيسميه (عودة) retour، نظراً لأنه تم طوعاً من غير قتال، لكن آخرين يرون أن الجنرال (شتاء) هو الذي هزم هذا الجيش العظيم ببرده الشديد وتلوجه وما أصاب الجنود من أمراضه، حتى فقد ثلث عدده (المترجم).

تَنْشُط، فقد شَجَعْتُهُمَا، فَظَلَّا يَتَنَاقِشَانِ إِلَى أَنْ لَامَسَ الْفَجْرَ
أَنْحَاءَ الْجَزِيرَةِ.

وفي ذلك الوقت، قال (باباداكيس) فجأة:

- أنت تعلم، بالتأكيد، أن (القديس يوحنا)
الرسول⁽⁹⁹⁾ l'apôtre saint Jean لجأ إلى هنا، إلى جزيرة
(باتموس)⁽¹⁰⁰⁾ لتَلْقَى (رؤياه)⁽¹⁰¹⁾ Apocalipse.

- إن كنتُ أجهل ذلك، فإن كل زاوية في أي شارع هنا تذكُرني
به. لقد كان نعمةً غير منتظرة لسكان الجزيرة. وكذلك هذه
الآلاف من الحجاج الذين يأتون كل عام لزيارة المغارة التي تَلْقَى
فيها وحيه. وهذا ما ينشُط التجارة فيها، أليس كذلك؟

(99) يوحنا الرسول: أحد حواربي المسيح عليه السلام الاثني عشر (3 - 101م)، كان صيادا
على شواطئ بحيرة (طبريا) Tiberiade، إنجيله المعروف باسمه رابع أربعة أناجيل مع: إنجيل
مرقص، وإنجيل متى، وإنجيل لوقا. أوصاه المسيح - حسب العقيدة النصرانية - بالحنانية بأمه
مريم العذراء عليها السلام في القدس، فضيَّفها في بيته إلى أن اضطر إلى المغادرة هرباً من
ملاحقة الرومان إياه، قاصداً روما، غير أن الإمبراطور الروماني (دوميتيان) Domitien عذبه،
ثم نفاه إلى جزيرة (باتموس)، وتوفي في زمن الإمبراطور (تراجان) Trajan سنة 101م، عن 98
سنة، في مدينة (إيفيز) Éphèse بآسيا الصغرى. ويعرف بصفات مثل (يوحنا الرسول) و(يوحنا
الإنجيلي) و(يوحنا اللاهوتي) تمييزاً له من (يوحنا المعمدان) Jean le Baptiste الذي يدعى
عند المسلمين (النبى يحيى). وضريحه في وسط الجامع الأموي بدمشق. و(يوحنا الرسول)
إلى جانب (الإنجيل) و(الرؤيا) ثلاث رسائل. وتروى عنه مجموعة كبيرة من المعجزات. تأخى بعد
المسيح مع (جاك الكبير) من الحواريين. وقارئ (إنجيل يوحنا) و(ورؤياه) يجد بينهما وجوه شبه
كثيرة في المفردات والمواضيع (المترجم).

(100) ذكرها (يوحنا الرسول) في مطلع (رؤياه): الإصحاح الأول، الفقرة 9 بقوله: (أنا يوحنا
أخوكم وشريككم في الضيقة وفي ملكوت يسوع المسيح وصبره، كتبتُ في الجزيرة التي تدعى
«بطمس» من أجل كلمة الله ومن أجل شهادة يسوع المسيح). وهي جزيرة جبلية خصبة وممرعة
كثيرة الغيرات، تقع جغرافياً في شرقي (بحر إيجه) ضمن الجزر التابعة اليوم لليونان، وعلى
بعد نحو ثمانين كيلومتراً غربي الساحل التركي (المترجم).

(101) حسب معتقداتهم تلقى (يوحنا الرسول) (رؤياه) l'apocalipse هذه من المسيح عليه
السلام، في جزيرة (باتموس)، على شكل صعود إلى السماء والاطلاع على عوالمها وعلى مستقبل
الأرض وأهلها، وفيها ذكرٌ لما هو كائن وما سيكون إلى عودة المسيح عليه السلام إلى الأرض، وهو
نصٌ ذو غنى روحي كبير (المترجم).

هزّ (لوكاس) كتفه، وقال:

- وهل تؤمن أنت بهذه (الرؤيا)؟

- بأي معنى؟ بمعنى نهاية العالم؟ من الواضح أن هذه

النهاية ستقع فجأة، وهذا أمر مفيد.

قطّب اليوناني جبينه، وقال:

- أمرٌ مفيدٌ.. قلتُ؟

- قطعاً.. فالوحشية الإنسانية لا تستأهل هذا الكوكب. أما

بالمعنى الديني فلا.

- ومع ذلك، كنت قد قلتُ لي إنك قد عُمِدتَ يونانياً

كاثوليكياً. والنصراني المحترم يؤمن حتماً بهذه الأشياء، ليس

كذلك؟ بالحمل بلا دنس، وقيامه المسيح عليه السلام، والروح

القدس، والمعجزات..

- وفي هذه الحالة، ينبغي علي ألا أكون محترماً جداً.

وأخاطرُ هنا بجعلك تبتسم، فأقول لك: إن من يقف أمامك

نصيراً متشدداً لتعدّد الآلهة، ووفياً لرؤية أجدادك⁽¹⁰²⁾.

أولئك اليونانيون وجدوا، بحكمتهم غير المحدودة، العلاج

(102) يريد أن اليونانيين القدماء كانت لديهم آلهة متعددة كثيرة، وكانوا يخصون كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة والمجتمع والفن بإله يشرف عليها، وكان إيمانهم بها إيماناً حقيقياً، أما نحن اليوم فننظر إليها على أنها أساطير وخرافات من اختراع البشر ليستطيعوا تفسير ما حولهم، وكان لديهم نوعان من الآلهة: الآلهة الرئيسية والآلهة الفرعية، وكان لديهم آلهة ذكور وآلهة إناث، وكان التخصص سمة بارزة لكل إله: فمثلاً كان (زيوس) كبير الآلهة جميعاً ومسؤولاً عن تحقيق العدالة بين الآلهة والبشر، وبيته على قمة جبل (أوليمب) (ارتفاعه عن سطح البحر 2911م) Olympe، وفي الوقت نفسه كان إله الرعد والبرق والصواعق، و(أبولون) إله الفنون (بما فيها الشعر والموسيقى)، و(أرتميس) إله الصيد، و(أثينا) إلهة الحق، و(أفروديت) إلهة الحب والجمال، و(بوسيدون) إله البحار، و(هيرا) إلهة الزواج، و(هرمس) إله السفر والتجارة، إلخ (المترجم).

المثالي لهذه الآفة التي تنخر في حضاراتنا: أعني النزاعات الدينية⁽¹⁰³⁾.

هز (باباداكيس) رأسه بهيئة الموافق، وقال:

- أنا أدرك إلى ما تلمح، إنه العبد المجهول.. فكرة جميلة.
وعندما يحتج غريب على أنه لا يجد مكاناً يتعلق بديانته، يُشار له فوراً إلى صرح محدد. نعم، إنها فكرة جيدة.

- وأنت نفسك.. أين أنت من شؤون الإيمان هذه؟

- إنه، يا عزيزي، في الأمل، إيماني فقط هو الأمل.

ثم أضاف بنظرة ثاقبة إلى (تيوفان):

- وهذا ما ينقصك، يا صديقي.

- ومن أين لك هذا اليقين؟

- من كل ما ينبعث من كيائك. فأنت تحمل أعباءً أثقل بكثير مما يمكن لأي إنسان أن يتحمّله. وهذا أمر واضح.

بحث (تيوفان)، وهو مرتبك، عن جواب، فلم يحضره: هل يغير الموضوع؟ هل ينفي؟ ما من فائدة. إن (باباداكيس) ينتمي إلى نوع من الكائنات التي لا تُخدع. وعندها سيستسلم. وسيفعل ذلك حتى بسهولة مذهلة. وعندما يعود إلى بيته يكون الوقت في وضح النهار. فعلاً إن بعض ردود فعل الذهن تبدو غير منتظرة، وتؤدي بك إلى أن تبوح لغريب بما لا تبوح به لأولئك الذين هم من لحملك.

(103) العقائد لا حصر لها اليوم، وهي داخلة في صميم عقلية المعتد بها، ومن الصعب انتزاعها، حتى لو رآها غيره خرافية أو باطلة أو غير منسجمة مع المنطق أو العقل، وهي المحصلة لا فائدة من الحروب القائمة عليها سوى الدمار والخسارة وإراقة الدماء الإنسانية بلا طائل، فليكن الناس جميعاً متعاونين على حياتهم في هذا الكوكب بعدل ومساواة وبلا تمييز بينهم، والموكل بالحساب في نهاية المطاف رب الأنام (المترجم).

أغلق (تيوفان) عينيه، تاركاً ملامح (أنطونيا) الشفافة تأتي إليه: إنها شابةٌ شاخت قبل الأوان، حطمتها الأيام: فهل مسيرة الناس محكومٌ عليها دوماً بالمصائب؟ أجسامٌ متوجّعة، ملقاةٌ على دروب بعيدة الاحتمال، مترنحة، معدّبة، مخدوعة، مستعبدة، وزيادةٌ عددٍ، إلى أن يُودعَ عامل الليل، في صندوق بريدهم، ذات يوم، (إعلان الرحيل). وها هم الذين لم يطلبوا شيئاً، مُصْطَفَوْنَ على رصيف المحطة بانتظار آخر قطار لا يتأخر، ويأتي دوماً مبكراً جداً. وكانت (أنطونيا) مسجّلةً في لائحة المصائر المحطّمة.

بِتَفْجُرِ بِأَذِخٍ يَبْلُغُ اللَّحْنَ البطيء ذروته، وقمةً الجمال، ولا يلبث حتى يقع تحت أنغام عازف الغيتار (جون وليامز)⁽¹⁰⁴⁾ John Williams. لقد كان (تيوفان) محظوظاً لتعرفه عليه في (لندن) لما كان هذا الموسيقي في بداياته. لقد كان هو يدي المعجزة لا (تيوفان دبانه). كان (تيوفان دبانه) هفوة. كان لا ينبغي لـ (تيوفان دبانه) أن يُولد. لقد كان هنالك خطأ في التوزيع. فكان الجراح الأكثر تألقاً في العالم، والطالب الأكثر بريقاً، والاختصاصي الأكثر لمعاناً في أمراض القلب، والأكثر.. لا شيء. إنه هباءة. فكيف تمكّن من العيش كل هذه السنين في خضمّ هذا العمى؟ النفوذ؟ والمجد؟ والثروة؟ والنساء؟ اللواتي

(104) جون وليامز: ولد في (ملبورن) Melbourne في أستراليا سنة 1941، لأب إنكليزي، عاد إلى لندن ليؤسس مدرسة لتعليم الغيتار، فتلقف الابن العزف على هذه الآلة، وأجاد العزف عليها وهو في الحادية عشرة من عمره، وكان يقيم حفلات، ودرّس الموسيقى في المعهد الملكي للموسيقى، وسجل بعض الألبومات مع عازفين آخرين للغيتار، ثم راح يعزف في الإذاعة والتلفزة منفرداً، وكان مبدعاً في مجال العزف الكلاسي على الغيتار، وصار يعلم العزف عليه أيضاً (المترجم).

عُزِينَ عَلَى طَرِيقَةِ الْفَرَسَانِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُبَدِينَ أَي مَقَاوِمَةً،
وَلَا حَتَّى مِنْ أَجْلِ الْحِفَاظِ عَلَى الْإِلْيَاقَةِ. لَمْ يَفْهَمِ الْمَبَادِئَ الْأَوَّلِيَّةَ
إِلَّا مُؤَخَّرًا فَقَطْ عِنْدَمَا تَفْتَحَتْ عَيْنَاهُ بَعْدَ الْفَاجِعَةِ.

نَعَمْ، يَا بُنَيَّ، الْمَرْءُ لَا يَغْزُو أَحَدًا، وَلَا يَخْلَعُ عَلَى أَحَدٍ بَابًا، وَلَكِنَّ
الْآخِرِينَ هُمْ الَّذِينَ يُوَارِيُونَ أَبْوَابَهُمْ لَكَ أحيانًا بِلَطْفِهِمْ لَتَدْخُلَ
عَلَيْهِمْ.

غَادَرَ (تِيوفَان) أَرِيكَتَهُ، وَذَهَبَ إِلَى غُرْفَةِ (تِيَمُور). كَانَ الصَّبِيُّ
يَنَامُ بَعْمَقٍ، وَكَانَ تَنْفُسُهُ هَادِنًا وَسَاكِنًا. كَانَ هُنَالِكَ شِعَاعٌ مِنْ نُورٍ
يَدَاعِبُ جَبِينَهُ.

كَانَ (تِيَمُور) قَدْ أَكَّدَ لِأَبِيهِ قَوْلَهُ: «لَقَدْ اشْتَقْتُ إِلَى أُمِّي».
فَرَدَّ عَلَيْهِ (تِيوفَان) بِقَوْلِهِ: «لَقَدْ اشْتَقْتُ أَنَا إِلَيْهَا كَذَلِكَ!».
إِنَّهَا كَذِبَةٌ. لِأَنَّهُ عِنْدَمَا صَكَ الْبَابَ خَلْفَ زَوْجَتِهِ، كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ
لَنْ يُعِيدَهَا أَبَدًا، وَأَنَّ قَلْبَهُ قَدْ تَحَوَّلَ رَمَادًا. فَأَضْيَفَ إِلَى يَاسِ
الْقَطِيعَةِ، فِيمَا بَعْدَ، شَعُورًا لَا يُطَاقُ بِالذَّنْبِ. مِنَ الْمَوْكُودِ أَنَّهُ كَانَ
مَذْنِبًا. أَمَّا ادِّعَاءَاتُ (الظُرُوفِ الْمَخْفُفَةِ) الَّتِي تَعَلَّلَ بِهَا أَمَامَ
(تِيَمُور) فَكَانَتْ تَبْدُو مَثِيرَةً لِلرِّثَاءِ.

وَمَهْمَا كَانَ مَذْنِبًا، فَإِنَّهُ كَانَ يَشْعُرُ بِالشَّفَقَةِ إِزَاءَ نَفْسِهِ. كَمَا
أَنَّ الزَّمَانَ عَمِلَ عَمَلَهُ فِي التَّقْوِيضِ. وَالتَّامَ الْجَرْحَ بِالتَّدْرِيجِ. وَلَمْ
يَبْقَ مِنْهُ الْيَوْمَ إِلَّا أَثَرُهُ. وَهُوَ خَطٌّ جَمِيلٌ مَتَعَرِّجٌ يَخْتَرِقُ ذَاكِرَتَهُ
مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ. وَلَمْ يَعُدْ يَشْتَاقُ إِلَى زَوْجَتِهِ.

دَاعَبَ (تِيوفَان) جَبِينَ ابْنِهِ بِلَطْفٍ، وَدَسَّ يَدَيْهِ فِي خُصْلِ الشَّعْرِ
الْمَشْبُوكَةِ، وَانْسَحَبَ كَلِصًّا حَتَّى لَا يَرَى الصَّبِيَّ دُمُوعَهُ.

(5)

قال (اليكسيس):

- أنا لا أفهمك. لماذا أنت قاسية جداً دوماً إزاء هذا الطبيب؟
فأنا أجده لطيفاً جداً.

زحفت (أنطونيا)، وهي مستندة إلى عكازيها، وارتمت على
أقرب كرسي، وأمرت وهي تشير إلى الستارة:

- افتحها كلية، إنني أختنق.

أذعن الطفل مكرهاً، وقال:

- والآن؟ لماذا؟

- لا أدري عن أي شيء تتكلم.

ثم صاحت:

- (ديسبينا)!

- إنها تحضر غرفة (الباشا). ألا تعلمين أنه سيصل في

الساعة السادسة مساءً.

- أحضر لي عصير ليمون. فأنا عطشى.

- أحضر! افتح! أعط! إنك متأخرة حقيقية. ألا يمكنك أن

تقولي «من فضلك»؟

- إن كان هذا هو الثمن فـ «من فضلك».

ثم أَلَقْتُ نَظْرَةً مَشْمُزَّةً عَلَى سَاقِهَا الْيَسْرَى وَعَلَى هَذَا الْحِذَاءِ الضَّخْمِ الَّذِي أُدْخِلْتُ فِيهِ لَتَقْوِيمِ الْعِظْمِ. إِنَّهُ لِأَمْرٍ مَقْرَفٍ..
 كَانَ سَطْحُ بَحْرِ (إِيْجَة) ⁽¹⁰⁵⁾ Égée يَرْتَعِشُ تَحْتَ أَشْعَةِ الشَّمْسِ. وَكَانَتْ أَجْرَاسُ دَيْرِ (الْقَدِيسِ يُوْحَنَّا) تُقْرَعُ، وَكَانَ دَوِيهَا يَنْتَشِرُ عَلَى شَكْلِ مَوْجَاتٍ مَتَوَسِّعَةً عَلَى مَرَاةِ السَّمَاءِ.
 الْبَحْرُ: إِلَى مَتَى يَعُودُ الْاِحْتِكَاءُ الْأَخِيرُ لـ (أَنْطُونِيَا) مَعَ الرَّمْلِ وَالْمَاءِ؟ إِلَى سَنَةٍ؟ خَمْسِ سَنِينَ؟ أَوْ أَكْثَرَ؟ كَانَ عَمْرُهَا ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَكَانَ الْمَشْهَدُ يَتَمُّ فِي (سَكِيَاثُوس) Skiathos. فَقَدْ كَانَ (الْبَاشَا) بِجَهْدٍ جَهِيدٍ وَهُوَ يَلْهَثُ يَحْمِلُهَا إِلَى الشَّاطِئِ، لِيَضَعَهَا مِنْ تَمَّ فَوْقَ الْمَاءِ.
 (الْبَاشَا) رَجُلٌ طَيِّبٌ. أَبُّ. وَبِدِيلٍ نَبِيلٌ لِلْآخِرِ، الْحَقِيقِي، الَّذِي رَجُلٌ مَبْكَرًا جَدًّا.

وَيَخْصُوصُ الرِّجَالَ الْآخِرِينَ.. أَيُّ آخِرِينَ؟ إِنَّهُمْ أَشْبَاحُ، وَمَسَافِرُونَ مَتَخَفُونَ. قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَ هَذَا الْفَيْرُوسُ الْقَدْرَ فِخْذِيهَا وَسَاقِيهَا.

مَاذَا كَانَ يُدْعَى الْمَخْتَارُ الْأَوَّلُ ⁽¹⁰⁶⁾؟ آه! نَعَمْ! (سْتِرَاتِيْس) Stratis. كَانَ مَرَاهِقًا مِثْلَهَا. كَانَتْ قُبْلَتُهُ عَذْبَةً كَعَسَلِ (أَتِيْكَ) ⁽¹⁰⁷⁾ Attique، وَطَعَامُ الْآلِهَةِ. لَقَدْ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَظَلَّ تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ وَتَأْكُلُ بِشَفْتِيهِ إِلَى نَهَايَةِ الْعَالَمِ. وَبَعْدُذْ كَانَ (يَانِيْس) Yannis. وَكَانَ مَدْلُكًا عِلَاجِيًّا ⁽¹⁰⁸⁾ kiné، وَهُوَ جَمِيلٌ،

(105) بَحْرُ إِيْجَة: جِزءٌ مِنَ الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ بَيْنَ الْيُونَانِ وَتُرْكِيَا، وَمَعْظَمُ جِزْرِهِ تَابِعَةٌ لِلْيُونَانِ (الْمُتْرَجِم).

(106) يَعْنِي أَوَّلَ مَنْ أَحْبَبْتَهُ (أَنْطُونِيَا) (الْمُتْرَجِم).

(107) أَتِيْكَ: مَنطَقَةٌ فِي مَحِيطِ مَدِينَةِ (أَثِينَا) (الْمُتْرَجِم).

(108) كَلِمَةُ (kiné) اِخْتِصَارٌ مَالُوفٌ لِكَلِمَةِ (kinésiterapeute) (الْمُتْرَجِم).

بل جميل جداً. والمرء لا يثق بالجميلين المزهوئين بأنفسهم، لأن هذه الأنماط تكتفي بذاتها، وسرعان ما تصبح دالة على الزهو. وكان (يائيس) ينتمي إلى هذه الفئة. وكان فضله الوحيد أنه كان يوحى إلى (أنطونيا) بأن جسدها، وعلى الأقل القسم الأعلى منه، لا يزال حياً.

شعرت بالحرّ فارتعشت. إنه لإحساس ريباني أن تشعر بلذة تغمر جزءاً منها. جزءاً واحداً فقط. وهي بذلك تشبه إلى حد ما مدينة مقسمة قسمين كمدينة (برلين)⁽¹⁰⁹⁾ Berlin. نعم، إن جسدها هو (برلين). وكانت (أنطونيا) «غريباً» و«شرقاً»، وبينهما أسلاك شائكة من الأوجاع.

وبعد (يائيس)؟ العدم. والمزيد من الدوار. ومزيد من قبلة العسل. ولم تهزها قط، في كل هذه السنوات المنصرمة، أدنى هبة من الميل إلى الشهوة. وفي كل الليالي التي كانت تشعر بدمها يحترق، كانت تغوص في طراوة الوسائد كي تمنع نفسها من أن تن أو تصيح بأي اسم كان.

وكتمت صرخة غيظ وسخط، فانتزعت من جيب (بنطال الجينز) مسبحة تتكوّن من حبات الكهرمان، وأخذت تستعرضها ما بين الإبهام والسبابة: لماذا؟ لماذا هي؟ وهل تستأهل هذا

(109) إثر هجوم السوفييت على (برلين) سنة 1945، للقضاء على (هتلر) في أواخر الحرب العالمية الثانية، حدث إنزال من قبل الحلفاء الغربيين (الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا) على القسم الغربي من المدينة، واحتفظوا به تحت إدارتهم بعد وضع الحرب أوزارها، وقد ضمّ (ستالين) القسم الشرقي وسائر ما عرف بـ (ألمانيا الشرقية) إلى المعسكر الاشتراكي، ومن ثمّ إلى حلف (وارسو)، وكان الفاصل بين شقي برلين أسلاك شائكة وحواجز، إلى أن أمر (هالتر) أولبريشت (W. Ulbrecht، رئيس ألمانيا الشرقية، سنة 1961، ببناء ما عُرف بـ (جدار برلين)، لمنع الهجرة من الشرق الشرقي إلى الغربي، وقد تمّ هدمه سنة 1989، مع ارتداء قبضة النظام الشيوعي السوفييتي وبوادر انهياره، وعادت (برلين) مدينة واحدة، ومهدت لوحدة شطري ألمانيا، لتصبح أقوى دول الاتحاد الأوروبي في أيامنا (المترجم).

الشقاء؟ والسعادة؟ وهنا تذكرت قصة تلك الفتاة الشابة التي فازت قبل سنتين، بمبلغ كبير، من خلال لعبة في التلفزة. وبعد يومين من ذلك، لقي زوجها وابنها الوحيد مصرعهما في حادث سيارة؛ فأني نوع من السعادة هذه التي تسلب منك بيد ما كانت قد تكرمت بتقديره إليك باليد الأخرى؟

وفي وقت معين، كانت تقول لنفسها: إنه لمن الخير أن تختفي بإخفاء هذا الجسد غير النافع الذي يحتل حيزاً كبيراً. هل تنتحر؟ نعم. ولكن كيف؟ أكيد بالعقاقير المنومة. ولكن هذا يحرمها من اللحظة القاضية، لأن المرء ينام، ثم يرحل وينطلق غير واعٍ لشيء. لا! إنها لم تكن تتصور ألا تكون واعية حتى الثانية الأخيرة في اليوم الذي ستموت فيه. هل تقطع وريداً؟ يا للهول! إنها لا تتحمل رؤية الدم، كما أن هنالك نقصاً في جمالية المشهد! اختارت، في نهاية تأملاتها، الإضراب عن الطعام. أي الموت البطيء من خلال الهزال. وسوف ترحل بلا انتفاخاتها الوثيرة، وبلا هذه العجيزة التي كانت تراها كبيرة.

وابتداءً من اليوم التالي كَفَّتْ (انطونيا) عن تناول الطعام. وكتبت في يومياتها الحميمية تقول: (أرجو ألا أخفق. لسوف أصوم أطول وقت ممكن. على الأقل حتى يوم الأربعاء، وإلا فسيكون ذلك حتى يوم السبت. يجب ألا أأكل، فلقد أفرطت في الأكل أمس، إذاً يجب التوقف لأطول مدة ممكنة. سوف أنتفخ من تناول الـ (القطايف) ⁽¹¹⁰⁾ kadaifis ست عشرة ساعة، وأنا أشعر بالخجل. فبطني، المتخم بهذه الشعيرية، ويكثر من

(110) نوع من الحلوى اليونانية تصنع من الشعيرية على شكل المبرومة، وتكتب أيضاً بالياء kataifis وحرف (s) للجمع (الترجم).

العسل، والزبدة، والفسق، يؤلني. وأظن أنني سأقياً. إنها الساعة الخامسة مساءً، إنها الخامسة والنصف، ها قد انتهيت من الاستفراغ. وأشعر الآن شعوراً أقل بالذنب. وفي المقابل، حلقي ملتهب. وكانت آثار أسناني بادية على يدي اليمنى. وأخيراً، لا شيء خطير. وأشعر، مع ذلك، بتحسّن. ماذا يجب أن نفعل من أجل الموت ونحن على قيد الحياة؟).

وأخيراً، استمررت محاولتها أربعة أيام فقط، وقد ألقت بسلاحها أمام صحن (لقمة القاضي)⁽¹¹¹⁾ loukoumade بالعسل.

يجب أن أصفي إلى قلبك يا (أنطونيا)، فهو لا يكتم سرّاً. إن من يصفي إلى قلب يسمع أيضاً الأسرار الأكثر سرّية عند الكائنات. فإن كنت ترغبين في ذلك، فلسوف أعيد عليك ما يرويه قلبك لي.

كانت (أنطونيا) قد عرفت أطباء كثيرين. لكن (تيوفان) كان يبدو لها الأكثر غرابة من بينهم جميعاً. وفيما يخص ثرثرته عن الموسيقى.. فقد كانت طريقة تافهة للسعي إلى التألف. والأسوأ أنه كان يتراجع مقابل الحفاظ على الهدوء، وهي استراتيجيته من الآن. الهدوء! ومع ذلك، كانت تعترف أن الرجل كان يثير فضولها. فقد كان يفجر فيها اعتدادها بنفسها، وكانت تحسّ، في الوقت نفسه، أن فيه شيئاً ما لم تتمكّن من تحديده: ربما كان امتلاءه ثقةً وبقيناً بنفسه؟

(111) وهي نوع من الحلوى تدعى في الشام (المؤامة) وهي كرات صغيرة من العجين المقلّي بالزيت، وتحمّل بغمرها بقطر السكر. أما في اليونان فتحلّى بالعسل. ويبدو لي أن التسمية المصرية (لقمة القاضي) مأخوذة من ظاهر اللفظ اليوناني (لوكوم آدي)، أو أن الكلمة اليونانية مأخوذة من التسمية المصرية، مع التحفظ على إضافة هذه اللقمة إلى القاضي بالذات دون غيره من أصحاب المقامات والمناصب (المترجم).

قال (أليكسيس)، وهو يمدّ إليها كأساً:

- عصير ليمونك!

شكرتُ (أنطونيا) أخاها من طرف شفيتها، وسألت:

- في أي ساعة ذكرتُ أن (الباشا) سيصل؟

- في الساعة السادسة مساءً، أتصوّر أن هذا يسرُّك.

- على الإطلاق.

- أصدّقك. فأنا أعرف متى تكونين صادقة. هل تعلمين أنني

حطمت الرقم القياسي في غوص كتم الأنفاس أمس؟ لمدة دقيقة

واثنتين وأربعين ثانية! كان عليك أن ترى الآخرين!

- انتبه يا (أليكسيس). هذه اللعبة خطيرة.

- أوه! لا تقلقي. لسنا أولاداً.

- بالتأكيد إلى اليوم الذي لا يخرج فيه أحدٌ من بينكم.

* * *

دخل (تيوفان) على عجلٍ إلى قسم الإنعاش. وأول ما لمَح كان

القامتين البيضاوين للطبيب المناوب والمرضة، وهما منحنيتان

على سرير المريض. فظنَّهما شبحين.

ولما وصل إليهما، وضع يده على كتف الطبيب الداخلي، وقال:

- ما الذي يجري؟

- لقد نبّهتني (إيزابيل) بعد أن شاهدتُ على الشاشة

(المونيتور) أن تردّد نبض قلب المريض وصل إلى حد: mm

40/Hg 60 انقباضياً.

سارعت الممرضة إلى التحديد بالقول:

- وهذا ما أقلقني على وجه الخصوص..

ثم أشارت إلى الأنابيب التي تُركت في مكانها داخل صدر

الرجل الذي كان ينظر إلى الليل

المريض مرتبطة بأوان زجاجية خارجية مدرجة كانت وظيفتها أن تكشف أي تدفق للدم أعلى من الطبيعي.

- 120 ml في الساعة في حين إن المعدل ..

قاطعها (تيوفان) وتوجه مرة أخرى إلى الطبيب بقوله:

- يجب تصحيح الـ (hypovolémie)⁽¹¹²⁾ عن طريق الملء

الوعائي.. فهل فعلت ذلك؟

- بالتأكيد، أنا..

- مشاركة الجزيئات الضخمة والمصل الفيزيولوجي؟

رمى الطبيب المناوب الجراح بنظرة خاطفة لا يمكن أن يقول المرء عنها إن كانت مصدومة أم متحفظة. ماذا تظنه؟ طالباً في السنة الأولى؟ لقد كان قاب قوسين من طرده، ولكن لم يكن هذا مكاناً ولا زماناً للمجادلة.

- لقد أمرت، في حالة طوارئ قصوى، بأربعة أكياس (كريات حمراء) (culots) وأربعة (بلازما) plasmas طازجة ومجمدة، وفي انتظار تسلمها، بدأت بالـ (noradrénaline) في حقنة كهربائية. استجمع (تيوفان) قواه، وكان مع ذلك قد خاط الأبهر تماماً! صرخت الممرضة فجأة قائلة:

- دكتور! الضغط ينهار: أصبح 45 mm Hg.

فقال (تيوفان):

- يجب القيام بوقف النزيف. أعدّي الجهاز.

وبينما كانت الممرضة تحدد في وجهه مرتبكة، زعق قائلاً:

- ماذا تفعلين؟ بسرعة! عجلّي!

* * *

(112) وهو نقص بلازما الدم المؤدي إلى انخفاض الضغط والموت إن لم يتم نقل الدم (المترجم).

اخترق رنين الهاتف أذني (تيوفان). وقد تساءل، خلال مدة وجيزة، إن كان لا يزال يعيش في كابوسه أم في الواقع. فتح عينيه، اللتين أبقاهما مغلقتين طيلة الدقائق التي عاشها وهو يحلم، فرأى (تيمور) يضع يده على سماعة الهاتف، ويسأله:
- حسناً، هل تردّ؟

مدّ (تيوفان) يده المضطربة قليلاً، فسمع من الطرف الآخر:
- دكتور (دبانه)؟ معك (بيبا فاسيلي). هل أزعجك؟
- لا، لا، هل لدى (انطونيا) مشكلة؟

- على الإطلاق. إنها بصحة جيدة جداً. ماذا تصنع هذا المساء؟ تعالِ إذن لتتعمّسى عندنا. أعلم أنني قرّرتُ ذلك في وقت متأخر قليلاً. ولكن (الباشا) يهتم باللقاء معك اهتماماً كبيراً. وكنتُ قد حدثته كثيراً عنك.
- (الباشا)؟

- يا لغبائي! لقد كنتُ أعرفه منذ زمن طويل جداً، حتى تصوّرتُ أن الأرض كلها تعرف لقبه. ومن جانب آخر، لم أفكر قط في أن أقدمه باسم عائلته، لأنني أجد من الصعب النطق به، إنه (أناغنوستاكيس) Anagnostakis.. هل تتصوّر؟ (أناغنوستاكيس) ولكن لحسن الحظ أن اسمه الأول يعوّض اسم العائلة البشع هذا، فهو يدعى (آخيل) Achille. وهو أبسط للحفظ، أليس كذلك؟ من فضلك، تعالِ. فلسوف تسعدنا سعادة عظيمة.

لاحظت (بيبا) تردده على الطرف الآخر من الخط، فألحّت قائلة:
- هيا، يا دكتور! كن عطوفاً. امنح هذا الفضل لروحين وحيدتين.

- إنني..
- نسيْتُ المهمّة: إن (أخيل) مولودٌ مثلك في (مصر). وأنا متأكّدة أن لديكما كثيراً مما ترويانه. الموعد السابعة مساء!
- لبث مرتبكاً، وسأل:
- كيف عرفت أنني مولود في (مصر)؟ إنني..
- هل نسيت؟ إنني أقرأ الورق. والآن، ستأتي؟
- موافق.
- شكراً ولن تندم. فقد حضرتُ لنا (ديسبينا) وجبة (موساكا)⁽¹¹³⁾ moussaka ستأكل أصابعك من ورائها!
- ثم أغلقت الخط.
- استفسر (تيمور) قائلاً:
- ما الأمر؟
- السيدة (فاسيلي)، صاحبة النزل (البانسيون)، تدعوني إلى العشاء.
- رائع! فأنت لا تخرج مساء تقريباً، وهذا سيغيّر لك أفكارك.
- مَنْ قال لك إن عندي أفكاراً تحتاج إلى تغيير؟ إن أفكاري بخير تماماً.
- وكيف هي هذه السيدة؟
- عادية.
- هل هي جميلة؟ عجوز؟ شابة؟
- بحسب معاييرِي هي مغرّبةٌ وشابّة. وبحسب معاييرِك هي بدينة وعجوز.

(113) وهي تتكون من (شرائح باذنجان ولحم وطماطم وبصل وثوم؛ وعلى الوجه كريمة) (المترجم).

- عجوز؟ يعني؟

- إنها في الخامسة والأربعين من العمر تقريباً.

- حقاً؟

- عندما تبلغ أنت هذا العمر، لسوف تُعدّ الشيخوخة تبدأ

في الخامسة والستين. وفي الخامسة والستين، سوف تنضي فارق العشرين سنة هذا.

- أتظنّ ذلك؟

- لا. أنا متأكد من ذلك.

- وابنتها؟ تدعى (أنطونيا). أليس كذلك؟

- لا شيء يفوتك. بلَى. إنها شابة تقريباً، عمرها ست وعشرون سنة.

- إنه ليس شيئاً مسلياً أن تعيش في كرسي متحرك.

ألا يوجد أيّ علاج لها؟

- لسوء الحظ لا يوجد. ويبقى العلاج الوحيد لهذا المرض

إعادة التأهيل، وذلك بتحفيز العضلات العاجزة على التنبّه والتحسن.

- وهل سيكون لـ (أنطونيا) فرصة لكي تعود إلى المشي مشياً

عادياً؟

- مستحيل. ولكن حالتها العامة يمكن أن تتحسن.

- لماذا لا تساعدنا أنت؟

- يبدو أنك نسيّت أنني لست متخصصاً في العلاج

الطبيعي kinésiterapeute. ومن جهة ثانية، وبحسب قول

أمها، لقد تابعت جلسات لإعادة التأهيل، ولسوف تستأنفها حين

تجد مدلكاً.

تأمل (تيمور) بضع ثوانٍ، قبل أن يبدي ملاحظة بالقول:

- إن أردتَ رأيي، فإنني مقتنعٌ بأنك تستطيع فعل شيءٍ ما.

لا تنسَ: أولستَ أنتَ أكبرَ جراحٍ في العالم؟

انطلقت ضحكة من صدر (تيوفان)، ثم قال:

- أخيراً تقول كلمةً لطيفة! يا للأسف! إن أكبر جراحٍ في

العالم، مهما كان موهوباً، لا يستطيع إرجاع الحياة إلى عضلاتٍ

ميتة.

(6)

كان الضوء الأحمر القاتم والأصفر، الذي كان ينير الشرفة (الترأس)، يضيء على وجه (أخيل أناغنوستاكيس) Achille Anagnostakis، بشكل لا يُصدّق، مظهرًا شفافاً، وفوق طبيعي تقريباً. إنه يشبه وجيهاً بريطانياً قادماً مباشرة من مجلس اللوردات. وكانت هيئته تؤكد هذا الانطباع: بدلة رمادية من ثلاث قطع مقلّمة، ربطة عنق ومنديل جيب من حرير أزرق، وحناء نظيف. وتحت صلعته كانت تلمع نظارة ذات عؤينتين مدوّرتين صغيرتين من المعدن، وله شاربان مفتولان على طرفي الشفتين. وكان يطفح بعزة النفس الطبيعية الخاصة بالأرستقراطية اليونانية القديمة. كان في السادسة والسبعين من العمر، ويظهر أقل منها بخمس سنوات أو ست.

في الواقع، لم يكن (الباشا) وجيهاً تركياً، ولا حتى مصرياً. وقد أطلقت عليه (بيبا) هذا اللقب من باب المزاح. ففي مطلع سنة 1915 اضطرت أسرته، وأصلها من (إزمير)⁽¹¹⁴⁾ Smyrne، أن تفرّ من (الأناضول)⁽¹¹⁵⁾ Anatolie إلى (الإسكندرية)

(114) إزمير: مدينة تركية مطلة على بحر إيجه من البحر المتوسط يبلغ عدد سكانها نحو ثلاثة ملايين نسمة (المترجم).

(115) الأناضول: اسم يطلق على آسيا الصغرى (تركيا الآسيوية اليوم) (المترجم).

للتخلص من الهستيريا العثمانية في تلك الفترة⁽¹¹⁶⁾. كان عمر (أخيل) خمس سنوات.

وكانت أسرة (أناغنوستاكيس) قد ترددت مطولاً في حزم حقائبها. وبعد كل هذا، كانوا يشعرون أنهم في بيتهم. لقد كانوا في بيتهم! ولولا تحذير أحد أصدقائهم الأتراك، لكانوا انتهوا بالتأكيد رماداً، كأغلبية مواطنيهم، فقد قال لهم هذا الصديق: «ارحلوا! ارحلوا! فقد علمت أن السلطات تنوي أن تنتهي مما يُسمَّى (القضية اليونانية) بذات الطريقة التي اتخذتها لحل (القضية الأرمنية). ارحلوا!».

لقد أحسن صنعاً، ففي نهاية الحرب العالمية الأولى، يُذكر أن هنالك 350.000 ضحية فقط من اليونانيين في (آسيا الصغرى). وكان بعضهم قد اختفى، على غرار الأرمن، مقتولاً، وهلك آخرون من الإعياء أو الجوع على طرق اللجوء. اعترض (تيوفان) بقوله:

- في رأي الأتراك، لم يكن اجتثاث هؤلاء السكان سوى نتيجة للمواجهات العسكرية.
(قال (الباشا))⁽¹¹⁷⁾:

(116) يقصد بالحستيريا العثمانية تلك الحالة التي انتابت الأتراك مع الانهيار النهائي والأخير لإمبراطوريتهم العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918)، نتيجة للهجوم الذي تعرضت له من قبل الجيران العرب والروس والبلغار واليونانيين والأرمن وغيرهم بالإضافة إلى الإنكليز والفرنسيين في آن واحد، الأمر الذي ولد عندهم شراسة خاصة للدفاع عن بلادهم بأي ثمن (المترجم).

(117) اقتضى السياق إثبات ما بين القوسين القائمين، نظراً لعدم ذكر قائل القول، ولا يُعرف إلا بعد بضعة أسطر على الأقل، وقد أوقفنا المؤلف - في بعض المواضع - في مثل هذا اللبس، لأنه كان يهمل الإشارة إلى المتكلم في عبارات الحوار، فكان ذلك يضطرنا إلى الإيضاح أحياناً من غير التبيي على ذلك (المترجم).

- إنك تضحكني! هل رأيت من قبل نساءً، وشيوخاً، وأطفالاً صفاراً يشكّلون خطراً إزاء واحد من أقوى الجيوش في العالم؟ Kalam fadi⁽¹¹⁸⁾، يا عزيزي، إنها مجموعة من الحماقات.

لم يستطع (تيوفان) منع نفسه من الابتسام، لا لأنه لا يأخذ أقوال محدّثه مأخذ جدّ، ولكن للعبارة المصرية التي أيقظت في نفسه كثيراً من الذكريات!

أحضرت (بيبا) زجاجة خمر للطبيب، وهي الثالثة في هذه الأمسية، وقالت:

- هل ترغب في فتحها؟

وافق (تيوفان) قائلاً:

- في المرة القادمة سوف أحضر لك خمرًا من صديقي (ديمتري): هل ذقتها؟

- لا، ولكنني أتقبّلها بكل سرور. وستكون في ذلك فرصة لكي تعود لزيارتنا.

ثم مالت نحو (آخيل) وأخذت يده برقة، وقالت:

- ليس كذلك؟

- بالتأكيد. سيكون مرحّباً به.

ملاً (تيوفان) الكؤوس وهو يسأل نفسه عن العلاقات التي يحافظ عليها هذان الشخصان. فقد كان فارق العمر بينهما نحو ثلاثين سنة. فهل يمكن أن يكونا قد عاشا قصة غرامية؟ وهل هما ما يزالان يعيشانها؟ هنالك دليل يقفز أمام العين: فقد كانا

(118) أثبت المؤلف في المتن كلمتي: كلام فاضي! هكذا بالحروف اللاتينية (المترجم).

بالتأكيد مشدودين بالحياة والموت. وينبعث من نظراتهما كثير من المحبة، وكان هنالك كثير من التواطؤ في حركاتهما، وقد كانت بينهما، بلا شك، ذاكرة مشتركة تجعلهما يتصرفان تصرفاً عادياً. فإن كانا متحابين، فإنهما لا يزالان كذلك، وبعاطفة أقوى من الحب بكثير. أين كان تعارفهما؟ وما ظروفه؟

قال (تيوفان) وهو يلتفت إلى (الباشا):

- إنه لأمر مدهش أنك لا تزال تتكلم المصرية جيداً جداً، فمتى غادرتَ (مصر)؟

- في وقت متأخر، سنة 1956. وكان لـ (ناصر)⁽¹¹⁹⁾ في السلطة أربع سنوات. وكان قد اتخذ خطوات مزدوجة بين الشرق والغرب. ولكن الهجوم على (السويس)⁽¹²⁰⁾ ألقاه في أحضان المعسكر السوفييتي، فأصبحنا نحن - يونانيي (مصر) - في جحيم، كما هو شأن الجماعات التي توصف بـ (الأجنبية). ولعلك تعرف عن ذلك شيئاً ما، أليس كذلك؟ جماعات أجنبية! يا للحماقة! أناس كانوا يعيشون في هذا البلد منذ أجيال ويوصفون بأنهم

(119) ناصر (Nasser): هو الاسم المختصر الذي كان يُطلق، خارج العالم العربي، على الرئيس المصري (جمال عبد الناصر) (1918 - 1970) قائد ثورة 23 يوليو/تموز سنة 1952، وكان قد تولى رئاسة مصر سنة 1954 حتى وفاته (المترجم).

(120) يقصد بذلك ما اشتهر في الإعلام العربي بـ (العدوان الثلاثي) على مصر لاشترك ثلاث دول متواطئة معاً عليه، كل لسبب مختلف: الأولى (إسرائيل) لتدمير الجيش المصري قبل وصول صفقة السلاح الحديث من (الاتحاد السوفييتي) ولفرض شروط على مصر. والثانية (بريطانيا العظمى) صاحبة الامتياز في قناة السويس ومالكة الحصص العظمى من أسهم شركتها. والثالثة (فرنسا) التي تريد الانتقام من مصر، لدعمها ثورة الجزائر منذ سنة 1954 ضد استعمارها. وكان هذا العدوان نتيجة إعلان (عبد الناصر) المفاجئ تأميم شركة (قناة السويس)، يوم 26 يوليو/تموز سنة 1956، لتمويل مشروع السد العالي في (أسوان)، نظراً لرفض صندوق النقد الدولي تمويله بسبب اعتراضات الولايات المتحدة والغرب على سياساته. بدأ العدوان في 29 تشرين الأول/أكتوبر سنة 1956. غير أن عوامل الإخفاق كانت أكثر من عوامل النجاح، وانتهى الأمر بانسحاب القوات الغازية جميعاً (المترجم).

(أجانب). ولجوؤك أنت إلى هنا.. متى بدأ؟

- بعد لجوئك بثلاث سنوات. وكنت قد بلغت التاسعة عشرة.

- إذا كنت في ريعان الشباب، وتذكرك الـ (Black Saturday)⁽¹²¹⁾ المشؤوم الذي أشعلت فيه زمر متطرفة النار - (القاهرة). كان ذلك في 26 كانون الثاني/يناير سنة 1952. فكانت ليلة رهيبة. لقد رأيت المشهد بوضوح، ولم تره أنت بالتأكيد.

* * *

قال (تيوفان)⁽¹²²⁾:

- هبط الظلام.. وجاءت أمي، وألقت بنفسها في غرفتي. كان عمري اثني عشرة سنة. وأنا أتذكر كل شيء. ولا تزال في أنفي الرائحة اللاذعة المنبعثة من محل صاحب امتياز إطارات (ميشلان)⁽¹²³⁾ Michelin، وكان بجوار عمارتنا، وقد رأيت رجل (ميشلان)⁽¹²⁴⁾ ممتلئ الخدين، يسقط ويتحوّل فحمة سوداء، وتلاشى ببطء بفعل السنة الذهب.

(121) أورد المؤلف الكلمتين هكذا بالإنكليزية، بمعنى (السبت الأسود) (المترجم).

(122) بدأ (تيوفان) من هنا يروي شريط ذكرياته عن تلك الليلة لـ (الباشا) و(بيبا) (المترجم).

(123) إطارات (ميشلان): شركة فرنسية صانعة للإطارات، أسسها الأخوان (أندريه وإدوار ميشلان)، سنة 1889، في مدينة (كليرمون - فرّان) Clérmont - Ferrand، وسط (فرنسا)، على مساحة 12 هكتاراً من الأرض، وكان يعمل فيها 52 عاملاً. مرت الشركة بتاريخ عريق وواسع إلى يومنا هذا، وسجلت تطورات هائلة عبر الزمان. وهي تصنع إطارات الدراجات بأنواعها، وإطارات السيارات، والشاحنات، والطائرات، والجرارات.. وتأتي في الترتيب عالمياً ثانية بعد شركة إطارات (بريدجستون) Bridgestone اليابانية، وقبل شركة إطارات (غوديير) Goodyear الأمريكية، وقد بلغت مبيعاتها سنة 2014 نحو 20 مليار يورو. وهي اليوم شركة متعددة الجنسيات، وتنتشر مصانعها في عدد كبير من البلدان في خمس قارات (المترجم).

(124) يعني به صورة الرجل التي ترافق إعلانات هذه الإطارات وصارت مع الزمان شعاراً للشركة، ولونه أبيض ومحرز ألقياً (المترجم).

صاحت أمي:

- استيقظا أسرع! سنخرج..

- إلى أين؟ ولماذا؟

- لا تطرح أسئلة. أسرع! أسرع!

ومن خلال النافذة، كنتُ ألمح أضواءً محمّرة.

ركضنا. لم يكن لدينا وقتٌ كي نأخذ المصعد. فنزلنا بسرعة على السلم. كانت هنالك صرخاتٌ تصعد من الشارع، ومن صحن الدار التي تجري فيها النافورة دوماً، غير مبالية بالصخب. وكان الـ (bawab)⁽¹²⁵⁾ يومئذٍ، ويركض في كل الاتجاهات.

جلس أبي وراء مقود السيارة. وكانت من نوع (أوبل)⁽¹²⁶⁾ Opel بيضاء اللون. وأقلع كالإعصار باتجاه (عين شمس) Héliopolis، حيث تسكن أختُ والدتي وزوجها الطبيب. ومررنا بشارع (عماد الدين). فرأينا واجهات المحال المحطمة ومشاهد النهب.

كانت هنالك صرخات، ولا أزال أسمع تلك الصرخات. وكنتُ ألمح، من خلال زجاج السيارة، وأنا مرعوب، أضواء أرجوانية. لم أكن أفهم شيئاً من هذا الضجيج، ولكنني كنتُ أشعر أن هنالك شيئاً خطيراً يحصل. وفي الساحة الكبيرة التي تجاور (محطة

(125) هكذا أثبت المؤلف في المتن كلمة (بواب) العربية (المترجم).

(126) أوبل: شركة ألمانية لصناعة السيارات، أسسها (آدم أوبل)، سنة 1862، في (روسلنهام) Rüsselsheim و(هس) Hesse. وكانت الشركة في البداية تصنع آلات الخياطة، ثم أخذت، سنة 1886، تصنع الدراجات الهوائية، واشتركت سنة 1901 مع شركة صناعة سيارات فرنسية في صنع سيارة، ثم توسعت سنة 1914، إلى أن أصبحت في أوائل العشرينيات المصنّع الأول للسيارات في ألمانيا، ولها تاريخ عريق ومتوق حتى يومنا هذا (المترجم).

باب الحديد) كانت هنالك أشباح تهدد، وتسد الشارع الرئيسي. كان أبي منزعجاً من احتمال ضربه. كانت هنالك وجوه شبحية تحيط بنا. وكانت تلك صدمة خفية. جاء أحدهم وضرب هيكل السيارة بقبضته. فارتعدت قليلاً. ماذا يريد منا هؤلاء الناس؟ ولماذا؟

سمعت أبي يتبادل بضع كلمات مع المتظاهرين، ثم يشير بإصبعه إلي. لا شك أنه كان يحاول أن يجادلهم. حدق بي زعيمهم. لقد كان خداه ملطخين بالسُخام الأسود (الشحار). وكان جبينه يرشح عرقاً. ولن أنسى ملامحه أبداً. كم من الوقت استغرق في التفكير قبل أن يعطي إشارة لرفاقه بأن يدعونا نمر؟ كان هذا الوقت ألف ساعة بالنسبة لي، مع أنه كان في الحقيقة بضع دقائق. وانطلقنا.

* * *

ثم دمدم (تيوفان) قائلاً:

- إنني أتذكر كل شيء.

قال (الباشا):

- في تلك الليلة كان كل شيء يتأرجح. وبعدئذٍ إلى أي البلاد رحلت؟

- رحلت إلى ثقافتي ولغة أمي: إلى (فرنسا). واختار آخرون (كندا)، و(الولايات المتحدة)، أو حتى (أستراليا). لم يكن هنالك أي مستقبل يبدو أكثر إمكاناً. ولقد أصبحنا هُجّاء.

ثم خلص إلى القول وقد اغرورقت عيناه بالدمع فجأة:
- ولا نزال كذلك.

صاحت (بيبا):

- توقفا هُجَنا؟ إني أراك مكتئباً.

فاكُدها (الباشا) قائلاً:

- إنه لم يخطئ. وأنتِ لا يمكنكِ أن تُدركي الأمر، فقد وُلدتِ

في (اليونان)، وتعيشين دائماً هنا. فأنتِ يونانية حتى أطراف

شفتيك⁽¹²⁷⁾. وأنتِ شجرة. جذوركِ راسخة نهائياً في تربة

مسقط رأسك، أما هو فالى أي أرض ينتمي؟

رفعتِ المرأة عينها إلى السماء، وقالت:

- (أخيل) ماذا تقول؟ إنه فرنسي، اليس كذلك؟

- ربما في نظرك أنت. ولكن من هو في نظر الفرنسي؟ حتى

أنا، يحصل لي أحياناً أنني لا أدري إن كنتِ يونانية أم مصرياً، أو

حتى - لزيادة الطين بلة - تركياً!

تجرعت (بيبا) كأسها دفعة واحدة، وقالت:

- أتعرفان من تكونان؟ إنكما مجنونان.

ردّ (تيوفان) قائلاً:

- لسنا مجنونين تماماً.

ثم أخذ نفساً قصيراً وقال:

- البصمات، يا سيّدة (فاسيلي)، هل تعرفين ما البصمات؟

إنها علامات نتركها حين نضغط على سطح ما. وفي اليوم الذي

تمّحي فيه، فإن هوية صاحبها تمّحي في ذات الوقت، ولا يرى

محيطه بوضوح من يكون ولا هو أيضاً يعرف من يكون. وهذا هو

المصير الذي عرفه مئات الآلاف من الأشخاص: يهوداً، ونصارى،

(127) كناية عن كونها يونانية خالصة، وهذا يشبه قولنا: أنت عربي فحّ، أو أنت عربي من رأسك

حتى أخمص قدميك (المترجم).

وحتى مسلمين في (مصر)، وكذلك في (شمال أفريقيا)⁽¹²⁸⁾.
سكَّانٌ بأجمعهم يُطردون كالخدم. لقد محوا بصماتنا، فعلى
أي شيء تقوم هذه البصمات؟ إنها تقوم على المدرسة، والبيت،
ودار السينما التي يهرب إليها التلميذ من المدرسة، والشارع،
والأصوات، والأنغام، والروائح. وعلى الكائنات المختلفة أيضاً
بالتأكيد. وحين تختفي كل هذه الأشياء دفعة واحدة، لا يبقى
سوى فراغ واسع. والأسوأ أيضاً هو أن العدم ليس سوى رؤية هذه
البصمات المدمرة والممزقة، والمتحوّلة إلى أطلال أو بضع شواهد
معضرة بالتراب في مقبرة تمّ تضيئها. تخيل أنك كنت تعشق
امراًة في زمن تألّقها، وفي أحد الأيام ظهرت لك مُقعدة من
(الروماتيزم)⁽¹²⁹⁾ rhumatismes، ونصف مجنونة، ومنحنية
الظهر، وأعضاؤها مشوّهة، وترفع عينها إليك فجأة وتسالك:
«مَنْ أنت؟ إن ملامحك تذكرني بأحدهم: فمن أنت؟»، عندها
يفضّل المرء لو أنها كانت ميتة.

توقف قليلاً قبل أن يواصل قائلاً:

- أنت يا (بيبا) يمكنك أن تعودي إلى مدينتك أو قريتك،
حتى بعد عدة سنوات، وسوف تشاهدين فيها آثاراً من
الماضي: كأن تكون مدرستك لم تعد هنالك، أو إن كان منزلك
لا يزال موجوداً أو اختفى، وستقودك قدمائك إلى الحديقة،
أو الكنيسة، أو إلى المخبز، وإلى بقية من بضعة أشياء لا تزال

(128) كان المؤلّف يثير هنا مسألة خطيرة تتعلق بالهجرة القسرية أو الطوعية للبشر من مكان
إلى آخر قديماً، ومن دولة نابذة إلى دولة جاذبة في أيامنا، ومثال (شمال أفريقيا)، هنا، تذكير
بعودة آلاف مؤلّفة من المستوطنين الفرنسيين بعد مئة واثنين وثلاثين سنة من الاستعمار، من
الجزائر، بعد الاستقلال، إلى فرنسا (المترجم).

(129) الروماتيزم: آلام حادة ومزمنة في المفاصل والمضلات (المترجم).

قائمة وسليمة. وهنالك دوماً عمّة عجوز أو ابنة عمّ تقول لك: «مرحباً! هل تذكرين؟». وأما نحن فلنسنا كذلك، وعلى كل حال أنا لستُ كذلك. وأكثر من البصمات الصور المصفّرة. إنني (هيروشيما)⁽¹³⁰⁾ Hiroshima.

تلتُ حديثه هذا فترة صمت طويلة إلى أن سألته (بيبا) قائلة:

- أليس لديك.. أسرة؟

- لا.. قلتُ لك: (هيروشيما).

- ولا زوجة؟

- أيضاً لا. لقد انفصلنا.

قال (الباشا) بلهجة ساحرة:

- يا صديقي المسكين! كنتَ متزوجاً إذن! إنها (The full

catastrophe) (131) كما كان (زوربا)⁽¹³²⁾ Zorba يقول.

وأتصوّر أن لديك أطفالاً أيضاً؟

مدّ (تيوفان) كأسه إلى السيدة، قائلاً:

- هل يمكن أن تملئيه؟

همّت (بيبا) بملء الكأس، غير أنها توقّفت فجأة، وهي تنظر

إلى ما وراء (تيوفان)، وقالت:

- (أنطونيا)؟ ماذا تفعلين هنا؟

(130) هيروشيما: ميناء ياباني ألقى عليه الأمريكان في أواخر الحرب العالمية الثانية في يوم 6

آب / أغسطس سنة 1945 أول قنبلة نووية في العالم. وربما ذكرها المؤلف هنا، لأن هيروشيما ما قبل القنبلة بقيت مجرد صور للماضي، وهي تشكل بصمة تؤصّل لجذورها (المترجم).

(131) ذكر المؤلف الكلمتين بالإنكليزية هكذا في المتن، وهما بمعنى (الكارثة الكاملة) (المترجم).

(132) زوربا: هو بطل رواية (زوربا اليوناني) Zorba the greek للكاتب اليوناني (نيكوس

كازانتزاكيس) Nikos Kazantzakis، وقد نشرت طبعها الأولى سنة 1946، واقتبسَتْ

فيلمًا سينمائيًا بذات العنوان، وقام بدور (زوربا) فيه الممثل العالمي (أنطوني كوين) Anthony

Quinn سنة 1964 (المترجم).

كانت الفتاة الشابة تسير نحوهم مستندة إلى عكازيها، وتندفع جانبياً، وهي تزم شفيتها، باذلة قُصاري جهدها كي تسيطر على قدمها اليمنى، لتدور باتجاه الجسد. خطوة، ثم أخرى. وخطوة مشدودة بهذا الصوت المعدني الرهيب كاشطة التراب. هل كانت هذه هي ملامحها؟ كان بإمكان (تيوفان) أن يحلف بأنها كانت حاضرة طيلة الوقت الذي كان يتكلم فيه، وهي قابعة في زاوية. عرّجت نحو (آخيل)، فنهض فوراً، وضمها إلى صدره، قائلاً:

- أنت بخير، يا دُميَّتي؟

ثم سحب كرسيّاً ودعاها إلى الجلوس.

قالت لها (بيبا):

- إنك لم تَمسي على الدكتور (دبانه)؟

فحيَّته (أنطونيا) بانحناءة من رأسها، كما لو كانت قد لمحتَه

للتو فقط، وتناولت عنقودَ عنب. وقالت:

- عيد الفصح بعد عشرة أيام.

فتمتم (الباشا) قائلاً:

- إنه الكرنفال العظيم.

فانضجرت (بيبا)، وهي ترسم إشارة الصليب، قائلة:

- إني أمنعك!

- ما الأمر؟ وأنت لم تؤدّي حتى الصوم الكبير؟

- وبعده؟ إنه عيد مقدّس! ولا يجوز التهكم بهذه الأمور. أيها

المارق! أرحنا من تجديفاتك.

أشهد (الباشا) (تيوفان) قائلاً:

- أنت ترى، يا صديقي. هنالك موضوعان لا تقرّيهما مع امرأة

يونانية هما: الدّين و.. امرأة أخرى، لأنها تصبح عندئذٍ نمرّة.

وافق الطبيبُ على رأيه وهو شارد الذهن. لقد أجال نظره في (أنطونيا)، ودُهِش من ملامحها. وتذكَّر أنها كانت تراقبه كما يُراقب المرءُ بارتياب حيواناً يَخْشَى أن ينقضَّ عليه. ما الذي كان يحدث في رأسها؟ لقد شَخَصَتْ بنظرها إليه، ولكن شيئاً لم ينبعث من حدقتيها فيما عدا التوجُّس، وعلى الأقل قد تكون نظرتها من باب الفضول.

قالت (أنطونيا) لـ (تيوفان):

- إنك لن تتوصَّل إلى شيء في الموضوع.

قَطَّبَ (تيوفان) جبينه وقال:

- عفاً؟

- أنت لن تتوصَّل إلى قراءة ما في داخلي، فصفحاته مُرْمَزة.

وأنا وحدي أملك المفتاح.

- لسوف أخيب أملك، يا عزيزتي (أنطونيا)، فأنا لم أكن

أسعى إلى شيء. ومن نحو آخر، قليلاً ما تجتذبني الألفاظ.

وأقول لك أيضاً إنها تزعجني.

- أنت تكذب، وتعلم ذلك.

كان يعلم ذلك.

ثارت (بيبا) مذعورة وقالت:

- هل فقدت صوابك يا ابنتي؟

زايد (الباشا) فقال:

- كيف تجرئين على الكلام هكذا مع ضيفنا؟

فتدخَّلَ (تيوفان) بقوله:

- دعْ عنك هذا. إن (أنطونيا) لم تكن ترغب في أن تظهر عديمة

الاحترام، ولكنها فقط تعاملني معاملة النذل، أليس كذلك؟

- وأيضاً يجب عليك أن تكون في مستواي.

صَلَبْتُ (بيبا) ثلاث مرات وقالت:

- ابنتي! ابنتي! توقفي!

واصلت (أنطونيا) كلامها غيرَ مبالية باعتراض أمها فقالت:

- إضافة إلى أن ذاكرتك تخونك.

قال (تيوفان):

- تابعي.

فاستشهدت بقوله: «إن مَنْ يُصغِرُ إلى القلب يسمع أيضاً

الأسرار الأكثر سريةً عند الكائنات»، ثم قالت:

- والآن أنا جاهزة.

ثم أبدت تكشيرة ساخرة، وقالت:

- ما من فائدة. أنت لا تقدر الألغاز، وأنا لا أقدر علماء النفس

المزيفين، ولا علماء النفس الفجائيين أيضاً. ولا أؤمن أيضاً بعلم

النفس التحليلي أو قارئات الطالع: فالأولون يحملون دجلاً مُجازاً،

والأخريات يحملن محصول صيد ضحاياهن. وفوق ذلك، وكما

بيّنت لك للتو، إن الصفحات مُرْمزة، وأنا وحدي أملك المفتاح.

أنت (بيبا) وقالت:

- أرجوكما، لنغير الموضوع.

أيد (تيوفان) ذلك قائلاً:

- عندك حق. فقد أصبح الوقت متأخراً، وسأعود إلى البيت.

شكراً على العشاء. وأحبيك، أيها (الباشا).

تهكمت (أنطونيا) قائلة:

- لم تكن شجاعاً تماماً، يا دكتور (دبانة)، فنحن لا نزال في

المناوشات.

التفتت (تيوفان) نحو الفتاة الشابة نصف التفاتة، ونظر إليها
نظرة مطوّلة، وقال:

- اعلمي يا أنسة أنه متى يَضَعُ الغباءُ الذكاءَ يُصْبِحُ من
حَقِّ الذكاءِ أن يتصرّف بغباء. ليلتكم لطيفة. لسوف أمرُّ غداً
من أجل حُقْنَتِكَ.

(7)

انتفض وفتح جفنيه على الصوت المعدني لأجراس الدير،
القريبة جداً حتى كأنها تُقرَع في سقف غرفته. وفعلاً، لم
تكن لتتوقف قط. كان الدير، وهو بلا شك أقدس الأديرة في
(اليونان)، يقوم على بقايا معبد وثني مخصّص لـ (أرتيميس)
(¹³³) Artémis، إلهة الصيد وابنة (زيوس) (¹³⁴) Zeus! إننا نجد
دوماً، في هذا البلد، هذا التداخل المدهش في الأماكن والتقاليد.
كانت ساعة رأس السرير تشير إلى الثامنة والنصف صباحاً.
وهو لا يتذكّر أنه قد نام من قبل مدة طويلة جداً كهذه المرة.
«أنت لن تتوصّل إلى قراءة ما في داخلي، فصفحاته مُرمّزة.
وأنا وحدي أملك المفتاح».

كيف أمكن لـ (أنطونيا) أن تعرف أن المخلوقات الملقاة في الجحيم
تملك موهبة استثنائية: وهي قدرتها على فك رموز ما لا تكون
رموزه قابلة للفك. وكيف يرغب هو فيها؟ فقد كان يعيش داخل
العاصفة، وهي داخل الألام. إنهما غريقان في جزيرة طيّ النسيان.

(133) أرتيميس: هي كذلك في الأساطير اليونانية القديمة، وتقابلها (ديانا) Diane في
الأساطير الرومانية القديمة أيضاً (المترجم).

(134) زيوس: هو كبير الآلهة في الأساطير اليونانية، ويقابله (جوبيتر) Jupiter في الأساطير
الرومانية (المترجم).

وتمثالان حيّان. إن بعض التجارب توفّظ غالباً بعنفها وجعاً عميقاً لا يتمّ الشعور به كما هو، لأن المرء، تحت الصدمة، يقترب بقسوة من نهاية يعلم أنها صاعقة وجارفة. وهذا ما جعل من قوته وثقته بنفسه، اللتين تحطمتا ذات يوم من أيام شهر حزيران/يونيو من سنة 1983، لعبة طفلٍ مبتدلة بين أيادٍ متوحشة.

قفز (تيوفان) خارج سريره وصاح: «تيمور!»، ولم يكن هنالك جواب. فذهب إلى غرفة الفتى المراهق، فكانت خالية. وفكر: «أنا أهذي. أنا أهذي، كيف يمكن أن يكون هنا؟».

شرب واقفاً فنجاناً قهوته المعتادين، وأخذ رشاشاً (دُوشاً) وتوجّه إلى هناك، عند (مانوليس)، فقد كان (جيهول) بالتأكيد يفحص بأرجله الأرض من الملل.

في الحقيقة، كان ينتظره في وسط المرح الذي كان يجاور مزرعة الفلاح. إن (مانوليس) رجل لطيف. ولو لم يكن قد قبل أن يضيّف (جيهول)، لكان وجود الحصان في الجزيرة قد تمّ التخلي عنه.

قال (مانوليس):

- ماذا، أيها الطبيب، هل نمت إلى الضحى؟

- مرة واحدة في ثلاث سنوات. وأعترف بأن هذا نادر.

- كفى! لستُ أنا مَنْ يلومك (وأشار الفلاح إلى الحصان)،

عليك أن تقدّم الحساب إليه. لقد اختلط عليه الأمر تماماً. أسوأ من عاشق خجول أمام حبيبته.

- لا عليك! إنني أعرف كيف أعتذر.

تحرك (جيهول)، وهو يضحك، وكأنه قد فهم أقوال (تيوفان).

قال (مانوليس):

- هذه العلاقة التي يحافظ عليها كلُّ منكما أمرٌ لا يُصدَّق.

وهذه هي المرة الأولى التي أرى فيها ذلك. فهل تتكلَّم بلغته؟
تبسّم الطبيبُ وقال:

- أنتَ لن تصدِّقَ إن قلتُ لك إنني أتكلَّم لغة الحصان في

الحقيقة، أو بالأحرى لغة الـ (equus)⁽¹³⁵⁾. وقد كان التعلُّم طويلاً.

- إن كنتَ تقول ذلك، فما أراه أنا هو أنك تمارس عليه قوة

هيمنة واضحة. إنه يخشاك.

هز (تيوفان) رأسه، وقال:

- أوه.. بالطبع لا! لأنه لو كان يخشاني لما كان بالإمكان

أن يكون بيننا تواصلٌ. والسريكمُن في العكس، أي في الثقة.

فالحصان هُلوعٌ، والإنسان وحشٌ. فإن رغب في الحصول على

ثقة الحصان، فعليه أن يجتاز على الأقل نصف الطريق الذي

يفصل بينهما، محافظاً تماماً على الإفادة من حقيقة هي

أنه في مواجهة حيوان جُفول. وأريد أن أعهد إليك بسرٍّ آخر.

اتبعني!

عندما وصل (تيوفان) أمام (جيهول)، بدأ مطوِّلاً بمداعبة

عنقه، ومسحَّ خده إزاء فمه، وهمس إليه بكلمات محبة، ودغدغه

أيضاً، ثم التفتَ إلى اليوناني، وقال:

- راقب.

وضع الطبيب راحة يده على جنب الحصان وتظاهر

بدفعه. وفوراً، وبشكلٍ مستغرب، بدلَ أن يبتعد، قاوم (جيهول)

الضغط.

(135) كلمة لاتينية تعني بالضببط (الحصان) أيضاً (المترجم).

قال (تيوفان):

- هل رأيتَ؟ من خلال هذه الحركة البسيطة، هنالك حيلة في الحقيقة، فقد حصلت منه على ما كنتُ أتمنى بالفعل: وهو ألا يضرَّ مني، وأن يسعى، على العكس، إلى التقرب مني. أبعُدْ عنك حصانك، ستدفعه غريزته لأن يُقبل عليك. وهي غريزة ترجع إلى الأزمنة السحيقة.

وكان (مانوليس) يهز رأسه مراراً.

قال (تيوفان):

- في الحقيقة، يشبه ذلك ما في الحياة الغرامية: أُغْرِبْ عني، أَتْبِعْكَ، وَأَتْبِعْني، أُغْرِبْ عنك. إنها تقنية العشق القديمة.
- بالضبط!

ثم إن اليوناني حكَّ رأسه، وهو مرتبك، وقال:

- القول سهل، ولكن التطبيق..

فردَّ (تيوفان) وهو يمتطي الحصان:

- صبراً، يا (مانوليس)، صبراً! وهنا يكمن السر الحقيقي! طرَّقَ الطبيب لسانه، وقام بضغط خفيفة من بطَّة ساقيه على جنبي (جيهول)، فانطلق مصدراً صهيلاً خفيفاً فهمه (مانوليس) بأنه زفرة سعادة.

* * *

لم تكد الساعة تبلغ الثانية عشرة والنصف عندما أنهى (تيوفان) عياداته. وقد اجتاز عتبة نُزُل (إيبيفانيا). وكان عليه تذكُّر أن يسأل (بيبا) عن سبب هذا الاسم الغريب.

وفي الأعالي، كانت السماء تميل إلى السواد. فمنذ العشية، شكَّ الهواء الحارَّ المتراكم سُحُباً كثيفةً كان بعضها يجري

ببطء فوق بعض، تدفعها يد غير مرئية. يكاد المرء يختنق.
سيحدث بعد قليل التضجر المفيد.

رَكَن (تيوفان) دراجته إزاء جدار المدخل، وسار في الممر.
جَرَتْ (بيبا) نحوه قائلةً:

- دكتور (دبانه)!

وفي كل الأحوال، كان عليها أن تراقبه. وعند التراجع، رأى
قائمة (أنطونيا) جامدة على عكازيها.

- لقد تمّ استدعاؤك. لأمر عاجل جداً. هنالك سيّد يدعى
(ديمتري) يقول إنه يموت.

أظلم نظر (تيوفان). ولما كان على علم بموقف صديقه
الرافض إزاء الأطباء، أدرك أن الأمر جاد.

قال:

- هل يمكنني استعمال الهاتف؟

ردّت (بيبا):

- بالتأكيد. اتبعني!

أعلن (تيوفان) لـ (أنطونيا)، وهو يمر بها، قوله:

- لدي انطباع بأن موعد زيارتي لك قد ألغي.

سَمِعَ قَضْفُ رَعْدٍ. لا تستطيع السماء سرعة الغضب أن
تكبت كتل الماء أكثر. عندما أدخل (تيوفان) رقم صديقه، بدأت

القطرات الأولى الرائعة من المطر تنزل.

صوتٌ، لا، كان هنالك رنين في الطرف الآخر من الخط.

قال (تيوفان):

- هيا، يا (ديمتري)، ماذا جرى لك؟

- أسرع.. أسرع، أيها الطبيب، لسوف أموت.. إنني..

- اهدأ. حاول أن تشرح لي.

- إنني.. إنني..

- ألو؟ (ديمتري)؟

انفصل الخط.

التفتَ الطبيبُ إلى (بيبا)، وقال:

- عليّ أن أذهب.

دوَّى قصفُ رعدي آخر، أشدَّ غضباً من السابق، وفجأة تحطّم
حاجزُ السُّحْب. وأثار الضوءُ المكان، في حين إن أعاصير كانت
تنصبُّ على الجزيرة.

قدّمتُ (بيبا) نصيحة لـ (تيوفان) قائلة:

- لا يمكنك الذهاب على دراجتك، مع هذا المطر المنهمر،
فخذُ سيارتي.

- سيارتك؟

- أجل، لقد أحضرتها من (أثينا). إنها سيارةٌ قديمة، ولكنها

تسير. هيا!

ثم أخذتُ حزمةً من المفاتيح معلقةً قرب باب المدخل وناولته
إياها، وقالت له:

- إنها مركونة أمام الباب. وهي من نوع (فيات باندا)⁽¹³⁶⁾ Fiat

Panda حمراء.

(136) فيات: شركة إيطالية لتصنيع السيارات أُسِّسَتْ سنة 1899 في مدينة (تورينو) Torino الإيطالية، وكان عدد مؤسسيها ثلاثين، ويرأس مال قدره (800.000) ليرة إيطالية، تولى رئاسة مجلس إدارتها سنة 1902 (جوفاني أنيلي) Giovanni Agnelli الذي كان رجلاً ديناميكياً، أراد أن تتدارك إيطاليا الفتية - بعد توحيدها - التخلف الصناعي في هذا المجال عن جارتها (فرنسا) و(إيطاليا)، وكانت فكرته تقوم على إنتاج سيارات شعبية تستخدم من أكبر عدد ممكن من الناس، وبأسعار مناسبة. أما طراز (باندا) من (فيات) فقد تم تصنيعه في ثلاثة أجيال ما بين سنتي 1980 و2003 فقط. ولهذه الشركة تاريخ طويل ومتنوع إلى يومنا هذا (المترجم).

ثم إن صوت (أنطونيا) انطلق فوراً يقول:

- خذني معك!

نظر إليها (تيوفان) مرتبكاً وقال:

- أنتِ لستِ جادة.

- خذني!

لم يكن الأمر يتعلق بطلب، وإنما بالتماس. كانت الفتاة الشابة تترنح، وهي مستندة إلى عكازيها، ومنحنية إلى الأمام، وكأنها على حافة هاوية. لم يسع (تيوفان) إلى فهم ذلك، وقال بعدئذ:

- اتفقنا!

لم تجد الأم، التي دُهِشَتْ، شيئاً تقوله سوى:

- كن حذراً، أرجوك.

- لا تقلقي، كل شيء سيسير على ما يُرام.

وخلع سترته الكتانية وغطى بها رأس (أنطونيا) وكتفها. على الرغم من حركة مساحات الزجاج المسعورة، فقد أُجهدت من إزالة المطر من واجهة السيارة. فكان المرء يرى من خلالها بصعوبة. وكان صوت عناصرها يصير، وكان (تيوفان) يقول في نفسه إن هذا الصوت يحتوي ربما على جواب عن تساؤلات الناس. قال وعيناه مثبتتان على الطريق:

- مشهد رائع.

أيدت (أنطونيا) قوله برفقة من جفنيها، قائلة:

- هل شاهدت من قبل مثل هذه العاصفة؟

- لم أشاهد قط أعنف منها.

علقت بصوتٍ بعيدٍ، قائلة:

- إنها القوى العمياء والتي لا تقهر في الحياة.
- أنت لن تُصدِّقي إن قلتُ لكأني نسيْتُ أن أعطيك الحُقنة بسبب ذلك.

- لدينا متسعٌ من الوقت بعد العاصفة. وهي عموماً لن تطول.

- في هذا الصباح، وأثناء نزهتي مع (جيهول)، كان الجو مشرقاً.

رَمَشْتُ وقالت:

- (جيهول)؟

- إنه حصاني.

- أنت تركب حصاناً؟ هنا؟

قال (نعم) برأسه. فقالت:

- لا يمكن القول إن المساحات الواسعة تتوافر في (باتموس)،
لنتمكن من العدو لمدة طويلة.

- ليست هنالك حاجة إلى العدو كي يُحسَّ المرء بالراحة.
(جيهول) يعتني بي تماماً بسير الهوينى أو السرعة.

- يعتني بك؟

- (جيهول) هو طبيبي.

- هل تسخر مني؟ هل تنتقم ليوم أمس، صحيح؟

- الرحمة! لا تبدئي ثانية. أنا أخبرك بالحقيقة، إن ركوب الحصان يريحني ويخفف من عصبيتي.

- الأنتك عصبى؟

- مثلك، ومثل أغلبية الناس. فبعضهم يعتني بنفسه،

وآخرون يعملون في السياسة أو الفن.

ثم نظر إليها بطرف عينه.
- أنت ترين، يا (أنطونيا)، لنحدِثْ من المظاهر، فقد تكون
حقيقية.

* * *

وجدا (ديمتري) راقداً على جنبه وقد ثنى ساقيه على بلاط
الصالون، ووجهه متغيّر من الوجع.
جثا (تيوفان) على ركبتيه قُربه، وقال:
- هانذا، يا صديقي. أين الألم؟
- في الظهر. إنني أحترق. إنني..
ثم صاح:

- إنني أموت، أيها الطبيب، إنني أموت!
استفهم (تيوفان)، وهو يقيس النبض، قائلاً:
- هل كنتَ قد سقطتَ؟

- لا. لا. لا.. عندما.. بدأ هذا.. وكنتُ مشغولاً ب..

وأمسك بذراع الطبيب مثل غريق، وقال:

- .. فقط كنتُ مشغولاً بالتبول. و..

نقر (تيوفان) بأصابعه المنطقة القطنية⁽¹³⁷⁾ منتزِعاً صرخة
من الرجل التعس، ثم جسَّ البطن. وسأل:
- هل زاد الألم؟

- لا. نعم! لا أدري. فالألم في كل مكان.

- أرجوك، كن أكثر تحديداً.

- في أصل الفخذ، ولكن أيضاً في الوسط! سأموت!

(137) المنطقة القطنية: تتكون من خمس فقرات خالية من الأضلاع في أسفل العمود الفقري وتتصل بالحوض مباشرة (المترجم).

- لن تموت. هل يمتد الوجع من أسفل الظهر، على مستوى المنطقة القطنية، إلى أصل الفخذ؟ صحيح؟
قال (ديمتري) وهو يلهث:

- نعم، نعم.

تأمل (تيوفان) بضع ثوانٍ، ثم نهض. فقال (ديمتري):

- إلى أين تذهب؟ لا تتركني!

- لا شيء يثير الذعر. أنا عائد.

وهو يجتاز الغرفة، لمح (أنطونيا) جالسة فوق كرسي موسد ويدها تقبضان على ذراعي الكرسي. قالت:

- ما.. ماذا ستفعل؟

ردّ وهو يبتسم:

- معجزة.

وبعد بضع دقائق، ظهر ثانية في الصالون. وقال وهو يجثو على ركبتيه مرة أخرى قرب (ديمتري):

- يجب عليك أن تنهض. وسوف أساعدك.

- أتريد موتي؟ أليس كذلك؟ أنهض؟ لسوف أستفرغ..

- يجب أن تفعل، يا (ديمتري)، هيا!

- لا!

- إن كنت تريد تخفيف المك فاطع!

قام (تيوفان) بوضع ذراعاه حول (ديمتري)، واستجمع قواه لمحاولة إنهاضه. ولكن عبثاً.

قال له:

- إنك تزن طنيناً ولكم كنت أنصحك بأن تخفف وزنك!

- توقّف!

ويجهد خارق، ووجهه مُقَطَّبٌ، وعناء، نجح اليوناني في أن يبدأ بالوقوف. وقال:

- لسوف أموت، بسببك!

- خذ، اتكئ عليّ.

- إلى أين تأخذني؟

وجعٌ متحوّلٌ انتزع منه صرخة جديدة. وأنّ قائلاً:

- يا أمي!

- تشجّع! انتهى تقريباً.

في قاعة الاستحمام كانت تنطلق أبخرة الماء الحار. أجلس (تيوفان) صديقه على حافة حوض الحمّام وساعده في خلع ثيابه. وبعد أن اطمأن إلى أن درجة الحرارة أصبحت حارّة بما يكفي، قال له:

- ادخل في الحوض!

كان (ديمتري) على وشك أن يقاوم، لكنه نفذ الأمر بإذعان.

- والآن، استرخ. تنفّس. استرخ..

- الماء يغلي!

- لسوف تتعوّد. تنفّس بعمق.

أغلق اليوناني عينيه.

ومرّت دقائق طويلة. وشيئاً فشيئاً أصبح التنفّس أكثر

انتظاماً، واسترخت ملامح وجهه.

- هل أنت أحسن؟

حنى (ديمتري) رأسه بهدوء. بهدوء متناه، وكأنه كان يخشى

أن توقظ حركة مباغتة الوجع. وأخيراً، وبعد ربع ساعة، كان يبدو

أكثر صفاء. وفي الخارج، كّف المطر عن الهطول وابتعدت العاصفة.

صَبْر (تيوفان) أيضاً بضع دقائق، ثم قال:

- هذا جيد. يمكنك الخروج.

- ما زلت أتالم.

- طبيعي. وسوف أعطيك مضاداً للتشنج. ارتدِ شملة

الحمّام واذهب وتمدد.

- هل يمكنك أن تشرح ما حصل لي؟

- لقد وُلِدْتُ.

- ماذا؟

- أنا أمزح. لقد عانيت من أزمةٍ مِغصٍ كُلْوِيٍّ. وهي تُشَبِّهُ فِعْلاً

آلام الولادة.

- هكذا؟ ودفعة واحدة؟

- عندما تتبول، هنالك حِصَاةٌ مَتَمَوْضِعَةٌ في الحالب

وتتحرك تحت الضغط، وعندما تحاول شق طريق لنفسها،

فإنها تحتك بجدار تلك القناة.

- اللعنة! وحتى متى سوف أحتفظ بها.. هذه الصخرة؟

أخذ الطبيبُ بذراع (ديمتري) وسحبه نحو الصالون،

وقال:

- ليس وقتاً طويلاً. وإن لم تُعَقِّدني، فسينتهي الأمر بطرحها.

سأحضر لك هذا المساء بعض مضادات الالتهاب. ويانتظار ذلك،

ستبقى هادئاً تماماً. موافق؟

فتح اليوناني فمه ليجيب وعندها أدرك وجود (أنطونيا)،

فقال:

- ما.. مَنْ هذه؟

قال (تيوفان):

الرجل الذي كان يَنْظُرُ إلى الليل

- أقدم لك (انطونيا فاسيلي)، ابنة السيدة (فاسيلي)، المالكة الجديدة للنزل الواقع أسفل القلعة.

قال (ديمتري) وهو يدس يداً واهنة في يد الفتاة الشابة:
- تَشْرَفْنَا.

تناول (تيوفان) كبسولة مضادة للتشنج من حقيبته الجلدية،
وقال:

- تمدد. لسوف أحضر لك كأس ماء.

تكلف اليوناني ابتسامةً للمرأة الشابة وانسحب إلى غرفة
نومه.

* * *

عندما أقلع الطبيب بالسيارة، اعتذر قائلاً:

- آسف إن كنت قد فرضت عليك هذا المشهد.

- لا تعتذر. فالتجربة كانت تستحق أن تُعاش. إلى أين نذهب؟

- ما رأيك في الذهاب إلى (غريكوس) Grikos؟

- لا يمكنني أن أجيبك. فنحن هنا منذ أكثر من عشرين

يوماً ولم أضع أنفي خارجاً⁽¹³⁸⁾.

- إنها قرية صغيرة للصيادين، ساحرة جداً.

- كما تشاء.

فابتسم، وقال:

- هل كان ذلك سبباً لإصرارك على أن أصحبك؟

- ماذا تعني؟

- أنت لم تخرجي منذ وصولك إلى الجزيرة. وأنا أستخلص

من ذلك إذن أن الرغبة قد أصبحت لا تقهر.

(138) كناية عن عدم الخروج خارج المنزل لمعرفة الأماكن والناس (المترجم).

- آ.. نعم، بلا شك. في الحقيقة، لا أعلم شيئاً عن ذلك.
ولا أدري ما اجتذبتني.

ثم غَيَّرتِ الموضوع، سائلة:

- هل يعيش صديقك وحده؟

- نعم. ولكن لم تكن حاله دوماً كذلك. فقد كان متزوّجاً.
وذات صباح، عند العودة من الكَرْم، وجد المنزل فارغاً. كانت
قد غادرتَه.

- من أجل رجلٍ آخر كما هو واضح.

- لا. وإنما من أجل نفسها. لقد كانت تقول إنها قد اختنقت،
وإنها قد ذُوِيَتْ على هذه الجزيرة، وهي تمضي أيامها تعمل في
الكرم. ومن ثمّ تفاقمت أحوالها النفسية عندما اكتشفت أن
(ديمتري) لم يكن بمقدوره إنجابُ أطفال. وكان هذا على وجه
الاحتمال العنصر الحاسم. ولم تكن تستطيع أن تتصوّر أن
تواصل حياتها معه رأساً لراس.

قالت (أنطونيا):

- إنني أتفهّمها. هنالك أنواع كثيرة من السجون، والحياة
الزوجية واحد منها.

أخذ (تيوفان) يضحك، وقال:

- ماذا تعرفين عن ذلك؟ فأنا أتصوّر أنك لم تعيشي قطّ مع

شخص.

فرمته بنظرةٍ تقدح شرراً، قائلة:

- أنت حقاً غيبي.

ضربتُ فخذيها الهامدين، وقالت:

- إنه بسبب هذا.

- على الإطلاق، إنني..
- بلى! تحمّل! إنك تعتقد أن أحداً لا يمكن أن يحسّ برغبة في معاقبة! إنها بلا قيمة، ويصبح مجرد وجودها إهانة في عيون الآخرين. اعترف بذلك أيها الطبيب!
- اسمعي، يا (أنطونيا)، ليس هذا مطلقاً ما..
- إذًا، لماذا هذا التأكيد؟ أجب.
- تلعثم (تيوفان)، وقد اضطرب من العدوانية الحاصلة من الفتاة الشابة، فقال:
- هذا.. كنتُ أفترض..
- همّت (أنطونيا) بفتح باب السيارة، وقالت:
- أوقف السيارة!
- اهديني! هذا غير معقول! لا يمكنك النزول هنا!
- إذن، أوصلني إلى البيت! لقد اقترفتُ خطأ بالخروج معك.
- وأنا أرى بحق أنك لا شيء!
- هذا يكفي!
- لم تكفّ (أنطونيا) وقالت:
- خلال لحظة، واحدة فقط، تصوّرتك مختلفاً عن الآخرين.
- ثم قالت بقوة:
- أنت لا شيء!
- أوقف (تيوفان) السيارة بقسوة، وأطفأ المحرّك، وصرخ هائجاً:
- تباً لك! من تحسّبين نفسك؟ هل تتصوّرين أن كل شيء مسموحٌ به لك بسبب إعاقتك؟ وأن على الناس أن يجثوا على ركبهم أمام أعضائك التعيسة ويلتمسوا العفو؟ لا، يا (أنطونيا)!
- أنت مخطئة تماماً.

- اِخْرَسْ!

- لا بأس! اسمعيني للأخيرا اذكري جيدا هذا: أطفال الضحايا لا يتمتعون بأي حق، وليس عليهم سوى الواجبات. هل تعلمين ممن أخذت هذه الجملة؟ لقد أخذتها من يهودي عجوز ناج من معسكرات الاعتقال. إنك ابنة نفسك! نعم، أعلم، الوضع غير مريح، ولكن هكذا هو.

- اِخْرَسْ!

- ويقدر ما تقضين بقية حياتك تتأملين وضعك البائس، بقدر ما تقررين طرح نظرتك على الآخرين.

وضعت يديها على أذنيها، وقالت:

- إنني لا أسمعك!

- ولكنك تسمعيني!

أخذ نفساً عميقاً، وقال:

- عزيزتي (أنطونيا)، الإنسانية جرح حي وكل الناس الذين يكونونها ينزفون بطريقتهم. صدقيني، أنا أعرف عن أي شيء أتحدث.

وخلص إلى القول بنفثة:

- هأنذا، ومنذ ثلاث سنوات، لم أتوقف عن النزف.

وساد الصمت. وأرخت قبضتها وبقيت صامته إلى أن انتزعهما من صمتهما صوت منبه سيارة.

رفع (تيوفان) عينيه نحو المرأة العاكسة فرأى شاحنة صغيرة كان قد نفذ صبرها. وعندما أدار مفتاح التشغيل، سألت (أنطونيا):

- هل قرية (غريكوس) بعيدة من هنا؟

(8)

كانت السُّحْبُ الأخيرة تحاول أن تقاوم ضربات الشمس العنيفة المنبعثة. هنالك مساحات من السماء تتلَوْنُ بأكملها باللون الأزرق، وقرية (غريكوس) تَغْبَقُ برائحة نبات الزعتر. وقبل بضع دقائق، وعلى بُعد كيلو متر من القرية، سدّ قطع من الخراف عليهما الطريق. وبينما عبرته الحيوانات ببطاء، اقترب الراعي العجوز، متوكِّناً على عصاه، من السيارة، وطلب إلى (تيوفان) بطريقة هي الأكثر طبيعية في العالم، قائلاً:

Ena tsigaro ، se parakola -⁽¹³⁹⁾

فقدّم له الطبيب واحدة. وبدلاً من أن يشعلها، وضعها الراعي في جيب قميصه، فسأله (تيوفان):

- لم لا تُدخنها؟

- إنني أحتفظ بها ليوم الأحد.

وبينما هما ينطلقان، أبدت (أنطونيا) ملاحظة وبشيء من السخرية، قائلة:

(139) قال الراعي طلبه هذا باليونانية، وكتب المؤلف نطقه بالحروف اللاتينية المثبتة، وكتب بعده ترجمته الفرنسية التي تعني بالعربية: (سيكاره، من فضلك)، وهذا الطلب باليونانية هو (σας παρακολαοράτσιγανέ.) (الترجم).

- من المؤسف أن أحداً من (تكنوقراطيينا)⁽¹⁴⁰⁾ لم يشاهد هذا المنظر. ولو شاهده لربما دخل قليل من الإنسانية في عقله المبرمج. إنني أحلمُ بلا شك.
أيد (تيوفان) ذلك قائلاً:

- فعلاً، أنت تحلمين. إن هذا المنظر يذكّرني من ناحية أخرى بظرفة قديمة: فذات يوم، كهذا اليوم، وجدتُ سيارةً وراكبها هما أيضاً قطيعٌ أغنام يسدُّ عليهما الطريق، مع فارقٍ وحيد هو أن ذلك القطيع كان يتقدمه كلبٌ. والراعي، الذي لم يكن يبالي باحتجاجات السائق، حجز أغنامه في مرج. فاتّبَعَه السائق، وهو خارجٌ عن طوره، وانتهر الراعي قائلاً: «لقد هَوَّتْ عليّ موعداً ذا أهمية قصوى بغلطتك. وأيضاً أقترح عليك أمراً: أعطني أبعاد مرجك وسوف أذكر لك بدقة متناهية كم خروفاً تملك. فإن عرفتُ، فسوف آخذ واحداً من أغنامك بصفة تعويض». وعلى الرغم من كون الراعي مرتاباً، فقد لبى طلبه. وحينئذٍ أخرج الرجل آلة حاسبة، وأخذ يضغط أزرارها بقوة، وأعلن بغطرسة أن عدد الخراف «اثنتان وخمسون». وقد أقر الراعي المسكين، وهو مذهول، بهزيمته، وأشار إلى القطيع، قائلاً: «موافق، تصرّف!». وهكذا تصرّف الرجل، وانطلق منتصراً نحو السيارة. وفي الحال، لحق به الراعي وريّت على كتفه وسأله: «قل لي، يا سيدي، ألسنتٌ واحداً من هؤلاء (التكنوقراطيين) اللامعين الذين يحكموننا؟». ارتبك الرجل، وأيد قوله، ودُهِشَ بدوره، فسأله: «كيف عرفتَ ذلك؟»، فابتسم الراعي وأجاب بقوله: «لأنك إنما أخذت الكلب!».

(140) التكنوقراطي: المسؤول المهتم بالجوانب التقنية من الأشياء (المترجم).

وعلى فم (أنطونيا)، ووَرَدَ الشفاه، ظهرت ابتسامة، وهي تقول:
- تعاسةُ الشعوب تلخصت في بضع كلمات.

* * *

فيما عدا رجلين كانا يلعبان الورق، كان المطعم - المقهى خالياً. فأخذ (تيوفان) و(أنطونيا) طاولة في زاوية منعزلة، في مأمن من الريح.

رسا زورق صغير على الشاطئ. ونزل منه زوجان في العشرينات من العمر، وهما يضحكان بصوت عالٍ. إنهما سائحان بالتأكيد. كان جلدتهما فاتحاً جداً، وليسا من سكان الجزيرة.

سألت (أنطونيا) فجأة:

- هل تأتي إلى هنا كثيراً؟

- أحياناً. إنني أحب هذا المكان. وحسب المتاح بالتأكيد.

خيم الصمت.

طلب (تيوفان) كأساً شراب، وحينئذٍ قالت (أنطونيا):

- لقد كنت مخطئاً.

- مخطئاً؟

- نعم، كنت مخطئاً حين تركت نفسك تفهم أنني كنت أسعى فقط إلى الخلاص. والسبب شيء آخر. لقد سمعتك أمس مساءً عندما كنت تتناقش مع أمي و(الباشا). فقد تحدثت عن البصمات التي يزيلها الزمان أو التي يجدها المرء وقد تَلَفَتْ. وضربت لذلك مثلاً من تلك المرأة المحبوبة والمفقودة التي ظهرت ثانية بعد سنين.

قال (تيوفان) مبدياً رايه:

- اعترف بأنني لم اكن أتصوِّرك..

- صريحةٌ جداً؟

- بل قلقةٌ جداً. لقد كانت كلماتك تشبه الكلمات التي تلازم الليالي التي قضيتها، والتي أفضيتها في سؤال نفسي: «مَنْ أنا؟».

تلك الليالي التي أنام فيها وأنا أدعو ألا أستيقظ منها.

وهمٌ بالجواب، ولكنها أوقفتها فجأةً بإشارة من يدها، قائلة:

- لا! لا تقل شيئاً. لسوف أكون صريحة معك. إن واحداً من

تأكيداتك لا تزال تعاودني.

شربتُ جرعةً من الشراب بطرف شفيتها، وقالت:

- هل كنت جاداً وأنت تؤكد قدرتك على فك رموز أسرار قلبي؟

فأكد لها ذلك بقوله:

- تماماً. إنني أسمعك.

- إنها شائعات.

- شائعات؟

- فقط أنت لم تكن تعرف من قبل: شعوراً بالظلم، والغضب،

والحقد الذي ينهشك، ويشوه عظامك ويحطمها أيضاً بالتأكد.

رداً قائلاً:

- اعذريني. إن الأمر يتعلق بمرض لين العظام.

- إنني أتحطم إذا.

- بصورة ما، نعم. وفي كل يوم أكثر قليلاً.

- هذا كل شيء؟

- يستشف المرء أيضاً إرادةً حديدية مكتومة واستعداداً واسعاً

للعطاء. هو أيضاً محبوس.

- الحق معك تماماً فيما يتعلق بغضبي الداخلي. ويقع

الخطأ على هذا الجسد الذي أجرجره. ولا حاجة إلى أن يكون

المراء وسيطاً روحياً أو طبياً لبيان ذلك عنه. وفي المقابل، البقية..
فأنا لم تُتَحَ لي الفرصة لأن أعطي أحداً ما ينبغي، ولا يمكنني
أن أحكم على قُدراتي في هذا المجال.

- في سن السادسة والعشرين. الحياة..

- الرحمة! لا تعرض لي العبارات الجاهزة (الكليشيات)
غير المعقولة التي تُقال على الناس في مثل عمري كما يُقدّم
المراء رِبْتَةً مودةً لقلبه. أي حياة؟ في أي شيء يفيدك الطريق،
ما دُمْتَ تُحْتَضِرُ، وكنتَ متسماً في مكانك؟ إن «الصَّلْصَالُ لا
يصبح صالحاً لصنع تمثال إلا بعد أن يُعَجَنَ»، هذا مثل يوناني
قديم. إنك تقترض أن صانعي الضَّخَّار يهريون، في مثل حالتني.

أشار (تيوفان) إلى كأسها الفارغة، وقال:

- كأساً أخرى؟

- نعم.

حدّقتُ (انطونيا) فيه بفضول، وقالت:

- قل لي، يا دكتور (دبانه). مَنْ أنت؟

فأطلق ضحكة مُتَكَلِّفة، وقال:

- أنا الدكتور (تيوفان دبانه). لاجئ طواعيةً إلى جزيرة في الـ

(دوديكانيز)⁽¹⁴¹⁾ Dodécanèse منذ ثلاث سنوات.

- أظن أنني فهمت أنك كنتَ متزوجاً وأنتك انفصلت، لماذا؟

إنني فضولية؟

- فضولية، بالتأكيد.

- هل خنتها؟

(141) الدوديكانيز: اسم يطلق في الفرنسية على أرخبيل الجزر اليونانية في بحر (إيجة) الذي يشكل جزءاً من البحر الأبيض المتوسط بين تركيا واليونان (المترجم).

- ليس هذا هو سبب رحيلها.
- إذا؟

* * *

(نوبة تذكُر) (142).

- وَغَدُ! أَنْتَ وَغَدُ، يَا (تِيوفَان)! وَغَدُ وَمَرِيضٌ. مَرِيضٌ بِالغُرُورِ،
مَرِيضٌ بِالغَطْرَسَةِ الَّتِي لَا حَدَّ لَهَا! لَقَدْ دَمَّرْتَ حَيَاتِنَا. إِنَّكَ وَخَشٌ.
- اِسمِعِينِي، أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ، الرَّحْمَةُ، اِسمِعِينِي..
- لَا! لَا أَرِيدُ أَنْ أَسْمَعَ شَيْئًا أَكْثَرَ. إِنِّي رَاحِلَةٌ. سَأَتْرِكُ لَكَ
كُلَّ شَيْءٍ. مَا لَكَ وَبِيوتِكَ، كُلُّ شَيْءٍ! وَالشَيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي أَتَمَنَاهُ
لَكَ، هُوَ أَنْ تَمُوتَ، عَلَى نَارِ هَادِئَةٍ. بِيَطءٍ. وَإِذَا مَا اعْتَرَضَتْ يَوْمًا
طَرِيقِي، فَعِنْدَئِذٍ أَنَا الَّتِي سَتَمْتَلِكُ.

* * *

- دكتور (دِبَانِه)!

جفناه ارتعشت، وقال:

- اعدريني. ماذا قلت؟

- لا شيء. إنني بالتأكيد فضولية.

أمعنت النظر فيه لحظة، ثم قالت:

- هل تعلم بمن تُذكرني؟

- أسمعك.

- بـ (أوريست) (143). Oreste.

(142) ما بين القوسين زيادة من عندنا لبيان السياق الذي جرى بينه وبين زوجته قبل أن ترحل عنه وتغادر منزلهما (المترجم).

(143) في الأساطير اليونانية القديمة، ذكر في (الإلياذة) l'Iliade ان (كَلَيْتَمَنْسْتَر) Clytem nestre زوجة (أغاممنون) Agamemnon، قائد اليونانيين خلال حرب (طروادة) Troie، قامت بقتله من أجل عشيقها، فقامت ابنتها (البيكترا) lectreÉ بتحريض أخيها (أوريست) على قتل أمهما هذه انتقاماً لأبيهما (المترجم).

- (أوريست)..

- لقد كان الابن الأخير لـ (أغاممنون) و(كليتمنستر). ولم

يكن سوى فتىً مراهقٍ عندما قتلت أباه، وهو عائد من حرب

(طروادة)، (كليتمنستر) و(إيجيست) Égisthe عشيقها. وعندما

بلغ (أوريست) سنَّ الرشد، وبناء على نصائح (أبولون)⁽¹⁴⁴⁾

Apollon، قرَّر الثار لقتل أبيه⁽¹⁴⁵⁾. فعاد سراً إلى (ميسين)

Mycènes⁽¹⁴⁶⁾، وقتل (كليتمنستر) و(إيجيست).

أشار (تيوفان) إلى النادل ليقدم لهما خدمة مرة ثانية، وقال:

- شيء مثير للاهتمام. غير أنني لم أقتل لا أمي ولا

عشيقتها.

- صبراً، لسوف أجدك في بقية القصة. أصاب القتلُ المزدوج،

الذي اقترفه (أوريست)، الآلهة بالرعب، وحينئذٍ قررت أن تعاقبه،

فأرسلته إلى الـ (إيرينيات) les Érinies..

- الـ (إيرينيات)؟

- إنهن ربات الانتقام. وهن لا يعرفن سوى قانونهن الخاص

ويعاقبن من يخرقهن.

- آ..

- وهن يظهرن ليلاً ويختفين عند الفجر. ويا لتعاسة من

يقع تحت مخالبتهن. ولما كان ملاحقاً بلا انقطاع، وقد أصبح

فريسةً لنوبات جنونٍ عابرة، حاول المسكين (أوريست) أن يهرب

(144) أبولون: هو في الأساطير اليونانية القديمة إله النور والموسيقى والشعر (المترجم).

(145) نلاحظ هنا اختلافاً صريحاً فيمن حرَّض (أوريست) على الثار لقتل أبيه ما بين أخت

(أوريست) و(أبولون) (المترجم).

(146) ميسين: مدينة قديمة في اليونان، كانت أول مركز للحضارة الهلينية التي تدعى (الحضارة

الميسينية) (المترجم).

منهُنَّ: إلى (أثينا)⁽¹⁴⁷⁾ Athènes، إلى (دلف)⁽¹⁴⁸⁾ Delphes،
وحتى أيضاً إلى..

أرسلت نظراتها إلى عيني (تيوفان) وأعلنت قائلة:
- إلى (باتموس).

مدَّ (تيوفان) ساقيه وهو يسند رأسه إلى الحائط. وتفاجأت
هي بمشاهدة كم انقبضت ملامح وجهه فجأة. وقد ردَّ عليها
بلهجة عدم اكتراث قائلاً:
- إن قصَّتكَ ممتعة. ولسوف أتذكُّرها. وهذا التعسُّ (أوريست)،
كيف انتهى به الأمر؟

- بناءً على نصائح (أبولون)، المحرَّض على القتل المزدوج،
عاد إلى (أثينا) واستسلم لحكم الـ (أريوباج)⁽¹⁴⁹⁾ l'Aréopage.
وأجريت محاكمة كان (أبولون) يتولَّى فيها دور المدافع. وفي
مرافعة رائعة، أنكر تهمة قتل الأم وذلك بجحده على الأم، في
مثل حالة (كليتمنستر)، أي أهمية. وأعلن أن أيَّ أم لا تمثل شيئاً
آخر سوى ثلم يلقي فيه الزوج بذرته، وأن عمل (أوريست) يبدو
مسوِّغاً تماماً، فالأب هو القريب الوحيد الجدير بهذا الاسم. ثم
حوَّل الأمر إلى التصويت الذي أعطى عدداً متساوياً مع الحكم
وضده. وحينئذٍ تدخلت الإلهة (أثينا)⁽¹⁵⁰⁾ Athéna، وصوتت
لصالح (أوريست)، فتمَّت تبرئته.
- إن الفداء ممكنٌ دوماً إذاً.

(147) أثينا: مدينة من المدن الشهيرة في اليونان القديمة، واتَّخذت عاصمة لها في العصر الحديث (المترجم).

(148) دلف: مدينة في اليونان القديمة (المترجم).

(149) الأريوباج: في اللغة الكلاسيكية تعني (محكمة أثينا العليا) (المترجم).

(150) أثينا: هي في الأساطير اليونانية القديمة إلهة الحق والفنون والعلوم (المترجم).

- نعم. ولكن يتعين أيضاً أن تكون هنالك إلهةٌ إلى جانبك.
- جيد جداً. إنني أقترح عليك ميثاقاً. أنتِ تلعبين دور (أثينا)
وأنا دور صانع الضخار. ما رأيك في ذلك؟
رأته يبتسم، فقالت:
- لسوف أفكر. و..
ثم نددت عنها صرخة بسيطة وهي تقول:
- أليس هذا صحيحاً! يا (أليكسيس)؟
رافق نظر (تيوفان) نظر الفتاة الشابة. كان أخو (أنطونيا)
يمشي بمحاذاة الشاطئ، بصحبة طفل آخر وامرأة. ويمسك بيده
نظارة غوص.
صاحت (أنطونيا):
- (أليكسيس)!
التفت الفتى، وصاح:
- (طونيا)!
ثم ركض نحوها، وارتمى بين ذراعيها، فقالت له:
- ماذا تصنع هنا؟
- إنني مع (ميخائيليس) وأمه. لسوف نسبح.
- والمدرسة؟
نظر إليها بازدراء، وقال:
- أنتِ حقاً تسبحين في القمر. نحن في يوم السبت.
ثم التفت إلى (تيوفان)، وقال:
- نهارك سعيد، يا دكتور، أنت بخير؟
- نعم، يا سيد (أليكسيس). جيد جداً.
ثم لمس نظارة الغوص، وقال:

- أليس معك قصبَةٌ للتنفس تحت الماء؟
- آ.. لا! الأمر سهل جداً وهي لا تساعد في السباحة على
السطح.

أوصته (انطونيا) بقولها:

- ومع ذلك كن حذراً. فالحادثة تقع بسرعة.
رفع الفتى عينيه نحو السماء. فقالت (انطونيا):
- لَكُمْ تَوْتُرُنِي أَنْتَا!

أشهد الفتى الطبيب، قائلاً:

- هل أنا أوتر؟ حسناً، أنا ذاهب! إلى هذا المساء!
قال (تيوفان) بينما كان (اليكسيس) يبتعد:

- إنه فتى طيبٌ غريبٌ الأطوار.

- إنه فتى طيبٌ متهورٌ، كي لا أقول غير واعي.

- بدوري سأظهر فضولياً: هل كنت تحافظين على صلة مع

أبيك؟

- (اليكسيس) وأنا لسنا من أب واحد. فقد فقدتُ أبي وأنا في

الثامنة من عمري.

- وأبو (اليكسيس)؟

- إنه شخص سافلٌ. فمنذ أن علم أن أمي كانت تنتظر طفلاً

منه، أطلق هذا الرجل ساقيه للريح⁽¹⁵¹⁾.

- هذا ليس مهذباً بالمرة.

- لا تُسئ فهمَ الكلام، فكلمة مهذبٌ نادراً ما تنتمي إلى

مفردات الرجال. ومن غير أن نتطرق لواحده من نصيرات

(151) ترجمة الكناية الفرنسية الأصلية في المتن حرفياً تقول (أخذ ساقيه بمنقه)، كناية عن هروبه، وهي عبارة لا تناسب الذوق الكئابي العربي، فأنبتنا كنايةنا الأجمل مقابلها (الترجم).

الرجل الذي كان يَنْظُرُ إلى الليل

الحركة النسائية اللواتي لا يملكن، طوال الوقت، شيئاً من أنوثة المرأة، فإنني أجد النساء أنبل من الرجال.
كان (تيوفان) حذراً من أن يعارضها. إضافة إلى أنها لم تكن مخطئة.

تابعت تقول:

- إنني لا أحبُّ الخِسة. إن هؤلاء الأشخاص الذين يصنعون أطفالاً كما تُصنع القوالب من الرمل، ثم هم لا يباليون بأن يعلموا أنهم لدى رحيلهم ذات مرة، ستدمر أول موجة ما عملوا، لا يستحقون منا أن نشاق إليهم.

بقي (تيوفان) في هيئة المتأمل. ظاهرياً، كانت مسيرة (بيبا فاسيلي) ترتبط بالحيوات الصاخبة.
استأنفت (أنطونيا) قائلة:

- ولحسن الحظ، جاء (الباشا). وقد نصّب نفسه أباً، على خلاف والد (أليكسيس)، أباً حقيقياً، بقلب كبير. ولهذا بلا شك منحتّه أمي لقب (باشا) ⁽¹⁵²⁾ pacha. ولم يكن الرجل يلعب بالمال فحسب، وإنما كان يبدي كرمًا لا يُصدّق. لقد كان فرصة سانحة لنا جميعاً، علماً أن الرجال الكرماء كانوا، في أغلب الأوقات، يفتقرون إلى المال، والرجال الذين يحصلون عليه كانوا يفتقرون إلى الكرم.

ثم إنها تفحصت (تيوفان) سائلة إياه:

(152) ووضح أن هذا اللقب ينتمي في اليونان إلى الحقبة التي سيطر فيها العثمانيون على معظم هذا البلد من القرن 14 إلى مطلع الثلاثينيات من القرن 19، حيث تم الاستقلال بعد تحطم الأسطولين البحريين العثماني والمصري نهائياً في معركة (نافارين) Navarin البحرية سنة 1827. على يد ثلاثة أساطيل فرنسية وبريطانية وروسية معاً، ويدل لقب الباشا هنا أيضاً على الصورة المشرقة في أذهان اليونانيين لمن كان يحمله (المترجم).

- وأنتَ، يا دكتور (دِبَّانِه)، إلى أي الصنفين تنتمي؟
- لقد طرحْتُ هذا السؤال على نفسي وأنا أصغى إليك. وأجهل ذلك. وأظنُّ ببساطة أنني قد أكون نسيت، وقد طغتُ عليَّ الأولويات التي لم تكن كذلك، أن أعطي الآخرين.
- ثم إنه طلب ورقة الحساب.
- وانتشر على وجهه شحوبٌ مفاجئ.
- سألته (أنطونيا) قلقةً:
- هل أنت بخير؟
- فنهض مترنحاً تقريباً.
- إنه الحر. لا شيء خطير.
- فقط في السيارة تمتم قائلاً:
- ماذا كانت ربات الجحيم تُسمَّى؟
- ال (إيرينيات). لماذا؟
- ال (إيرينيات).
- أغمض (تيوفان) عينيه لحظة واعتقد أنه يرى أرضاً قاحلةً مليئة بالأحطاب التي كانت تحترق في الليل، وأن هنالك جثةً مطروحة فوقها.

(9)

كانت الشمسُ تنحدر نحو الأفق وشطر الضوء المشهدَ شطرين: أزرقٌ ووردياً. وكانت الجزيرة مسترخية. وكانت هنالك رائحة نفاذة - عذبة تداعب الأنوف. سار (جيهول) بجانب قرية صغيرة محاطة ببعض أشجار الزيتون المُعمَّرة، وكان هنالك عجوز، مستقيم القامة مثل سُرْوَة، عينُه مُسَمَّرَةٌ على البحر. وكانت هنالك امرأة ترتدي السواد وتجلس على عتبة منزل ذي جدران مطلية بكلسٍ خشن، وركبتاها مرفوعتان، تطرِّز نسيجاً مبسوطاً على طَبْل. وكانت هنالك أيضاً كنيسة تبرز بوضوح على قمة تل، وهي واحدة من ثلاثمئة كنيسة تنتشر على الجزيرة المقدَّسة. وهنا، كما في اليونان كلها، يصلِّي المرءُ، ويركع، ويؤمن - في الوقت نفسه - بالأساطير.

فوق رمال (إيتاك)⁽¹⁵³⁾ Ithaque، كان (أوليس)⁽¹⁵⁴⁾ Ulysse يبكي (بينيلوب)⁽¹⁵⁵⁾ Pénélope دائماً.

(153) واحدة من جزر الخليج اليوناني بين إيطاليا واليونان، وهي موطن البطل الأسطوري (أوليس) في ملحمة (الأوديسة) l'Odyssée لهوميروس (المترجم).
(154) أوليس: ويُدعى في اليونانية (أودوسوس) Odusseus، وهو ملك أسطوري لجزيرة (إيتاك)، وكانت (بينيلوب) زوجته، وله منها ابن هو (تيليماك) Télémaque، وقد روى لنا هوميروس مغامراته في (الإلياذة) و(الأوديسة) (المترجم).
(155) بينيلوب: زوجة (أوليس)، وهي مثال الإخلاص الزوجي (المترجم).

وفي (سكيروس)⁽¹⁵⁶⁾ Skyros يتأهب (أخيل)⁽¹⁵⁷⁾ Achilles للإبحار إلى (طروادة)⁽¹⁵⁸⁾ Troie. وال (سيكلوب) Cyclope يُهَوِّم في كهف من كهوف (جيورا)⁽¹⁶⁰⁾ Gioura. وفي (كريت)⁽¹⁶¹⁾ Crête، صنع (ديدال)⁽¹⁶²⁾ Dédale لـ (إيكار) Icare جناحين من شمع من تصميم يديه ليسمح له بأن يهرب (164)، وقال يوصيه: «تنبه، يا بُنَيَّ، وابقَ على مسافة من الشمس». لكنَّ (إيكار)، المجنون بالغطرسة، والنشوان بالطيران، سينسى هذا النهيَ وسيتحطَّم في البحر. وفي بعض الأماسي، يحلف لك صيادون بأن صرخة (إيكار) لا تزال تتردَّد في البحر. فهناك أساطير ودين. ربُّ (زيوس)⁽¹⁶⁵⁾.

سال (تيمور) الذي كان يركب رديفاً خلف أبيه:

- (156) سكيروس: جزيرة يونانية في الجهة الغربية من بحر (إيجة) (المترجم).
- (157) أخيل: هو بطل الإلياذة، وقاهر (هكتور) في حرب طروادة (المترجم).
- (158) طروادة: وتدعى أيضاً (إيليون) Ilion، وهي مدينة قديمة في آسيا الصغرى، مطلة على بحر (إيجة)، تروي (الإلياذة) أن اليونانيين حاصروها عشر سنوات حتى فتحوها، إثر خدعة (حصان طروادة) الشهير (المترجم).
- (159) السيكلوب: في الأساطير اليونانية القديمة عملاقٌ بعين واحدة في وسط الجبهة (المترجم).
- (160) جيورا: جزيرة يونانية في غربي بحر (إيجة) (المترجم).
- (161) كريت: جزيرة يونانية في البحر المتوسط، مساحتها (8.331 كم²)، وسكانها اليوم (600.000) نسمة، وعاصمتها (هيراكليون) Héraklion (المترجم).
- (162) ديدال: في الأساطير اليونانية القديمة هو والد (إيكار)، والمهندس المعماري الذي ابتنى (متاهة كريت) (المترجم).
- (163) إيكار: هو ابن (ديدال) الذي صنع له جناحين من شمع، ليفرَّ من (المتاهة)، وقد أذابتهما الشمس حين حلَّق قريباً منها، فسقط في البحر وتحطم (المترجم).
- (164) الهروب هنا من (متاهة كريت) التي ابتناها والده (ديدال)، وبمساعدة منه (المترجم).
- (165) زيوس: هو كبير آلهة اليونان، كما مر بنا من قبل، ويقابله في الأساطير الرومانية القديمة كبير الآلهة (جوبيتر)، والمؤلف يشير في آخر هذه الفقرة إلى التعايش بين هاتين الأزواجيتين في وجدان اليونانيين في العصر الراهن: فهم يؤمنون بأساطيرهم إلى جانب الدين النصراني، ويؤمنون بالله إلى جانب اعتقادهم بـ (زيوس)، وهذا ما يجعل ثقافتهم متميزة من ثقافات غيرهم (المترجم).

- هل حال (ديمتري) أحسن؟

- أحسن بكثير. وهنالك خبر عظيم، وهو أنه سيبدأ بتطبيق نظام غذائي (ريجيم). فقد جعلته يعتقد بأنه إن لم يخسر على الأقل عشرة كيلوغرامات من وزنه، فليسوف تنتهي أزمات المغص الكلوي بقتله.

- أنا أحب (ديمتري) كثيراً. أحب بطنه الكبير وشكله الضخم الطيب. وأتصوره أسوأ وهو نحيل.

- ليس هنالك أي قلق. إن (فالسْتافنا)⁽¹⁶⁶⁾ notre Falstaff يقدر كثيراً جداً اللحم الطيب.

أخذت قرية (كامبوس) Kambos تظهر. يعرف المرء فيها بيوتها الصغيرة ذات البياض الناصع، بشجيرات (الجهنمية) Bougainvilliers⁽¹⁶⁷⁾ التي تغطي بنهاياتها البنفسجية جدران الأزقة.

قال (تيمور):

- إنه لمن الغريب أن (ديمتري) لم يتزوج ثانية، أليس كذلك؟ يبدو أنه يشعر بأنه أفضل وحيداً.

- لا أعتقد. لقد بلغ سن الستين تقريباً، وهو مجبول على عادات معينة. ومن الصعب إعادة النظر فيها بعد سنين كثيرة من العزوبية. إنه منشغل بأشجار كرمته، ويذهب إلى صيد السمك عندما يرغب في ذلك، ويقل من غير أن يكسر إحدى أذنيه⁽¹⁶⁸⁾، وينام ويستيقظ على هواه. ثم إن عيشة الزواج،

(166) مر تعريف هذه الشخصية سابقاً، ويقصد به هنا (ديمتري) نفسه، نظراً للشبه بينه وبين (فالسْتاف) شكسبير من حيث الشكل الضخم (المترجم).

(167) من النباتات المعترشة، أو المسلفة للتزيين (المترجم).

(168) كناية فرنسية عن الهدوء وعدم إزعاجه أشياء قيلولته بأي صوت (المترجم).

يا (تيمور)، معقّدة. فالناس المتحابون يواجهون، في حال العيش تحت السَّقْفِ نَفْسَه، تحدّياً رهيباً في الحب.

- ماما وأنت، هل اكتشفتُما هذا التحدي؟ وكنتما سعيدين؟
- يبدو لي.
- إذن، هو غير أكيد.

- اسمعني. قد يعيش المرء قرب شخص ما، ولكنه لا يعيش في رأسه. ويبدو الآخر، في الظاهر، سعيداً، بينما هو، في دخيلته، يواجه العواصف. وكانت أمك دوماً تسيء التعبير عن فرحتها أو شقائها. وخلال سنواتٍ من زواجنا، لم أنجح في معرفة ما كانت تفكرُ فيه حقيقةً بشأن زواجنا. حتى اليوم الذي..

- حدث فيه (الانفجار الكبير)⁽¹⁶⁹⁾ big bang.
- في الحقيقة..

- بسببك. واعتُرفَ بذلك. في النوع النباتي، لم يكن بإمكانك أن تتصرّفَ بشكل أفضل.

انقبضتُ يدا الطبيب على العنان، وقال:

- قل لي، هل ستظل مستمراً مدة طويلة في تكرار القول لي بشأن غلطتي؟

- وكيف أنسى؟ إنني أعيش في ظلك. وأنا نفسي ظلُّ.

- انتهى الأمر، يا (تيمور)!

رد الفتى المراهق، من ورائه، بلهجة باردة:

(169) الانفجار الكبير: هو، في الأصل، مصطلح علمي فضائي إنكليزي، أطلق لدى الطبيعيين على النظرية التي تفسّر نشوء الكون وتشكيله، واستعمله (تيمور) هنا كناية عن تفجر العلاقة بين الأبوين وتخريبها لا بنائها (المترجم).

- هذا الأمر لن ينتهي أبداً.

ثم ران صمتٌ فاتر على الأب والابن.

زمجر (تيوفان) فجأة بقوله:

- تَمَسَّكْ!

وقام بضغطة خفيفة ببطن ساقيه على جانبي الحصان..

صاح (تيمور):

- لا، لا تقم بذلك!

مال جسمه نحو الأمام، وهو يقول:

- أنا خائف! أرجوك!

اندفع (جيهول) في عدو عنيف..

* * *

على مصطبة (ترأس) (إيبيفانيا)، كان هنالك زوجان إنكليزيان، قد وصلا العشيّة، يتفحصان بجد خريطة الجزيرة. تجهم (الباشا) الذي كان يراقبهما عبر النافذة. وقد وهت أعصابه وصار خداه ورديين. إنه لم يكن يحب (إنكلترا) l'Angleterre.

قالت (بيبا) بنفاد صبر:

- أنتَ تسمعنني؟

كان (الباشا) يكرّ حبات مسبحة بين أصابعه، فقال:

- نعم. عندك حق، يا عزيزتي. إن الدكتور (دبانّه) شخصية

مضطربة. مضطربة، ولكنها جذابة.

فصححت له (بيبا فاسلي) قائلة:

- الأمر يتعلق بشيء أكبر من ذلك. إن هذا الرجل يكتم

سراً كبيراً. فهنالك حدثٌ مؤثّر لا بد أن يكون حصل في حياته،

مأساة مروعة. وأشك في أنه يرغب في سَمَلِ عَيْنِيَه، مِثْل (أوديب) (Edipe)⁽¹⁷⁰⁾، حتى لا يعود إلى تَأْمَلِ وجعهِ الخاص.

ابتسم (أخيل أناغنونستاكيس)، وقال:

- دعي عنك، يا لُعبتي، فأنتِ تبالغين.

تدخّلتِ (أنطونيا) قائلةً:

- لا، إنها لا تبالغ. فقد راقبتُ هذا الرجل. إنه حبيسُ التعاسة.

- مَنْ يَسْمَعُكَ يَقُلْ إِنَّكَ تتحدّثين عن (أيوب) (Job)⁽¹⁷¹⁾ المسكين

الذي كان يَرْزَحُ تحتِ المِحْنِ التي فَرَضَها عليه الشيطان

(Satan)⁽¹⁷²⁾. وأنا أَتَفَقُّ معك، لأن المرء يشعر أن الرجل ليس

(170) أوديب: شخصية أسطورية، كتب (سوفوكل أو سوفوكليس) (م406 ق.م) Sophocle اليوناني قديماً مسرحية عنها بعنوان (أوديب الملك أو أوديب ملكا) تحدّث فيها عن تفاصيل هذه المأساة، وتخصّص بالقول إن ملكاً يدعى (لايوس) رأى في المنام أنه يولد له ابن، يقتله عندما يصبح شاباً، فلماً أنجب ولدًا أمر بذبحه بعيداعنه، فأشفق عليه الموكل بذلك، وأودعه عند راعٍ في بعض الجبال المجاورة ليتولّى تربيته، لكن الراعي قدّمه إلى خادم عند ملك آخر، فتبناه الملك، وترعرع عنده حتى أصبح شاباً قويا، وهو يعتقد أنه ابنه. وفي يوم من الأيام اعترض طريقه موكبٌ لأبيه الحقيقي زاحمه فيه، وهو لا يعرفه، فقتلهم وفيهم أبوه، وذات يوم أراد الدخول إلى مدينة أبيه هذا، فاعترضه وحش فقتله، فولاه أهل المدينة ملصكا عليهم، مكافأة له على تخليصهم من ذلك الوحش، وتزوج من أرملة الملك، التي هي أمه، من غير علم منه، لكن حافظ سره حقيقة نسبه يكشف لهم الحقيقة المرّة، فتتحرر الأم شنقاً، ويسمى (أوديب) عينيه بمشابك ثوبها، عقاباً لنفسه على ما جرى، وهام على وجهه في الجبال. وقد تناول هذه الشخصية عبر التاريخ إلى يومنا هذا عدد كبير من الأدباء والشعراء وعلماء النفس من خلال بعض المسرحيات والتحليلات من وجهات نظر فلسفية مختلفة (المترجم).

(171) أيوب: شخصية توراتية صالحة تقبلت بتسليم تامّ وصبر كلّ المحن التي ابتلي بها، حتى ضرب المثل به في الصبر. ووقع الحديث عنه وعن مَحَنِهِ في العهد القديم في (سفر أيوب) الذي يتكوّن من اثنين وأربعين إصحاحاً، ويقع بين (سفر إستير) و(سفر المزامير) (المترجم).

(172) ينسب المؤلف هنا المحن التي ابتلي بها أيوب إلى (الشيطان)، في حين إن (سفر أيوب) ينسبها إلى (إلرب) بالقول بعد نهاية امتحانه وحلول الفرج والرضا: فجاء إليه (أي: إلى أيوب) كل إخوته وكل أخواته وكل معارفه من قبل وأكلوا معه خبزاً في بيته ورثوا له وعزّوه.. انظر: سفر أيوب، الإصحاح الثاني والأربعين، من الفقرة 11. وقد ورد ذكر محن (أيوب) ورفعها عنه في محكم التنزيل في قوله تعالى: «وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرُوا لِلْعَابِدِينَ» (سورة الأنبياء 83 - 84) (المترجم).

على ما يرام داخل إهابه، ومن هنا لا أتخيّل بوضوح أي مأساة..
يونانية لديه!

قالت (أنطونيا):

- لقد أشرتُ للتو بإصبعك إلى الأمر الجوهري: إن الأمر
يتجاوز أيضاً وجود مأساة. إنه تمزّق.
وأعلنت (بيبا) قائلة:

- ومن نحو آخر، لقد رايت ذلك في الورق.

أبدى (الباشا) دهشته قائلاً:

- في الورق؟

- تماماً. أوه! إني أعلم أنك لا تؤمن به، ومع ذلك يمكنني أن

أؤكد لك أن مرتين من ثلاث مرات لا يكذب الورق.

تنهدتُ (أنطونيا) وقالت:

- ماما، دعي عنك هذه السخافات.

- سخافات؟

ووثبتُ (بيبا) خارج الأريكة.

وعادتُ بعد قليل بعلبة ورق، ودفتر ملاحظات وقلم حبر.

وقالت بهيئة تحدُّ:

- الآن، سنرى إن كانت هذه سخافات!

وتحت عيون ابنتها و(الباشا) المعبرة عن الشك، خلطت

الأوراق، ولكنها أوضحت قبل القطع، قائلة:

- لن أطبّق الأمر إلا على سحب واحد، يعني لن أختار سوى

ورقة واحدة. وهكذا ستقفز الحقيقة إلى عيونكما قفزاً. اتفقنا؟

كان هنالك شعاع من الشمس يخترق الصالون ويذهب

ليستقر بين الكتب التي ترقد على الرفوف.

وتابعت (بيبا) قائلة:

- والآن، أعلماً أنني قد سألتُ الورق بشأن الدكتور (دِبَانِه) في ثلاث مرات، وفي كل مرة، كان يظهر السُرُّ نفسه.
خطت على دفتر الملاحظات بعض الأشياء، وانتزعت الورقة، وطوتها أربع طيات، وأودعتها لدى (أخيل). وقالت له:
- ضعها في جيبك. وسوف تخرجها عندما أطلب إليك ذلك.

رسمت (بيبا) إشارة الصليب. وكانت تُسْمَع وهي تتمتم بكلمات تجعلنا نفكر في تعويذة أكثر منها في صلاة. وبعد أن تنفستُ بعمق، قطعت الورق ورتبته، ووجهه مخبأة، على شكل مروحة. وهي تُرْكُز، أخذت ورقة بالمصادفة ووضعتها أمامها. وفتحت عينيها، وترددت، وكأنها ترتاب في صحة الجواب، وأعدت الورقة.

ثم صاحت منتصرة:

- ها هي!

كان الشكل يمثل هيكلاً عظيماً أخذاً في الاحتضار، وفوقه الرقم 13.

فقالت (أنطونيا) وهي تلقي برأسها إلى الوراء بعنف:

- يا للرعب! الموت؟

فصححت لها (بيبا) قائلة:

- لا، هذا ليس الموت. إنه (السُرُّ بلا اسم). فمن بإمكانه أن يقول ما الموت؟ هل لقيه أحدٌ من قبل؟
وتابعت قائلة لـ (الباشا):

- والآن، يا صديقي العزيز، هل ترغب في أن تقرأ لنا الكلمة

التي عهدتُ بها إليك؟

سَلِّمْ (أخيل) الملاحظة لـ (أنطونيا) قائلاً:

- آسَفُ، نظارتي ليست معي. ولك الشرف.

من الواضح، أن هذا الأمر كان يزعجه جداً.

فتحت الفتاة الشابة الورقة وصاحت مندهشة:

- مستحيل!

- ومع ذلك..

فدمدم (الباشا) قائلاً:

- هل يمكن أن تشرحي لي؟

لَوَّحَتْ (أنطونيا) بالورقة وقالت:

- السَّرُّ بلا اسم! هذا ما كتبتُه أمي!

وتلعثمت بالقول:

- هذا دورٌ من السُّحْرِ؟

- ليس هنالك سحرٌ، يا عزيزتي. الأرواح وحدها تقرُّ.

تنحج (أخيل) أناغنونستاكيس) قائلاً:

- أوه! من غير رغبة في الإساءة إليك.. الأرواح..

وترك جملته معلّقة، ولكن المرء يتوقّع تتمتها.

قالت (بيبا) باستخفاف:

- إني أدعُكَ لنزعَتِكَ المتشككة المرصية.

سألت (أنطونيا):

- ولكن لماذا؟ لماذا الموت؟ إنه لمصيبة، هذا السر!

- ليس صحيحاً. كلُّ شيء يُعَلِّقُ إن كان متموضعاً في المكان،

أو بالعكس، على الصلة بموضع الساحب. وفي الحالة الراهنة،

يشاهد المرء أنه بالعكس.

- ماذا يعني هذا؟

وضعت (بيبا) يدها على الورق وقالت:

- يعني أن الدكتور (دِبَانِه) يحمل داءً غير قابلٍ للشفاء، وهو على الأقل لا يتعلّق بشعورٍ لا حدَّ له بالذنب. ويمكنني أيضاً أن أكشفَ لكما ما لم يقله السُّرُّ..

ثمّ أمعنت النظر بجديّة إلى (آخيل) و(أنطونيا) وقالت:

- إن الدكتور (دِبَانِه) واقع تحت خطر الموت.

* * *

غضب (تيمور) قائلاً:

- إنني أكرهك، يا أبي! فأنت تعلم أن العدو يسبّب لي هلعاً! ساعده (تيوفان) على النزول عن الحصان، وكان تعليقه الوحيد:

- أنا عطشان، وأنت أيضاً، كما أتصوّر؟

- لماذا هذه النزهة على الحصان؟

- لأفرض عليك السكوت! وينبغي لك أن تدرك أنني مرهق من معاناة لومك.

ربط الطبيبُ عنانَ الحصان حول شجرة ومدّ يده إلى ابنه قائلاً:

- هل تأتي؟

صعدا ببطء على طول زقاقٍ متعرّجٍ مزينٍ بنبتة (الجهنمية). وبعد عشر دقائق، خرجا إلى سُوِيْحَة حيث كانت تَشْمَخُ كنيسةٌ للبشارة بيضاءً تماماً، تعلوها ثلاث قباب. وفي ظلّ شجرة دُلب كان هنالك مقهى ومطعم يجاور البناء. وعندما استقرا في المقهى ظلّ الفتى المراهق مستمراً في الاستياء.

اغتاظ (تيوفان) فقال:

- هل ستستمر طويلاً في لعب دور (قابيل) (173) Caïn ؟

- (قابيل) ؟ ما (قابيل) ؟

- (قابيل) ! الضمير، (174) La Coscience لـ (فكتور هوغو) (175)

.Victor Hugo

- بُف!

- موافق. هل نتوقف ؟

- اوكي OK. ثم إنني جائع.

- عادي. مثل (ديمتري).

نظر (تيمور) إلى أبيه نظرة تهديد، وقال:

- احترس! الآن، أنت الذي أعاد الكرة! ومن ثم، وبعد ثلاثة

أيام، ستحل الجمعة المقدسة. ولسوف أصوم فيها.

أمعن (تيوفان) النظر فيه وهو مشدوه، وقال:

- لم أكن أعلم أنك قد أصبحت أرثوذكسياً، فضلاً عن كونك

ملتزماً.

- لستُ أرثوذكسياً ولا ملتزماً. ولستُ كاثوليكياً ولا

بروتستانتيّاً. فأنا الابن الحق لأبيه. ولكنني ارتكب هفوة مع

ذلك. وفي حالة ما.. قلتُ لِنفسي إن صوماً صغيراً سوف يصلح

أموري مرة واحدة في السماء. ومن نحو آخر، لا يتعلق الأمر

(173) قابيل: هو ابن آدم عليه السلام الذي قتل أخاه (هابيل) Abel حسداً له، فكان أول قاتل

في تاريخ البشرية على وجه الأرض (المترجم).

(174) الضمير: قصيدة من قصائد (فكتور هوغو) الشهيرة، وتعرف أيضاً باسم (قابيل)، ضمن

ديوانه (أسطورة العصور) La légende des siècles (المترجم).

(175) فكتور هوغو: كاتب فرنسي (1802 - 1885)، وشاعر، فقد كان زعيم الحركة الرومانسية

في الشعر، وهو أيضاً كاتب مسرحي، وروائي (من أبرز رواياته: البؤساء، وأحدب نوتردام)، وقد

عمل أيضاً في الحقل السياسي (المترجم).

بالطقوس، ولكن بعيد الفصح. بعيد الفصح، فهمت؟ بالتمجيد.
بال (must)⁽¹⁷⁶⁾.

لم يكن (تيمور) يبالغ. ففي هذا البلد، لا يمكن أن يُقَارَن عيد الفصح بعيدٍ ديني آخر من الأعياد. في (اليونان)، يمثل عيد الفصح ذروة الإيمان. ومنذ عدة أسابيع، هنالك عدد كبير من الشموع الطويلة ينتظر خلف واجهات المحال. وُعِمِرَتِ الشوارعُ والأزقة بروائح الـ (تسوريكي) tsoureki والـ (كولوريا) koulouria، وبالخبز الصغير المسمَّم⁽¹⁷⁷⁾. ويوم الإثنين، يوم الـ (كاثاري دِفتيرا)⁽¹⁷⁸⁾ la Kathari Deftera، وهو حرفياً بمعنى (الإثنين النقي أو الطاهر)، وبعض المؤمنين كانوا قد غَسَلُوا بيوتهم وباحاتها بماء كثير كما يحب المرء أن يغسل قلبه. وكانت حقائب الفحم قد صُفَّتْ. وقد انهار الجزارون تحت عبء الطلبات. وطيارات الورق الملونة كانت تزئِن السماء، وكان قرع الأجراس يصعد باتجاه (أتيك) Attique الثملة من الشراب.

لا، لم يكن عيد الفصح يُشَبِّه في شيء الأعياد الدينية الأخرى.

ارتفعت ترنيمةً دينيةً في الوقت نفسه الذي خرج فيه موكب مكوَّن من القرويين والسواح إلى السُويحة. وكأنه جاء لإعطاء الحق لـ (تيمور) بشكل أفضل. وعلى رأسه كاهنٌ يسير في المقدمة،

(176) أي: بالضرورة (المترجم).

(177) التسوريكي والكولوريا والخبز المسمم: أنواع ثلاثة من الخبز والفطائر والمعجنات الشعبية التي يجهزها الناس في بيوتهم لاستقبال عيد الفصح وغيره من الأعياد في (اليونان)، وهذه عادات تشبه عادات الشعوب العربية في مثل هذه المناسبات الدينية خاصة (المترجم).

(178) عبَّر المؤلف عن الكلمتين بالحروف اللاتينية، وهما بالحروف اليونانية (Δευτέραοσκαθαρ) (المترجم).

له لحية طويلة كثيفة، والشعر مردود خلف العنق بشكل عقيصية. وكان يحمل صليباً، ورأسه مغطى بقلنسوة سوداء، وكانت خطوته متناقلة في الثوب الكهنوتي. وكانت عيون الجميع مُسمرة عليه كما لو كانت تنتظر أن تراه يتصدى لقوى خفية.

همس (تيمور) قائلاً:

- شريطة ألا يتخلص من قط أسود.

تبسم (تيوفان). فقد كان يعرف التطير: إن التقاء كاهن وقط أسود خلال اليوم نفسه إشارة إلى سوء الحظ. استأنف الطبيب فقال:

- إذن، لسوف تصوم بدءاً من الغد. هل أنت متأكد من ذلك؟ لأنه يتعين عليّ أن أخبر الخادمة حتى لا تطبخ حتى يوم الأحد. اتفقنا؟

تهرب (تيمور) من السؤال.

- هل أنت متأكد أنهم يصنعون الـ (سوفلاكيس) (179) souvlakis؟

نادى (تيوفان) النادل.

- نعم إنهم يقدمون أسياخ لحم الحمل.

دقق (تيمور) قائلاً:

- مع الـ (تساتسيكي).

- لسوف تنشر رائحة الثوم.

- ما أهمية ذلك! لا أنوي أن أعانق أحداً. ولا حتى (أنطونيا).

حدق (تيوفان) في وجه ابنه، وهو مذهول، وقال:

- ماذا قلت؟

(179) السوفلاكيس: عند اليونان هي المشاوي على السيخ وهي نفسها المعروفة في بلداننا (المترجم).

- حسناً ماذا؟

- أعد.

- كنتُ أستطيع أن أكل الثوم، نظراً..

- ولا حتى (أنطونيا).

- بالضبط.

أظهر النادل بعض حركات نفاذ الصبر، وسأل:

- هذا كل شيء؟

أكد (تيوفان) له ذلك قائلاً:

- نعم. مع زجاجة (لوتراكي) Loutraki.

ثم نظر إلى ابنه وقال:

- والآن؟ لماذا (أنطونيا)؟

- إنك تظهر استياءً من ذلك! وأنت لم تتوقف عن الحديث

عنها منذ ثمان وأربعين ساعة. وأستنبط من ذلك أنها تعجبك

تماماً. لا بل أكثر.

- هل تعرف على الأقل عمّ تتحدث؟ إنني أكبر منها بعشرين

سنة!

- هذه مشكلتك، وليست مشكلتها.

- بصدق، إنني أتساءل إن كنت بكامل عقلك الآن..

نهض (تيمور)، وقال:

- اعدرنني. يجب أن أذهب إلى الحمام.

وقبل أن يتواري، حرك سبابته تحت أنف أبيه، وقال:

- ولكن ألا تتذكر عبارات ميثاقتك: إن كانت قد قررت أن تكون

(أثينا)، فإنك ستكون بحق صانع الضخار؟

(10)

كانت السماء تنعكس في مستنقعات الماء الكالحة التي تكوّنت العشيّة لأنها أمطرت حتى الفجر. وفجأة، ونحو الساعة السابعة صباحاً، انقشعت الغيوم قطعاً باتجاه الجنوب. أيّ يوم كان ذلك؟ إنه يوم 21 حزيران/يونيو 1983. نعم. على الأقل هذا اليوم هو 22. لا يهم كثيراً، إنه على كل حال في حزيران/يونيو. وكنت أحاول، وأنا أجلس القرفصاء خلف شاهد قبر، أن أسيطر على ارتعاشات جسمي، مع عدم صرف النظر عن طقوس الجنازة. لماذا كانت تعاودني بلا انقطاع، صافعةً صدغي، ولحوحةً، تلك الجملة الشهيرة في رواية (الغريب)⁽¹⁸⁰⁾ L'Étranger: (اليوم، ماتت أمي. أوريما أمس، لست أدري). ومع ذلك، لست سيئ الحظّ (مورسو) Meursault، وأمي لم تكن نائمة في هذا الصندوق

(180) رواية (الغريب) هذه للكاتب الفرنسي (البيير كامو) (1913 - 1960)، كان قد ولد في قرية تابعة لمدينة (قسطنطينة) بالجزائر، من أب فرنسي وأم إسبانية، وتعلم في جامعة الجزائر، كان فيلسوفاً وجودياً، وقد بذر بذور فلسفة اللامعقول والعبثية في كتابه (أسطورة سيزيف) وكتاباتة السياسية وفلسفته نشر كتاب (المتعدّد) L'Homme révolté سنة 1951، وله ثلاث روايات مشهورة هي (الغريب، والطاعون، والسقوط)، وله مسرحية (كاليغولا) Caligula. نال جائزة نوبل للأداب سنة 1957. توفي في فرنسا، ونقل رفاته بأمر من الرئيس الفرنسي (ساركوزي) لم يكن قد وُلد عام 1957 العام الذي توفي فيه كامو ليُدفن في مقبرة العظماء (الأنفاليد) في باريس، في احتفال مهيب (الترجم).

القبيح، نعش (فيرون) Véronه الفاخر، من خشب شجرة الدردار الضخمة، بسماكة 41مم، ومبطن، كما لو أن الديدان تكون في حاجة إلى حد أدنى من الراحة لتأكل بشرهة جسداً أو من أجل أن تكتمل عملية التحلل حسب الأصول..

ما الذي يجري لنعش مطمور تحت التراب؟ كنتُ أعرف تقريباً جميع مراحل التحلل. فبعد الموت يبضع دقائق، تبدأ التخمرات، والمواد الناتجة خلال هذه التفاعلات تطلق روائح منضرة جاذبة للحشرات الأولى التي تضع بيوضها في الفتحات الطبيعية، ومنها: المسامات، والمنخران، والشرح، والأذنان. وبسرعة فائقة، تنشط الخلايا البكتيرية والحشرات آكلة الجيف على الجثة وفي داخلها. وأول كتيبة من الذباب الأزرق - ذباب اللحم «بالعامية»⁽¹⁸¹⁾ - تلقي بنفسها بشرهة على الجثة، بينما يجعل الغاز المحرر من العضويات الدقيقة، الأحشاء تنتفخ، بدءاً من الكرش، مغيراً شكله ومظهره. منذ اليوم الثالث، تعطي البيوض الموضوعة في المنخرين والضم آفاقاً من اليرقات.

وفي اليوم الرابع، تمتلئ العينان بدورهما بالبيوض واليرقات. وفي اليوم الثامن، يُصبح محجراً العينين فارغين، لأن اليرقات تكون قد التهمت كرتي العينين. وفي اليوم التاسع، ومع التهام الشفتين، تظهر الأسنان. وفي اليوم الحادي عشر، تتكوّن تحت الجثة بقعةٌ دهنية، تنتجها الأحماض، بسبب تسيل الأنسجة.

(181) هو نوع من الذباب أو الدبّان كبير الحجم، يميل لونه إلى الزرقة مع شيء من الاخضرار، وهو شديد الحساسية للحم الطازج المذبوح أو الفاسد بأنواعه، وسريع الوصول إليه في أي مكان كان، وهذا يعبر عن قدرته الهائلة، حتى إن العوام، إذا أرادوا أن يكونوا عن عدم قدرة أحد على الوصول إلى ما يخبئون - وبخاصة في جنايات القتل وإخفاء الجثث - يقولون بالعامية: (حتى الدبّان الأزرق ما يعرفلوش طريق) (المترجم).

وتظهر الدُّفْعَةُ الثَّانِيَةُ مِنَ الدُّنَابِ فِي نَهَايَةِ الشَّهْرِ، لِأَنَّ تَحَلُّلَ
الموادِ البَرَاذِيَّةِ تَجْدِبُهَا. وَيَسِيلُ لُعَابُ مُدْمَى مِنَ الفمِ وَالْأَنْفِ
بِضْفَطٍ مِنَ الغَازَاتِ عَلَى الحِجَابِ الحَاجِزِ.

وَمِنْ ثَمَّ، وَانطِلاقاً مِنَ الجَمِجِمَةِ، تَتَفَكَّكُ العَضَلَاتُ. وَتِفْتَتُّ
الجلدُ وَالأنسجةُ الرُّخْوَةُ كَلِيَّةً. يَتَخَرَّبُ الدِّمَاغُ، وَيَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ،
وَأَسْبُوعًا بَعْدَ أُسْبُوعٍ، يَصْبِحُ هَذَا الدِّمَاغُ، المَخزَنُ العَظِيمُ لِأفكارنا
وَأَحلامنا وَغرامياتنا، قَيْئاً وَصُهارةً طِينِيَّةً.

وعليَّ أن اعترف أن فكرةً مفاجئةً عَنَّتْ لِي هِيَ: «وإذا أصبحتُ
هذه الجثةُ التي تم وضعُها من لحظة في التراب استثناءً من
القاعدة؟». وعلى كل حال، ألم تكن هنالك جثثٌ وُجِدَتْ سَلِيمَةً
بَعْدَ المَوْتِ بَعْدَةَ سَنِينَ؟ صَحِيحٌ أَنها كانت تَتَعَلَّقُ دوماً بِأَناسِ
أَتَقِياءَ، وَقَدِيسينَ، وَأَنَّ الجِثَّةَ التي تُدْفَنُ اليَوْمَ لَيْسَتْ مِنْ زَمَرَتِهِمْ.
انتهت الطقوسُ منذ نحو ثلاثين دقيقة، وبقيتُ دوماً في
مكاني مَقْرِصاً. تَمَثالاً بَيْنَ التَمائِيلِ. وَمَلَكاً لِلْمَوْتِ بِوَجْهِ بَشْرِي.
عَما قَلِيلٍ، سَيَتَسَرَّبُ المِساءُ بَيْنَ القُبُورِ.

والآن، بَعْدَما نَهَضْتُ، وَتَأَكَّدْتُ مِنْ أَنَّ المَقْبِرَةَ أَصْبَحَتْ خَالِيَةً،
مَشَيْتُ حَتَّى القَبْرِ. كان هنالك تويجٌ لوردة بيضاء يلامسها
الهواءُ، فَتَهْتَزُّ فَوْقَ الترابِ الذي لا يَزَالُ رَطْباً.
بَقِيَتْ وَقْتاً طَوِيلاً بَلا حَرَكَاتٍ، مَبْهُوراً بِالقَبْرِ المَسْتَطِيلِ.
وعِينا يَ جافَتانِ.

أنا وحيد الآن، وحيد مع وجعي، حتى نهاية الزمان. هذا
الأمر، الواضح جداً، جعلني أفقد توازني. فسقطتُ إلى الأمام،
ووجهي إزاء الأرض. وبحركة غبية بلا شك، أصابتُ أصابعي
قطعة مَدْرٍ (طين) فحملتها إلى فمي.

وحينذاك همس صوتاً في أذني قائللاً: (بعد الآن، لسوف تفتح قلبك للمرة الأولى لعدم اكتراث الناس المشين).

* * *

أشعل (لوكاس باباداكييس) غليونه، مغلفاً نفسه بسحابة كثيفة من الدخان. والستائر المسدلة كانت تصفي ضوء النهار، وكان غارقاً في المكتب في نصف عتمة.

وردد وهو سارح الفكر:

- (عدم اكتراث الناس المشين). أهذا هو اعتقادك، يا عزيزي

(تيو)؟

- إن جوابي لن يرضيك: فيما عدا واحداً أو اثنين من الكائنات، فكل الناس يسخرون من معرفة إن كان المرء حياً أم ميتاً.

- واحد أو اثنان من الكائنات؟ فقط؟

- وذلك لأنني سخي.

- إنني أجدهم قاسياً جداً. قاسياً على الآخرين الذين يحبونك، وأنا متأكد من وجودهم. وأنت قاس أيضاً حتى على نفسك.

اعتدل (تيوفان) في كرسيه الموسد، وقال:

- (لوكاس)، لا تجعلني أعتقد أنك من أولئك الذين يرون

قدر الإنسان عبر المنشور السحري⁽¹⁸²⁾. إن المرء يولد وحيداً.

ويعيش وحيداً. ويموت وحيداً. وليس كل ما يحيط بك سوى

(182) المنشور السحري: ومثله المرآة السحرية أو الكرة السحرية، من مخترعات الخيال الشعبي عند الأمم المختلفة، وكثير من مخترعات الخيال الشعبي هذه تحولت مع تقدم العلوم إلى وقائع ملموسة: فككرة الطيران على حصان مجنح أو بساط الريح، التي أصبحت عبر الطائرات. ولعل شاشات أجهزة التلفاز، والنقلات الحديثة، واللابتوبات، وأجهزة المراقبة، والتلسكوبات الفضائية حولت (المنشور السحري) إلى واقع في عصرنا (المترجم).

مظهر. والعالم ليس حكاية جَنِيَّات، يا صديقي، ولكنه وعاء كبير من الرمل ندفع فيه منذ الولادة أطفالاً يشيخون: «هيا نذهب! العبوا! العبوا!». ماذا تُسَمَّى هذه اللعبة؟ .. نعم. تُسَمَّى الخريشة! ألا تعرف الخريشة؟ هذا أمر صبياني بالتأكيد.

لقد ألقيتَ روحك في وسط قطيع من الذئاب الجائعة وَمَنْ سَيتمسكُ بهذه اللعبة. وعندما بدأنا، بعد ملايين الساعات، نتبين كيف تجب حماية روحنا، قام بعضهم بإعلان نهاية اللعبة: هيا! Sto pláisio⁽¹⁸³⁾! كلُّ الناس في الصندوق!

أطلق (لوكاس) ضحكة سريعة. ويظهر أنه لم يُعرِ خطبة محدثه أيَّ اهتمام، فقال:

- يبدو جيداً، يا صديقي، أنك قد نسيتَ ما كنتُ أحاول شرحه لك منذ مدة: وهو أن أفكارك تعمل مثل مَصَافٍ (فلاتر) على جهاز تصوير. فغير..

- فغير مصافيك، يعني طريقةَ نظرك إلى الأشياء، إلخ. نعم، إنني أتذكّر ذلك تماماً. وهذا كَمَنْ يطلب إلى السمكة أن تطير. مستحيل!

دقّ (لوكاس باباداكيس) غليونه على طرف المنفضة الموضوعة على مكتبه ثم أعاده إلى شفتيه. وقال:

- قُلْ لي، يا (تيوفان)، ما المشاعر التي تحسّ بها إزاء الموت؟
- وهل يمكن أن يحسّ المرء بشيء لا يعرفه؟
- إنَّ ملاحظتك هذه تدهشني. خذ طفلاً مثلاً. إنه يخاف من التنانين أو من المرأة العجوز الساحرة، مع أنها كائناتٌ خيالية:

(183) كلمتان يونانيتان بحروف لاتينية، بمعنى (داخل الإطار أو السياق)، وهما بالحروف اليونانية (πλαίσιοστο) (الترجم).

لماذا؟ وأنت تعلم ذلك تماماً. إن غير الواقعي يربعنا أكثر بكثير من الواقعي. والآن (ويشير إلى باب المكتب)، لنتصور أن الموت كان وراءه، وجاهزٌ للدخول، فإذا تمكّنت من إبعاده، فما المشاعر التي تحسّ بها؟

لم يتردّد (تيوفان) لحظة واحدة، فقال:

- سأحسّ بذات المشاعر التي ينبغي أن يحسّ بها أولئك المجهولون المساكين، الذين أغلقت عليهم عربات الحيوانات في القطارات، وهم في طريقهم إلى معسكرات الموت: أي بالحق، بحقد لا حدود له، بهياج هائل، وبإحساسٍ بائسٍ بالظلم. وضرب غاضباً سطح المكتب براحة يده، وقال:

- لا، يا (لوكاس) ! إن الأشياء لن تسير كما كانت قد سارت. وإنني متأكدٌ أن في حياتك الطبية تشخيصاً ما بان أنه خاطئ. وإن بعض الزملاء من الجراحين، يقترفون خطأ ما، متسرّعين جداً أو متوترين. ولكن لا أحد من بينهم اجتاز قطّ نهر الجحيم. إذن، لماذا أنا؟ لماذا؟

ونفض من كرسيه، وذهب إلى النافذة، وأزاح الستارة بحركة قوية. فاندفع الضوء إلى داخل المكان مُبهراً.

واستمرّ (لوكاس بآباداكييس) يدخّن غليونته، وهو رابط الجأش، واقترح بعد لحظة، قائلاً:

- جيد جداً، وإذا ما أخبرتك أنه لم يبق لك وقت كثير على بقائك حياً؟ وأنتك، عما قريب، سوف تستسلم لزمرد الذباب الأزرق الذي وصفته وصفاً رائعاً منذ قليل؟

استدار الطبيب وقال:

- لقد غمّرتني بإحسانك! أوه! إذا علمت كم!

- دَغْنِي أُكْمِلْ. وإذا كان رحيكُ العاجل سيحرمك من إنقاذِ حياةٍ ما؟

أمعن (تيوفان) النظر في زميله باستفهام صامت، وقال:
- وهذا مع ذلك أمر بسيط، يا صديقي. فهناك دوماً حياةٌ ما تحتاج إلى إنقاذ. وبلا شك ليس كليةً، ولا نهائياً، ولكنها موجودة. فزي كل يوم، ومن غير أن نعلم ذلك، نمرُّ إلى جانب منتحرين مستقبليين.

ثم قال (تيوفان) ساخراً:

- حياة ما تحتاج إلى إنقاذ؟

- طبعاً!

نظر (باباداكيس) إلى ساعة جيبه (لقد كان ينتمي إلى اليونانيين الأخيرين الذين يملكون واحدة منها)، ثم نهض وهو عابس الوجه من الوجع. ودمدم، وهو يمسك بندراع (تيوفان)، قائلاً:

- إنه داء المفاصل اللعين! اعذرني، لأن عليَّ أن أدعك.

مشى الرجلان معاً حتى الباب. وعندما وصلا إلى العتبة سأل (تيوفان):

- من أين جاء اعتقادك أن لدي حياة ما تحتاج إلى إنقاذ؟

نظر (باباداكيس) إليه من فوق إلى تحت مرتبكاً، وقال:

- من الحاسة السادسة. ألا ترى عن حياة مَنْ أتحدث؟

- مطلقاً.

- فكّر، يا عزيزي، فكّر.

(11)

من فوق شرفته، كان (تيوفان) يراقب الذهاب والآيب من الزوارق التي تمخر المرسى. وبعد لحظة رفع رأسه نحو الشمس. كانت في أوج توهجها، بينما كانت حياة (تيوفان) تميل إلى الخمود. لم يمر عليه يوم قط عصف به بعنف الإحساس بالزمن الذي يفرّ، بقدر هذا اليوم، وقلقُ المصباح الذي يتلاشى، والجسد الذي يذبل، وكل الأشياء التي لا تحصى عدداً، وتفسد وتفتنى. فباي شيء يمكن تشبيهه وجعه؟ بصرخة محتضرة؟ أم بصرخة غريق يرى سفينة تمر في الأفق ولا تراه؟ ثلاث سنوات وهو يجز هذا الألم وراءه، وهو عاجز عن التخلص منه، وساكن داخل آلامه، ولحمه وروحه يحترقان مثل هذه القضبان المتكلسة في كرم (ديمتري). وكما هي العادة دوماً، وعبر أوقات فتور الهمة هذه، تومض صور الأطلال. وكما هو الشأن دوماً أيضاً، ومثل مشرف على الموت، كان يرى مرور صور من الطفولة، ومشاهد بعيدة، وظهور أثيري لوجه والديه، ولغرفته في القاهرة، ولذكرياته الرحيمة والحزينة التي كانت تناديه. لقد كانت تتحدث إليه في حقول ظليلة، وحقول غير محدودة. في كل الأيام، ومن غير أن نعلم ذلك، نمر إلى جانب منتحرين مستقبلين.

وإذا ما كان المنتحري يشبه (تيوفان)؟ وإن كان ينام فيه؟ لا، مستحيل. يمكن للإنسان أن يضحّي بنفسه، أما الطبيبُ فلا. ومن ثمّ، فإنّ (أنطونيا) موجودة من الآن فصاعداً. إنها، كما لاحظ بحق هذا الشيطان (تيمور)، تحتلُّ مكانةً مهيمنةً أكثرَ فأكثر. فهل يمكن أن يكون القدر يقوده فجأة إلى طريق جديد؟

- مكانك، أيها الطبيب!

انحنى (تيوفان) فلمح (ديمتري) يشير إليه بإشارات كثيرة.

أبدى الطبيب ملاحظة فقال:

- أراك في تحسُّن.

- بالضبط. وتصوّر أن نقاشي مع هذا البغل (سيفاكيس)

سيستمرّ زمناً أطول..

- أنا أت..

نزل (تيوفان) الدرجات التي تفضي إلى الطابق السفلي،

وأخذ حقيبته الجلدية من الممر وخرج. وقال:

- الآن، ودفعة واحدة إلى الخارج. هل دفنتَ بلطة الحرب؟

- تريد أن تضحك! إن نقاشنا دام خمس عشرة دقيقة، وقد

مضت عشر دقائق منها في تبادل الشتائم.

- استنبط من ذلك أنه لا يريد أبداً أن يتخلّى لك عن قطعة

الأرض؟

- لا شيء! ولا حتى بوصة واحدة.

- إن هذا الرجل حاقّد تماماً. وهذا غير معقول. وتريدها

منه بعد أربعين سنة؟ اتحبّ أن أتكلّم معه؟ ربما كان بإمكانه أن

أقنعه.

الرجل الذي كان ينظر إلى الليل

أظهر اليوناني تكشيرة ازدرأ وأخذ صديقه إلى السيارة.

وقال:

- لسوف يحقق ذلك شرفاً عظيماً لهذا العقرب! وعلى أي حال، سوف أرى كيف ستنتهي كل هذه القصة. لسوف أبيع كرمي إلى متعهد سيرشورئيس البلدية ليجعل قطعة الأرض صالحة للبناء. وبعد ذلك، سوف يقتلعون أشجار العنب لبناء فندق أو (سوبرماركت). لننس! والأفضل أن تحدثني عن (بيبيا فاسيلي). لماذا هذه الدعوة على الغداء؟ مع أنها لا تعرفني.

- لأننا في أحد الفصح، ولأنها تعلم أننا صديقان ..

ثم قام الطبيب بخطوة إلى الوراء وقال:

- قُلْ إذا، هذه هي المرة الأولى التي أراك فيها مرتدياً بدلة! إنك أمير حقيقي!

داعب (ديمتري) بفخر طيبة سترته ذات البياض الناصع،

وقال:

- لا بأس به، هيه؟ إنه من ..

- من الـ (شاركسكان) (184) la sharkskin، إنني أرى جيداً.

- يا لك من خبير!

أبدى (تيوفان) ابتسامة. فقد كان هذا النسيج مقدراً جداً في الخمسينيات بين النخبة القاهرية، وكان يدعى جلد القُرْش. يا للهول. إنه يكذب:

- إنه قمة الأناقة. في الصيف، لم يكن أبي يرتدي إلا هذا.

- إن أباك رجل ذواق.

(184) الشاركسكان: نوع من النسيج الذي تصنع منه الثياب (كالبالات، والمعاطف ..) (المترجم).

اندس (تيوفان) في جانب السائق، قائلاً:

- وعلى الرغم من كونه رجلاً أكثر من ذواقة. فقد توقّف فجأة. مات في هوان.

دَهش (ديمتري)، فقال:

- ماذا تعني؟

- لا شيء سوى أنني بصدد أن أنقل إليك.

* * *

كان الرجل العجوز ممدداً على سريره في ضاحيةٍ قدرة من ضواحي (القاهرة). كانت عيونه مثبتةً على الجدران الرمادية والقدرة في الغرفة. وهو وحيد. قد هجره الجميع. وحيد. محطم. كان يحاول أن يفكر، ولكن أفكاره كانت مثل الخفافيش عمياء وتطير عشوائياً، مذعورة، وكلُّ منها يمزق جرحه أكثر. كان يقول: يا إلهي! .. يا إلهي! .. لماذا؟.

يُقال إنه استقبل، ذات مساء، في ناديه الخاص، الذي كان يديره، ثلاثة ملوك. في أي سنة كان ذلك؟ في سنة 1944؟ 1945؟ وهم: (تسوغ الأول) (185) Zog Ier، ملك (ألبانيا) Albanie،

(185) تسوغ الأول: واسمه (أحمد تسوغو Ahmet Zogu)، واسمه عند مولده (أحمد مختار بك تسوغلي 1895 - 1961) (Zogolli)، رجل سياسة ألباني، كان رئيس وزراء مرتين، وانتخب سنة 1925 رئيساً لجمهورية (ألبانيا)، ثم نُودي به سنة 1928 ملكاً للألبان باسم (تسوغ الأول)، إثر تحوّل النظام الجمهوري إلى المملكة الألبانية، وانتهى مُلكه سنة 1939 باحتلال إيطاليا الفاشية أيام (موسوليني) لبلاد. فلجأ تبعاً إلى: اليونان، فتركيا، فرومانيا، فبولونيا، فإستونيا، فالسويد، فالنرويج. ولجأ أخيراً إلى (فرنسا)، وحاول تنظيم مقاومة ضد الإيطاليين في بلاده، لكنه غادر فرنسا إلى (لندن) إثر احتلال النازيين لها. وقد استولت المقاومة الشيوعية الألبانية، المرتبطة بالزعيم (تيتو)، على السلطة سنة 1944 بعد تحرير ألبانيا نهائياً من النازيين. وقامت الجمعية الدستورية في ألبانيا بإلغاء النظام الملكي، وأنشأت جمهورية ألبانيا الشعبية. انتقل (تسوغ الأول) من (بريطانيا) إلى (مصر) أيام الملك فاروق قبيل انتهاء الحرب العالمية، لعله يحظى بدعم الزعماء العرب آنذاك للعودة ملكاً إلى بلاده، فأخفق. وبعد استيلاء حركة الضباط الأحرار بقيادة عبد الناصر على السلطة في مصر سنة 1952، غادر مصر للإقامة ←

الرجل الذي كان يتنظر إلى الليل

وصل أولاً، ثم تبعه (أومبرتو الثاني)⁽¹⁸⁶⁾ Umberto II، ملك (إيطاليا)، وأخيراً (فاروق)⁽¹⁸⁷⁾. هؤلاء ثلاثة ملوك. وكانوا

جميعاً ينادونه باسمه الشخصي: (موريس) Maurice.

كان الوجد الذي ينتفض في داخل صدره قد أصبح لا يُطاق. حاول أن ينادي، وهو مدرك مع ذلك أن أحداً لن يردّ عليه، في هذا المستوصف - المزيّف، الذي لا يؤوي سوى امرئٍ مختلٍ مسكين هجره المجتمع وأسرته، ومديرة سيئة الخلق وسارقة. فعل، ردة فعل، لا بقاء هنا، مع الموت الذي يتريص به. كيف؟ بقي لديه قليلٌ جداً من القوة.

قال لهم: «لن أتحمّل الانحطاط. لا أستطيع. فارجوكم، جنبوني هذه المهانة. تذكروا، كنتُ أهيمُن على ليالي (القاهرة)،

→ في الـ (كوت دازور) في فرنسا، وأوصى بالعرش سنة 1957، بعد أن هدّه المرض، لابنه (ليكا) Leka، وتوفي سنة 1961، ودفن في (باريس). وقد عادت أسرته نهائياً إلى (البنانيا) سنة 2002، بعد سقوط النظام الشيوعي فيها. ثم نقل جثمان (تسوغ الأول)، سنة 2012، من (باريس) ليدفن في عاصمة بلاده (تيرانا) Tirana (المترجم).

(186) أومبرتو الثاني (1904 - 1983): آخر ملوك إيطاليا، حكم 35 يوماً فقط من سنة 1946 التي شهدت استفتاء شعبياً حوّل إيطاليا إلى النظام الجمهوري، وهو ابن الملك (فكتور - عمانوئيل الثالث) Victor - Emmanuel III الذي حكم إيطاليا من سنة 1900 إلى سنة 1946، وقد توفي (فكتور) سنة 1947 في الإسكندرية بمصر (المترجم).

(187) فاروق: وهو (فاروق الأول) (1920 - 1965)، آخر ملوك (مصر) عملياً من سلالة (محمد علي باشا)، القائد العثماني الذي كان قد انضرد بحكم مصر سنة 1805، ثم حصل على استقلال ذاتي لمصر ضمن إطار السلطنة العثمانية، ووُزّت الحكم لابنيه وأحفاده من بعده. حكم فاروق مصر من سنة 1936 إلى أن خلفه تنظيم الضباط الأحرار يوم 26 تموز/يوليو بعد ثلاثة أيام من انقلابهم عليه، وولوا ابنه (أحمد فؤاد) المولود في 16 كانون الثاني/يناير سنة 1952، تحت الوصاية، باسم (الملك فؤاد الثاني)، ثم لم يلبثوا أن خلفوه بدوره في يوم 18 حزيران/يونيو من سنة 1953، وألغى النظام الملكي بمصر وأعلن النظام الجمهوري. لجأ الملك فاروق أولاً إلى إمارة (موناكو) Monaco، ثم تحول إلى إيطاليا إلى أن توفي فيها في ظروف غامضة، ونقل جثمانه ليدفن في مصر. والمعروف أن كاتب الرواية الراهنة (جلبير سيويه) قد نشر كتاباً سنة 2006 بعنوان: (الكولونيل والطفل - الملك: ذكريات من مصر) - Le colonel et l'enfant roi، ويعني بـ (الكولونيل) هنا (البيكاشي أو المقدم عبد الناصر)، أما الطفل فهو الأمير (أحمد فؤاد) ولي عهد فاروق (المترجم).

وكنْتُ أنتزع إعجاب الجميع».

لم يُقدِّموا له سوى أجوبة استسلامية وإشارات تعبر عن العجز.

وفجأة انقبضت يداها.

كان يشعر أن شيئاً ما يتفتت وينحل في داخل جسمه غير المرئي. وكانت أحلامه الأخيرة تفسد ببطء. فقد همد كل ما كان يعيشه قبل اللجوء، وكل ما كان يحبه، وتحول رماداً.

كانت أجراس كنيسة (القديس يوسف)، التي يذهب إليها كل أحد، تُقرع ظهراً. فلم يسمعها. فقد كان انتباهه مركّزاً على الشبح الأسود في زاوية من الغرفة.

وحينئذ، مدّ ذراعيه نحوه ودمدم بقوله: «تعال».

* * *

- لم تقل لي قط ماذا كان يعمل في الحياة. بائع جمال؟

أغلق (تيوفان) باب ذكرياته، وأجاب بقوله:

- أنت مُسل.

- رجل أعمال؟

- تريد أن تضحك؟ لقد أمضى حياته في العطاء، وكان يعلن على

حساب أمي قائلاً: «إنني أفضل تخزين ذكريات». ومع ذلك كان يكسب

مالاً. أظننا. لقد كان مقامراً، و(كازانوفاً)⁽¹⁸⁸⁾ Casanova وسيّداً

كبيراً.

- أنت مازلت لا تجيبيني: ما وظيفته؟

- إنه يعمل في كل شيء. كاتب سيناريوهات، فقد كان مغرمًا

(188) كازانوفاً (1725 - 1798): مفامر إيطالي ومؤلف مذكرات، كان نموذجاً فريداً لإغواء

النساء، ويوصف باسمه كل من يتشبه به أو يسلك سلوكه (المترجم).

ب (لوبيتش)⁽¹⁸⁹⁾ Lubitsch و(كابرا)⁽¹⁹⁰⁾ Capra، وقد عمل مدة في الوسط السينمائي، إلى اليوم الذي وجد فيه، لا أدري كيف بالضبط، على رأس نادٍ للعب وحيدٍ في الشرق الأوسط. إن الملك (فاروق)، وهو جالس بلا شك حول طاولة لك (بوكر) poker (191)، كان قد منحه - وهذه حُظوة لا تُقدَّر بثمن في بلد مسلم - رخصة اللعبة والخمر.

- يبدو أنه كان يحبّ أباك!

- ليس أقل من الناس. في الحقيقة، كان الملك، المقامر المتمكّن هو نفسه، يقدر أن نادياً للعب داخل بلده سوف يوفر عليه أن يعبر المتوسط ليذهب إلى (دوفيل)⁽¹⁹²⁾ Deauville أو (موناكو)⁽¹⁹³⁾ Monaco. وأنا أحدثك عن سنوات الأربعينيات. وكان الإنكليز لا يزالون يحتلون مصر. تصوّر أناساً ميتين من العطش، في قلب الصحراء، ويكتشفون واحة. وهذا النادي،

(189) لوبيتش: (إرنست - Ernst)، مخرج سينمائي أمريكي من أصل ألماني (1892 - 1947) (المترجم).

(190) كابرا: (فرانك - Frank)، مخرج سينمائي، وكاتب، ومنتج سينما أمريكي من أصل إيطالي (1897 - 1991) (المترجم).

(191) لعبة ميسر شائعة في كثير من بلدان العالم وبخاصة أمريكا والغرب، وهي لعبة ورق ومال، وكانت بعض الشخصيات السياسية والفنية العربية مدمنة عليها للأسف الشديد، وهي محرمة شرعاً، لأنها كسب غير مشروع لمال الغير (المترجم).

(192) دوفيل: بلدية في منطقة (كالفادوس) Calvados في الساحل الشمالي لفرنسا، تشتهر بمهرجانها السينمائي الدولي، وبكازينو كبير، وفنادق فخمة، واستراحات ومنتجعات، وينظر إلى دوفيل على أنها ملكة شواطئ النورماندي، وفيها مركز للمؤتمرات، وفيلات (المترجم).

(193) موناكو: إمارة تقع على (الشاطئ الأزرق) Cote d'Azur (على المتوسط، في منتصف المسافة بين (نيس) Nice والحدود الإيطالية، وهي دولة مستقلة، ذات نظام دستوري، مساحتها نحو 2كم²، وسكانها نحو أربعين ألف نسمة، وعاصمتها (موناكو) ومنطقة (مونتيفارلو) Monte Carlo - جزء منها، وفيها كازينو، وفيها أنشطة فنية كثيرة، ومتاحف، ومحطة إذاعة شهيرة، وهي قبلة السواح من العالم، للأثرياء جداً فقط، واللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية فيها (المترجم).

سرعان ما أصبح منجماً للذهب. وأنت لا تستطيع أن تتصورَ المبالغ التي كان يُلَعَبُ بها على الطاولات الخضر، ويتقاضى والدي عليها نسبة مئوية.

أطلق (ديمتري) صَفْرَةَ إعجاب، وقال:

- حسناً! إنه لمن المؤسف أن يحترق هذا كله. وإلا كنتَ وجدتَ

نفسك على منبع للثروة.

هزَّ (تيوفان) كتفيه، وقال:

- لا شيء. ولا حتى فلسٌ واحد. إن نبع الغنى كَسَبْتُهُ بنفسي،

يا صديقي. وكما يقول الإنكليز: So what⁽¹⁹⁴⁾؟ المال يذهب

ويجيء. ويمكنك أن تجمعهم، ويستمر في كونه على ما هو: كومة

من الرمل. والمرء لا يبني شيئاً على الرمل.

وبينما كانا يصعدان نحو القلعة وحصونها، ازدحمت الأزقة

بسكان الجزيرة الذين يرتدون لباس الأحد. وفجأة انطلق حمّار

من الشيطان، وفوراً حَيَّيْ بوابل من الشتائم، فزار (ديمتري) قائلاً:

- Ghamoto⁽¹⁹⁵⁾! ماخور!

كبح (ديمتري) نفسه، وقال بلهجة أكثر اعتدالاً:

- أرجوك، يا (تيو)، لا تهزَّنْ بدني بترهاتٍ من قبيلِ (المال

لا يصنع السعادة). الأمر ليس كذلك عندي، من فضلك.

- أنت لم تفهم. الأمر لا يتعلّق بالسعادة، ولكن بعجز المال

في مواجهة التعاسة، والمرض، والوحدة. إن أي ثروة لن تحوّل

إنساناً إلى ما لا يمكن أن يكون عليه.

(194) بمعنى: ما الضرر؟ (المترجم).

(195) كلمة يونانية بحروف لاتينية تعني (ماخور)، وهو بالحروف اليونانية (στυαμο) (المترجم).

رفع (ديمتري) عينيه إلى السماء، وقال:
- Mallakiess⁽¹⁹⁶⁾، حماقات! إنني أتفق معك، إن الثروة لا تكفي، لا اليوم ولا حتى إلى الأبد، كي تسمو بإنسان. ولكن اليوم، أكثر من أي وقت مضى، يحطُّ الفقرُ منه. أنت، الطبيب، تعلم جيداً أفضل من أي شخص أن عالم المعالجات ينقسم بين أغنياء ومُعوزين. اذهب إذن وقف في الصف في مشافينا العامة، واسأل هؤلاء الناس الفقراء إذا ما كان المال لا يصنع السعادة. طبعاً، لو كنتَ عليلًا، فإن ملياراتك لن تنقذك، ومن هنا، فإنني أفضل أن أرحل مرفوع الرأس، أليس كذلك؟
وتابع يقول:

- وفيما يَخُصُّ الوحدة.. كلُّ شيء يتعلَّق بماهيَّتها، يا عزيزي: هل هي مختارة أم مفروضة؟
قال (تيوفان):
- قفْ على اليمين.

وفي الحال أوقفتِ السيارة، واستأنف (ديمتري) يقول:
- ومن نحو آخر، في موضوع الوحدة. لماذا تعيش وحيداً؟ من غير أي امرأة خلال ثلاث سنوات. وأنت لا تزال شاباً، أنت في..
- في الخامسة والأربعين..

- أنت أصغر مني بخمس عشرة سنة ولا تَزِنُ مئة وعشرين كيلو. وأنت مهيبُ الطلعة. إذاً لماذا؟
بقي سؤال (ديمتري) بلا جواب. غادر (تيوفان) السيارة.

* * *

(196) هذه الكلمة باليونانية (σειμαλακ)، وهي بمعنى (حماقات) التي ذكرها (ديمتري) بعدها (المترجم)..

اقترحت (بيبا) قائلةً:

- أيرغب أحدٌ في القهوة؟

ارتفعتُ أيادي (الباشا) و(أنطونيا) و(تيوفان).

فسألتُ (بيبا):

- وانتِ، يا سيِّد (هاتسيس)⁽¹⁹⁷⁾ Hatzís؟

- ناديني (ديمتري). أشكرك. إن votrekokoretsi⁽¹⁹⁸⁾ غمرتني!

وتلمَّس كُرْشَه، وقال:

- لا ينقُصك شيءٌ لتغمريني به.

لم يكن (فالستاف)⁽¹⁹⁹⁾ يبالغ، فالنقانق الضخمة من ذبائح

الحيوانات، والسَّلَطات، والحَمَل المشوي، وما لا يُحصى من أنواع

الفواكه والحلويات تُشبع كتيبة.

ألحْتُ عليه (بيبا) قائلةً:

- بحق؟ لا شيء؟

وكانت قد أرفقتُ سؤَالها بنظرة نافذة.

قال (ديمتري):

- لا، يا سيِّدتي، بحق.

- (بيبا) ..

- (بيبا) ..

- إنه لأمر مؤسِّف. أرجو ألا تأسَف على ذلك.

(197) الاسم الثاني أو اسم النسبة لـ (ديمتري)، وناذته به (بيبا) احتراماً له (المترجم).

(198) كلمة يونانية بحروف لاتينية، وتعني (المشاوي)، على طريقة (الشاورما)، ولكن على أسياخ

أفقية، وهي تشتمل على أحشاء الحمل أو الماعز: كالأمعاء، والرئتين، والقلب، والكبد... بعد غسلها

جيداً وتقليحها وتتبيلها، وغمرها بالليمون، إلخ، والكلمة بالحروف اليونانية (οκορέτσικ)،

وهي طبق بلقاني أو تركي غالباً لأن اسمه بالتركية (kokoreç) (المترجم).

(199) يعني به هنا (ديمتري) نفسه، لشبهه ببطل شكسبير الذي مرت الإشارة إلى مواصفاته

من قبل (المترجم).

إن النبيرة التي نطقتُ بها الملاحظة الأخيرة هذه كانت ملتبسة على الأقل.

سال (تيوفان) نفسه: بأي شيء تلعب؟ فمئذ بداية الغداء، كانت مضيفتهم تعرض جميع أوراقها الراححة، تلعب بشعرها، ووركيها، ويديها، وصوتها، وكل ذلك لهدف وحيد هو: أن تسبي عقل (ديمتري). لقد كانت أشبه بـ (سيلفانا مانغانو)⁽²⁰⁰⁾ Silvana Mangano في قمة إغوائها. هل كان ذلك شذا خمر (فوكيانو) التي حملها إليها (ديمتري) أم الابتهاج بالشخص الذي عاد من بين الأموات؟

جهر (آخيل) بالقول وهو يرفع كأسه:

Christos Anesti! (المسيح قام)!

فأجاب (ديمتري) و(بيبا) بشكل كؤوس:

Alithos Anesti!⁽²⁰²⁾

انفجرت ضحكات من بعض الجوانب. ضحكات أطفال. انطلق (أليكسيس) فجأة إلى الشرفة، يلاحقه ثلاثة من أولاد الأزقة، وهو يصيح:
- لقد فُزْتُ!

كان يلوح ببيضة ملونة بالأحمر وكأنها غنيمة. قال وهو يندفع نحو (تيوفان):

(200) سيلفانا مانغانو: ممثلة إيطالية (1930 - 1989)، عانت من الفقر في الحرب العالمية الثانية، وتدرت على الرقص، وعملت موديلًا، قبل فوزها بلقب (ملكة جمال روما) سنة 1946، فتلقفتها السينما ومثلت فيها جملة أفلام. وقد سبقت الإشارة إليها من قبل، من غير ذكر اسمها لأنه كان يزعم أنه قد نسيه، ويتذكره هنا (المترجم).

(201) كلمتان يونانيتان بحروف لاتينية بمعنى الترجمة الواردة بعدهما، أي (المسيح قام) يعني: قام من بين الأموات، وصعد إلى السماء بعد صلبه وموته بثلاثة أيام، حسب المعتقد النصراني، وهي عبارة شهيرة للتهنئة، وتكتب بالحروف اليونانية (ἀνάσθηχριστός) (المترجم).

(202) كلمتان يونانيتان أيضاً بحروف لاتينية بمعنى (حقا، قام)، وتأتیان ردا على التهنئة السابقة وتكتبان بالحروف اليونانية (ἀνέστηθάλωσ) (المترجم).

- انظر، يا دكتور، إنها سليمة! بينما بيضاتهم (وأشار إلى رفاقه) تكسرت!

قال أحد الصبيان:

- لقد غششت!

- أنا؟ غششت؟

قالت (أنطونيا):

- اهدأ.

استفهم الطبيب قائلاً:

- هل يمكنك أن توضح لي؟ بأي لعبة يتعلّق الأمر؟

شرح (أليكسيس) قائلاً:

- تُمسك بيضتك بثلاث أصابع، وتصدّمها بشدة ببيضة منافسيك وأنت تقول: قام المسيح «Christos Anesti»، والفائز هو الذي ينجح في أن يحافظ على بيضته سليمة. وإن حصل ذلك، كان له حظ أكيد كل السنة.

- تهانئ. والآن، عدني ببعض الأشياء. إذا صادف أن بقي لديك فائض من الحظ، ففكّر بي. اتفقنا؟

مد الصبي يده، وقال:

- صافح!

- أصفح!

- وأنت، هل تريد أن تصطحبني للقيام بالفوس؟

قطبت (أنطونيا) حاجبيها وقالت:

- قل لي، ألا تعتقد أنك تبالغ؟

قال (تيوفان):

- لا عليك. سيسرني ذلك. ولكن لا يمكنني أن أكون حراً إلا

بعد الظهر، بعد مناوئتي. وعليك أن تخبرني قبل يوم.

أنارت ابتسامة مشرقة أسارير (أليكسيس)، وقال:

- إذا أخبرك: بعد غد. وفي الساعة الثالثة. (أو كي) OK؟

انفجرت (أنطونيا) فقالت:

- (أليكسيس)!

فطمأنه (تيوفان) بيده، وقال:

- ليس هذا بشيء. أنا مغتبط. وسوف أغوص أنا أيضاً معك.

واقترح على (أنطونيا) قائلاً:

- وأنت ستراقبينا، أليس كذلك؟

ظهرت على شفتي الفتاة الشابة تكشيرة خفيفة.

سأل الصبي:

- هل ستساعدني في تثبيت زعانف الغوص؟

وبقي هادئ الأعصاب.

اقترح (الباشا) فجأة تكريماً لـ (ديم تري) قائلاً:

- هل ترغب في تدخين سيكار جيد؟ وأنا لن أقدمه لك.

ثم التفت هذه المرة إلى (تيوفان)، وقال:

- أعتقد أنني فهمتُ أثناء عَشائنا الأخير أنك لا تحتمل رائحته.

أوشك الطبيبُ أن يردُّ بأنه لا يتذكَّر إطلاقاً أنه تطرَّق إلى

هذا الموضوع، ولكنه تأخَّر في الرد كثيراً. فقد كان (آخيل) قد دعا

(ديم تري) للثوان يتبعه إلى الداخل.

صاح (أليكسيس)، وهو يدور على عَقْبِيهِ:

- Yassou giatros⁽²⁰³⁾. لا تنسَ. الساعة الثالثة، بعد غد!

لسوف تعطينا أمي السيارة.

(203) كلمتان يونانيتان بحروف لاتينية بمعنى (سلاماً أيها الطبيب) (المترجم).

قالت (انطونيا): وهي تمسك بمقبضي عَكَازَتَيْها:

- سأذهب بحثاً عن قهوة.

قال (تيوفان):

- لا، لا تتحركي، سأتكفل أنا بها.

وتواري غير مبالي باحتجاجات الفتاة الشابة.

وعندما عاد، لم يجدها في المكان.

أمر غير متوقع، إنها لا تزال محيرة. وتردد هو في الانطلاق

للبحث عنها.

تجرع القهوة دفعة واحدة. من قلب المدينة كانت تتصاعد

أنغام الموسيقى، على إيقاع قرع الأجراس.

لماذا يهيجها الشيطان هكذا؟ في وقت من الأوقات، في

مطعم ومقهى (غريكوس)، اعتقد (تيوفان) أنها لانت. لقد

ضل الطريق.

الا تتذكر عبارات ميثاقك: إن كانت قد قررت أن تكون (أثينا)،

فإنك ستكون بحق صانع الفخار؟

وكما هي عادته، كان هذا الوغد (تيمور) قد طرح السؤال

الجيد. فهل كان (تيوفان) يرى نفسه في هذا الدور؟ لا يُعقل! مع

هذه السنوات من الفارق. لسوف يبدو في مظهر عجوز فاسق.

ومع ذلك..

كم مرة، منذ توقّفهما في (غريكوس)، ظهر طيف (انطونيا)

في مسير الليالي؟ وكم مرة تخيل راحة يده على خد الفتاة

الشابة، أو تخيل خده على خدها، وجفنيها قرب شفثيه؟ هل

هذه بدعة؟ أو ضلالة؟

لماذا تعيش وحيداً؟

لم يكن بإمكان (فالستاف)⁽²⁰⁴⁾ أن يتوقع أن فكرة التوّدّد نفسها إلى امرأة لا تلامس أبداً روحه. لا شك في أن الخوف من إلحاق الألم بغيره، أو إلحاقه بنفسه هو سبب التردّد. كم من الأيام، أو السنين، يمكن للمرء أن يحيا من غير أن يُحب، أو من غير أن يُحَب؟ وأين يقع الحد الذي يحدّد الحاجة الماسّة لملء فراغ ويحدّد الرغبة الحقيقية؟ وكم مرة لم يصح المرء في حياته قائلاً: «ها هي ذي، ها هو ذا»، ليستيقظ في بعض الأسحار فيما بعد وهو يهّمس: «إنها ليست هي على الإطلاق، إنه ليس هو على الإطلاق». عندما التقى (تيوفان) تلك التي ستصبح زوجته، كان مقتنعاً أنه في حضرة الحب الكبير. وفيما بعد، ويوماً إثر يوم، باشر الوهن عمله التقويضي، من غير علمهما. لم يكن منظوراً ولا معروفاً. وأخيراً، فإن الكائنات لا تتحاب إلا في المستحيل، والخطر، والشك. عادت (بيبا) إلى الشرفة مع (ديمتري)، وقالت:

– هل ترافقنا، يا دكتور؟

كان (ديمتري) وراءها بخطوة، ويداه معقودتان على بطنه، على اليسار قليلاً. وفكّر (تيوفان): «حقاً، لقد فتنته». ثم سأل:

– إلى أين تذهبان؟

– نريد القيام بجولة في الميناء.

– و(آخيل)؟

– أتمزح؟ هذه ساعة قيلولته. إنه يغط في النوم الآن. فهل

تأتي؟

– أشكرِك. إن (سكالالا) الآن تكون غاصّة بالناس. سأعود إلى

البيت.

(204) يعني به (ديمتري) للسبب الذي سبقت الإشارة إليه من قبل.

فذكره (ديمتري):

- ولكن السيارة معي.

- في هذه الحالة، سأنتظركما هنا.

جاء صوتُ (انطونيا) قائلةً:

- لا تقلقوا. سأبقى برفقة الدكتور.

وتقدمت نحوهم بلهات هامس، وشفتين مشدودتين. ووقفت

دفعة واحدة أمام الطبيب، وسألت:

- هل تعرف لعب الطاولة؟

فقال (ديمتري) ساخراً:

- بل إنه بطلٌ فيها.

- إذاً، سنلعبها.

أطلق اليوناني إشارة تشجيع صغيرة باتجاه الطبيب وتبع

خطى (بيبا فاسيلي).

وخرج الاثنان دفعة واحدة، وأخذت (انطونيا) مكانها على

أقرب كرسي. وحين نظر (تيوفان) في وجهها، لاحظ أنها كانت

تتنفس بصوت. ولم يكن قط رأى مثل هذا الشحوب في وجهها.

فقال قلقاً:

- هل أنت بخير؟

- أعتقد ذلك. إنني بخير قدر الإمكان.

أراها فنجان القهوة الفارغ. وقال:

- آسف. كنتُ أظن أنك لن تعودتي.

اجتاح اضطرابٌ يدي (انطونيا)، وقالت:

- خطأ، يا دكتور. لقد ذهبتُ لأتناول الدواء الذي كنتُ قد

وصفته لي في حالة الوجع المفصلي.

وأبدت له ابتسامةً شجاعة، قائلة:

- لا شيء خطيرٌ.

وكانت تريد أن تضيف شيئاً ما، لكنَّ شفيتها اللتين لا تزالان منفرجتين التصقتا بشدة، واجتاحتها رَجْفَةٌ قوية عبر كل جسمها. فمالت بجذعها إلى الأمام وتشبَّثتْ بطرف الطاولة. فاندفع نحوها، قائلاً:

- ما الذي تناولته؟

قالت بتلعثم:

- تناولتُ ال (دانترولين) (Dantro).. شيئاً من هذا القبيل.

- ال (دانترولين) (Dantrolène).

قَطَّب وجهه (أنطونيا)، وهي تنتفض باستمرار من الرجفة التي سَرَتْ من يديها المتشنجتين حتى وجهها. نهض (تيوفان) دفعة واحدة، وقال:

- لا تتحرَّكي. ساعود.

ويعد لحظة، عاد إلى الظهور مع حقيبه الجلدية. وفتَّش في داخلها، واستخرج قِنِينَةً (فالسيوم) Valium، وحزاماً وإبرة حَقْنٍ وكحولاً بـ 90 درجة.

وجدت (أنطونيا) قوة للسخرية، بالقول:

- إبرة؟ إني أهيم بها!

شَدَّ (تيوفان) الحزام فوق ثنية الكوع، ونظَّف التجويف الذي أتاح المجال لظهور وريدٍ. أصدرتْ (أنطونيا) أنَّةً خفيفة عندما غرز الإبرة فيه.

دام الحقنُ بضعِ ثوانٍ. ثم قال (تيوفان):

- عليك أن تتمددي. تعالي، سأرافك إلى غرفتك.

- بِمَ حَقَّنْتَنِي؟

- بِمَضَادِّ لِلتَشْنُجِ. صَدَقِينِي، الأَفْضَلُ أَنْ تَأْوِي إِيَّيَ السَّرِيرِ.

أَرْجُوكَ. تَعَالَيْ.

مَالِ عَلَيْهَا وَرَفَعَهَا.

(12)

أغلق (تيوفان) النوافذ الخارجية ففرقت الغرفة في شبه عتمة لطيفة. وفي الخارج أصواتُ ضحكٍ تستمرُّ في الانطلاق، بينما كانت الشمس تستعدُّ للدوبان في ظلِّ جزيرتي (ليبسي) و(ماراثي) الصغيرتين.

نطقت (أنطونيا) بصوتٍ مهموس، ورأسها يرتاح على الوسائد،
قائلة:

- (تيوفان)، لماذا أنا؟

سمعتها (تيوفان) تنطق باسمه الشخصي للمرة الأولى.

جلس على طرف سريرها، وقال:

- ماذا تعنين؟

كررت سؤالها قائلة:

- لماذا أنا؟ أيّ ذنبٍ اقترفتُ لأستحقَّ هذا الجسد الأشل، وهذه

الساق المشوهة؟ ولماذا جعل القدرُ مني دميةً بلا خيط حتى إن

الناس المهذبين جداً يتجنبون النظر إليها عندما تمرّ، ولكنّ

الأندال والصفار يشيرون إليها بالأصابع؟ لماذا؟ أعطني جواباً

يا دكتور (دبّانه)!

أمعن (تيوفان) النظر فيها ملياً، وقال:

- أنت تقترفين خطأ، يا (أنطونيا). أنت غير مسؤولة عن حالتك ولا آثمة، أنت فقط ضحية سبب طبيعي.

- طبيعي؟

- إن الأمراض التي تصيبنا لا تشنُّها علينا قوى خفية أو شيطانية، ولا المصادفة، ولا الآلهة. وإنما تنشأ من اختلال في توازننا الداخلي. والطبيعة ليست غريبة، ولا ظالمة، ولا مجنونة، وهي على العكس ثابتة وأمينة في مسلكها الخاص. ومرضك لم يقع عن قصد، وإنما جاء من فيروس لشلل الأطفال متفشٍ للغاية شاء نحسه أن يقف في طريقك. ماء ملوث وطعام فاسد لا علاقة له بعقوبة خفية.

رمقته (أنطونيا) بإمعان وعدم تصديق، إن لم يكن بذهول، قائلة:

- هل أنت مُدرِك لعدم تماسك افتراضك وأنت تقول: «من فيروس لشلل الأطفال متفشٍ للغاية شاء نحسه أن يقف في طريقك»؟

فأكد لها ذلك.

لكنها قالت:

- وأنت تعتقد دائماً أنني أخطئ عندما أطرح سؤالاً: «لماذا أنا؟»، لماذا فيروسُ الشلل هذا وُجد في طريقي أنا، لا في طريق أخي، أو أمي، أو صديقتي الأثيرة، أو طريقك أنت؟ (تيوفان)، أنا لست عائلة مثلك، ومع ذلك فإنني أتخيل أن هنالك كثيراً من الناس الذين يشربون، في كل الأيام، من ذات الماء، ويأكلون من ذات الطعام الفاسد الذي أفسد عليّ حياتي. ومع ذلك لم يتأثر هؤلاء الناس. لا تقل لي: لا فأنت

تعلم أن الحق معي. الحق معي، أليس كذلك؟
وبينما كانت (أنطونيا) تتكلم، خطر على بال (تيوفان)
مقال قرأه في مجلة علمية حين كان يتابع دراساته في
الطب. كان في القرن 19، فيزيائي ألماني، هو (روبرت كوخ)
(205) Robert Koch، يُدافع عن النظرية، التي أصبحت
اليوم مقبولة على نطاق واسع، وتقول إن الجراثيم (البكتيريا)
والفيروسات تشكل أسباب أمراضنا. وفي العصر نفسه، قام
أحد زملائه، وكان معارضاً بضراوة لهذه الفكرة، بتجرع كأس
من ماء ملوث بالبكتيريا الهدبية (Vibrio cholente)،
المسؤولة عن الكوليرا في رأي (كوخ). وكانت المفاجأة العامة،
أن الرجل ظل في صحة تامة. وقد انتهت مقالة المجلة هكذا:
«لسبب لا يمكن تفسيره، لم يشعر هذا الرجل بأي عرض،
ولكنه كان مع ذلك على خطأ». غير معقول! فكر (تيوفان)
فوراً. لقد عاش الرجل، ومع ذلك فإن كاتب المقالة أصر على
نقده النظرية (كوخ). فإذا كانت (البكتيريا الهدبية) تسبب
الكوليرا، وإذا كان هذا الرجل لم يتأثر بها، فإذن كيف يكون
على خطأ؟ وقد استنبط (تيوفان) من ذلك أن العالم العلمي
كان يرفض عموماً أن يأخذ بالحسبان الاستثناءات المتعلقة
بنظرية ما، لأن هذه الاستثناءات كانت تجازف بأن تُقيم
الدليل على حدودها.

(205) روبرت كوخ: فيزيائي ألماني (1843 - 1910)، وهو أحد مؤسسي (علم
البكتيريا) bactériologie، واكتشف سبب مرض (الجمرة) anthrax سنة 1876، والجراثومة
المسؤولة عن مرض السل الرئوي (الدرن) المسماة باسمه (مُحصية كوخ) سنة 1882، والجراثومة
المسؤولة عن مرض (الكوليرا) سنة 1883. وقد نال جائزة نوبل في الفيزيولوجيا سنة 1905
(المترجم).

لماذا أنا؟

لما كان (تيوفان) مرتبكاً، فقد صلّى بصمت من أجل أن يأتيه جواب متماسك، فلم يجد شيئاً.
ولما كان مرهقاً قليلاً، سُمِعَ يُدْمِمُ بقوله:
- Mektoub⁽²⁰⁶⁾.

وما إن نطق بهذه الكلمة، حتى قال في نفسه إن (أنطونيا) سوف تلعبه لهذا الاعتراف بجميع أنواع العجز، ولهذا العذر الذي يستدعيه (الإسلام) بشدة لتسويغ قصور المرء الذاتي⁽²⁰⁷⁾. ولكن لا. على العكس، ظهر بريق مَرِحٍ في عينيها. وقالت:

- أبعدُ عنك العامل الطبيعي.. فأنت بعد ما يقرب من ثلاثين عاماً في (الغرب) تظلُّ في النهاية عربيّاً.
وياندفاع عضوي أخذت (أنطونيا) يده وضغطت عليها بلطف. وفي الحال، سرت في جسم (تيوفان) رعشة، امتدت موجتها إلى بطنه وقلبه. وفي لحظة، لحظة واحدة فقط، فكّر في أن عليه أن يتخلّص. وعندما حرّريده، كان ذلك من أجل أن يطوّق يد الفتاة الشابة. كانت أيديهما تتبادل الكلام، هذا أكيد. وكانت أصابعهما تتبادل الكلمات. لقد تسلّلت

(206) كُتِبَ هذا اللفظ العربي (مكتوب) هنا بالحروف اللاتينية، ولعله يقصد به أن هذا ما كتبه القدر الغيبي على المرء، كان يمرض أو يُصاب بمصيبة، على حد قول العامة (إللي مكتوب عاجبين لازم تشوفه العين)، في نوع من التسليم بالحتمية أو الجبرية في الحياة، وهذه الكلمة التي خطرت على بال المؤلف في هذا السياق من تأثير فترة عيشه الأولى بمصر (المترجم).
(207) يشير المؤلف هنا، على لسان (تيوفان)، إلى مسألة التسليم بالقضاء والقدر في الخير والشر مما لا يملك المرء لنفسه فيه شيئاً، لا جلباً ولا رداً، وهو ما يعرف في الفلسفة الإسلامية بالجبرية، أي أن الإنسان مسيرٌ في الحياة، في مقابل الفلسفة التي تقول بأنه مخير، وتُعرف بالفلسفة القدرية (المترجم).

الحياة للتو بين وُحْدَتَيْهِمَا. أغمض (تيوفان) عينيه. وعندما
فتَحَهما، كانت (أنطونيا) قد غَفَتُ.

* * *

همسَ صوتٌ:

- دكتور (دبَّانِه)؟

التفتَ (تيوفان)، فرأى (آخيل) على عتبة الغرفة.

كانت (أنطونيا) لا تزال نائمة. فنهضَ (تيوفان) بهدوء.

سأل (الباشا):

- هل هي بخير؟

- إنها أفضل.

وأغلق الباب.

وفي الصالون بعد ذلك، كان (الباشا)، يمسك مسبحته، وقد
دعا الطبيبَ إلى الجلوس بجانبه على الأريكة. كان الصمتُ
يسود في البيت، فقد كان (ديمتري) و(بيبا) يواصلان جَوْلَتَهُمَا
في (سكالالا). كانت الساعة 10:16. كم من الوقت بقي (تيوفان)
جالساً على السرير؟

قال (الباشا):

- ما الأمر، يا دكتور؟

- كانت أوجاعها العضلية تعذبُها. وقد أعطيتها حُقنة.

- يا للصغيرة المسكينة. إنني لم أعرفها في صحة جيدة سوى

بضعة أشهر. وعندما قدَّمتُ أمها أحدنا للآخر، كانت (طونيا)

قد بلغت الحادية عشرة من العمر. وبعد سنة، أصابها هذا المرض

القبيح. يا للتعاسة! فتاةٌ جميلة جداً، ومتألقة جداً، حُطِّمَتْ

بهذه الطريقة.

ثم قال:

- Mektoub⁽²⁰⁸⁾.

فعلّق (تيوفان) على ذلك قوله:

- فعلاً.. إن هذا الأمر في مورثاتك (جيناتك)، أنت أيضاً..

طَرَفَ (الباشا) بعينيه، وقال:

- عفاؤ؟

- لا شيء. لا شيء مهم. هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً

فضولياً؟

- إن قلت لك لا، فإن حوارنا يجازف بأن يكون قصيراً. وسوف

أسف على ذلك. هيا قل.

- كيف عرفت (بيبا)؟

أخذ (أخيل) نفساً، وقال:

- أوليس لديك سؤال آخر؟ لأنك تجازف بأن يخيب الجواب

أمك.

- قل على أي حال.

- بالمصادفة. عرفت (بيبا) بالمصادفة. ذات يوم، في مكان ما.

- هذا هو ما يستحق التوضيح.

- تخيل المشهد، قبل عشرين سنة. وكنت لا أزال نشيطاً

نسبياً. وكانت هي، في أوج جمالها، ثمرةً يانعة. وقد وقعت في

غرامها، لا إلى أقصى حد، ولكن برفق. كنت أحترس من الأهواء،

فقد كانت تحرق ولكنها لا تدفئ. وقبل خمس سنوات أودت

(208) يكرّر (الباشا) هنا ذات الكلمة التي ذكرها (تيوفان) آنفاً لـ (انطونيا)، تعبيراً عن التسليم

بما يأتي به القدر، وذلك من غير اتفاق بينهما، وقد تتبّه (تيوفان) فوراً، وأطلق تعليقه، الذي يعبر

عن وجود تأثير مشترك للعيش السابق لكليهما في مصر بين المسلمين (المترجم).

بزوجتي (لوكيميا)⁽²⁰⁹⁾ leucémie صاعقة. فماذا يفعل المرء حينما يكون في عمر أقل من الستين، ويكون ثرياً، وفي صحة جيدة، ووحيداً في هذا العالم؟ وأخيراً، كنتُ وحيداً تقريباً. كان لديّ دوماً كثيرٌ من الأصدقاء.

- أوليس لديك أطفال؟

- لا. لا زوجتي (ليلى) Leila، ولا أنا كنا نتمناه. لأن المرء يمكن أن يعيش عيشة أفضل بلا أطفال. هل لديك أنت أطفال؟ فتش (تيوفان) في سترته وأمسك بعلبة سكاثره، وقال لـ (الباشا):

- هل ترغب في واحدة؟

- أنا لا أدخن سوى سيكار، وأيضاً لا أكثر من واحد في اليوم. قلبي لا يحبه كثيراً.

- معه حق. و(ليلى).. شرقية، أظن؟

- إنها مصرية ومسلمة. ولكنها مسلمة حقيقية. وليست من اللواتي بدأ المرء يلتقيهن في شوارع (القاهرة). وقد رفضتُ أن تتحوّل عن دينها احتراماً له. ومن نحو آخر لم تكن هي تمني هذا التحوّل. ولكنني أنا من انتقل إلى الجهة الأخرى.

- ومن غير حالة نفسية؟

- أبداً. ففي نظري هناك ما يمّت بصلة إلى حكايات الجنيات. ومن غير happy end⁽²¹⁰⁾. لقد همّتُ

(209) اللوكيميا: سرطان الدم، ويعرف أيضاً بابيضاض الدم، نظراً للتكاثر الشاذ للكريات البيض في الدم على حساب الكريات الحمر التي تحمل الأوكسيجين من الرئتين إلى القلب وسائر الأعضاء، وتعود بثاني أوكسيد الكربون من سائر الأعضاء إلى القلب فالرئتين (المترجم).
(210) نهاية سعيدة (المترجم).

ب(الثلجة البيضاء) (211) Blanche Neige. ولم يكن كثيراً أنني كنت مستعداً لأن أضحي بحياتي من أجل الأقرام السبعة (212). فلو كانت (ليلي) بوذية (213)، لكنتُ تحولتُ براهمانياً (214).

- لا يسعني إلا أن أشاركك في الرأي بخصوص التحول الحزين الجاري في (مصر) وفي كل (المشرق) أيضاً. فأثناء رحلتي الأخيرة، إلى هناك، راعني أن أكتشف في شوارع طفولتي

(211) الثلجة البيضاء: حكاية شعبية ألمانية الأصل تدعى بالألمانية (Schneewittchen) بالمعنى نفسه، لها روايات كثيرة تختلف في التفاصيل وبعض المفصل، وقد جمعها ونشرها الأخوان (ياكوب وفيلهلم غريم) Jacob und Wilhelm Grimm، ونشرواها سنة 1812. وقد ترجمت إلى لغات كثيرة منها الفرنسية، والإنكليزية بعنوان (Snow White)، وقد اقتبست في ميادين مختلفة منها: الأفلام السينمائية الصامتة والناطقة، وأفلام الرسوم المتحركة، والمسرح، والموسيقى، والأدب، إلخ. وأطلق اسم (بياض الثلج) على أفلام الرسوم المتحركة المدبلجة بالعربية، ونفضل تسمية (الثلجة البيضاء) أي القطعة من الثلج، لا (الثلج الأبيض) كما هي الترجمة الحرفية للاسم، وقد ذكرها المؤلف في هذا السياق للمبالغة في جمال الأميرة التي أطلق عليها هذا الاسم في عصرها. وقد كتى (أخيل) باسمها هنا عن (ليلي) عندما أحبها وتزوجها في عز شبابها وجمالها (المترجم).

(212) الأقرام السبعة هنا هم الذين أوت الأميرة (الثلجة البيضاء) إلى كوخهم في الغابة، حين هربت من خطر امرأة أبيها الملك، وعاشت معهم وساعدها حتى تزوجت من الأمير الذي هام بها وأنقذ حياتها في نهاية المطاف (المترجم).

(213) البوذية: ديانة أرضية وفلسفة أسسها (بوذا الشكياموني) (536 - 480 ق م) في الهند، لكنها انحسرت منها نهائياً تقريباً لصالح الهندوسية، وأكثر البلدان التي تنتشر فيها البوذية تقع في شرق آسيا وجنوبها الشرقي، وعلى النحو التالي حسب النسبة المئوية لسكانها: كمبوديا (97)، تايلاند (93)، لاوس (90)، بورما (80)، بوتان (75)، سريلانكا (69)، منغوليا (55)، الصين واليابان والكويتان وفيتنام (36)، سنغافورة (33)، تايبان (21)، نيبال (15). وكان لـ (بوذا) تمثال ضخم جداً منحوت في واجهة جبل في باميان في أفغانستان تم تفجيره من قبل نظام حكم طالبان سنة 2001. ومما يروى هنا أن البوذية أخذت تنقش ولو على استحياء في بعض الدول الإسلامية كباكستان وإيران، وإلى بعض الدول العربية كلبان والسعودية وقطر والإمارات، ربما بسبب العمالة الآسيوية فيها. يبلغ مجموع البوذيين في العالم نحو 500 مليون نسمة، والغالبية العظمى منهم في البلدان التي ذكرنا النسبة فيها. وهي في ترتيب الديانات - من حيث الانتشار - رابعة بعد: النصرانية، والإسلام، فالهندوسية (المترجم).

(214) البراهماني: نسبة إلى (براهما) إله الخلق في الديانة (الهندوسية) التي تعد ثالث ديانة من حيث عدد الأتباع بعد: النصرانية، والإسلام. ويبدو أن المؤلف خلط هنا، على لسان (أخيل)، ما بين البوذية والبراهمانية التي هي (الهندوسية) نفسها في تعبيره من حيث لا يدري، ومركز ثقل هذه الديانة في الهند ونيبال (المترجم).

الرجل الذي كان يَنْظُرُ إلى الليل

التغيّر. ويمكنني أن أوكد لك أنّهنّ كنّ من المسلمات النبيلات، وبهذا الخصوص، عليّ أن أروي لك مشهداً لا يزال منقوشاً في ذهني. وكان هذا المشهد قد جرى في (القاهرة) ..

توقّف (تيوفان) من أجل إطفاء سيكارتته في المنفضة، ثم تابع يقول:

- كنتُ آنذاك أتناول فطوري في صالة الطعام، لا أدري في أي فندق. وكانت هنالك امرأة منقبة، وتجلس قبّالتي إلى طاولة، ويدها في قُفازين أسودين. وتضع طفلها على ركبتيها. كانت هذه المسكينة ترغب على أن ترفع حجابها جزئياً لتلتهم طعامها. إنها صندوق رسائل بشري. وما أثر فيّ، حقيقةً، هو موقف الطفل. فقد وقّف الطفل طوال الفطور على محاولة يائسة لنزع الحجاب عن أمه. هل يمكنك أن تتصوّر الأفكار التي كانت تتزاحم في رأس هذا الطفل المحروم فجأة من وجه أمه؟ بين الأقربين، كان بإمكانه أن يتأمّله على مهل. أما هنا، بين الجمهور، فكان الوجه محجوباً عنه. وهذه حالةٌ عجيبة يمكن أن يستمتع بها الدكتور (فرويد) (215) Freud، إلا تعتقد ذلك؟

قال (الباشا):

- نتجاوز الأمر! إن مجرد الحديث عن ذلك يحرك عليّ قُرحتي.

(215) فرويد: (سيفموند - Sigmund)، عالم أعصاب نمسوي (1856 - 1939)، أسس (علم النفس التحليلي)، وكانت فرضياته عن اللاوعي، وال(هو)، وال(أنا)، وال(أنا الأعلى)، وكبت الدوافع، والأهمية المركزية للنزعة الجنسية، وال(ليبيدو) أي (البحث الفريزي عن اللذة)، وفكرة العقد، وتفسير الأحلام، وسوى ذلك، قد أحدثت ثورة في علم النفس، وأحدثت تحولاً في رؤية الكائن البشري، وقد أفاد كثيراً من معطيات الأدب القديم (المترجم).

- لنتجاوزُهُ، كما قُلْتَ. والأفضل أن نتحدَّثَ عنك وعن (ليلى):
لماذا لم تكونا تتمنيان أطفالاً؟

- لأننا ربّما كنا نشكّل بزهو الزوجين الأكثر أنانية في العالم.
وقد كُفينا الرضاعات، والحفاظات، والبكاء. وأنا لا أعرف من
قال: «إنجابُ الأطفال شكْلٌ من الخلود». وأنا و(ليلى) كنا نريد
أن نعيش، وأن نساfer، وأن نزور أجمل الأماكن في هذا الكوكب.
وباختصار، لقد ضحكنا كثيراً وعشنا كثيراً.

أطلق (تيوفان) نفثة دُخانٍ بقيت معلقةً بنور الغرفة الشاحب، وقال:
- ليس لديك أطفال، ولكن عندك (أنطونيا).

- إنها هدية. نعم، وأنا أحبها بعمق. وأعلم أنها تقدرك.
إضافة إلى أنني مقتنع بأنك تحمل لها الكثير. بل سوف أذهب
إلى أبعد من ذلك: أعتقد أنها تحمل لك مثل ذلك.
ابتسم (تيوفان) وقال:

- ولهذا السبب تركتنا وحيدين على المصطبة؟

- لا يمكنني أن أخفي عنك شيئاً. إن اللقاءات لا تكون
دوماً ثمرة المصادفة. إن الأطفال الذين يشكّلون حيواتنا هم
أكثر تعقيداً وغموضاً بكثير. إن النساء، والرجال، والحيوانات،
والأطفال جميعاً ليسوا سوى طلاسَم.
وتابع بلهجة نشطة مفاجئة قائلاً:

- (تيوفان)، قُل لي الحقيقة، ألا يمكن فعل شيء من أجلها؟
لقد عرفَ الطّب تقدُّماً كبيراً منذ خمسة عشر عاماً. وأوليس هنالك
أي مداخلَة جراحية لها؟ إن لديّ المال، وأنت تعلم. لقد كلّفني هذا
النزُلُ ثروة طائلة. وسوف أقدم عن طيب خاطر كل ما بقي لديّ
إن كانت هنالك فرصة، ولو كانت بسيطة، لشفاء (أنطونيا).

اعترف الطبيب بعجزه قائلاً:

- لسوء الحظ، فيما يخص جلسات إعادة التأهيل، التي تسمح أحياناً بأن تشجّع تنشيط بعض العضلات العاجزة وتحسينها، ليس هنالك شيء. وينصح بعض الأطباء بالتنبيه الكهربائي التوضيحي، وأما أنا، فإنني أعبر عن شكّي في ذلك، لأن هذا التنبيه يمكن أن يُنهك العضلة التي يريد أن يحسّنها.

أخرج (أخيل) ساعة جيبه من صدرته وقال:

- أصبح الوقت متأخراً. إلى أين ذهباً؟

- أتصور أنك تتحدّث عن (ديمتري) و(بيبا). من المحتمل أنهما نسيا نفسيهما وهما يثرثران. ألا تعرف (ديمتري). إنه ثرثار للغاية، حتى إنه ليحدّث أن يكلم نفسه وهو بمفرده تماماً. كان (تيوفان) قد اتّخذ، عن طيب خاطر، لهجة خفيفة، ولكنه في أعماقه، لم يكن يشعر براحة. فقد شاهد رقصة المناديل السبعة⁽²¹⁶⁾ التي انهمكت فيها (بيبا فاسيلي) طيلة الغداء وتمكّن من رؤية قطرات العرق التي كانت تلهب جبين المسكين

(216) رقصة المناديل السبعة: ورد في (إنجيل متى: الإصحاح 14، الفقرات 3 - 11) أن القديس (يوحنا المعمدان) Jean - Baptiste (وهو النبي يحيى بن زكريا عند المسلمين) كان يقول لملك اليهود (هيرودس أنتيباس) (7ق م - 39م) إن هيروديا زوجة أخيه لا تحلّ له زوجة، فسجنه (ولما أراد أن يقتله خاف من الشعب لأنه كان عندهم مثل نبي. ثم لما صار مولد هيرودس رقصت ابنة هيروديا (وهي الأميرة اليهودية سالومي Salomé) في الوسط فسرت هيرودس. ومن ثمّ وعَدَ بقسم إنه مهما طلبت يعطيها. فهي إذ كانت قد تلقّنت من أمها قالت أعطني على طبق رأس يوحنا المعمدان. فاغتمت الملك ولكن من أجل الأقسام والمتكئين معه أمر أن يعطى. فأرسل وقطع رأس يوحنا في السجن (سنة 28م). فأحضر رأسه في طبق ودفع إلى الصبيّة فجاءت به إلى أمها، ويروى أن الرقصة التي رقصتها (سالومي) هي رقصة المناديل السبعة، وسمّيت بذلك لأن الراقصة كانت تلفّ جسدها بسبعة مناديل رقيقة، كل منها بلون مختلف، فتحلّ الأولى وترقص به، ثم ترميه، وتحلّ الآخر حتى السابع، وتنتهي الرقصة بذلك. ويبدو أن أصل هذه الرقصة القديم كان فيما يروى في الأساطير البابلية والآشورية أن إلهة الخصب (عشتار) كانت أول من رقصها، ولكن فيما يشبه تعري الراقصات قطعة قطعة في أيامنا أو رقص ال strip - tease حتى تنتهي من آخر مندبل عارية تماماً أمام الحضور (المترجم).

(فالسْتاف)⁽²¹⁷⁾. وأعلن تلقائياً قوله لـ (أخيل):

- لا تَقَلِّقْ. فلن يتأخراً.

انفجر (الباشا) ضاحكاً، وقال:

- أقلق؟ أنتَ حقاً مثير للشفقة واني لأدرك ما تعني ضمناً. كن مطمئناً. إن العلاقات بيني وبين (بيبا) ليست تلك العلاقات التي تعتقدها. إنني أحبها، وأهيم بها، لكونها: مندفة، ومجنونة، وغير معقولة، ومتصلبة، ومشبوبة العاطفة، وجذابة للغاية، للغاية. وكنت في الحال قد أعلنت أنني وجدتُ في (أنطونيا) ابنةً. لا. لقد وجدتُ فيهما اثنتين: و(بيبا) هي الثانية. صدقني، إنني..

ثم توقّف. فقد صدرت صرخةٌ حادةٌ دوّتْ للتو آتية من غرفة (أنطونيا). فقفز (تيوفان) أولاً.

وعلى عتبة الغرفة كان ينتظره مشهدٌ مُريعٌ: كان (اليكسيس) جاثياً على ركبتيه قرب أخته الممددة على الأرض، وكان يتأملُ، غير مصدق، خيوط الدم التي كانت تسيل، من غير انتظام، من الرُسغ الأيسر لـ (أنطونيا)، مشكّلةً بثلاث حمراء فوق البلاط. وعلى السرير كان يلمع الطرف الحادُّ من شظيةِ مرآة.

(217) يعني به (ديمتري) (المترجم).

(13)

وهذا مع ذلك أمر بسيط، يا صديقي. فهناك دوماً حياة ما تحتاج إلى إنقاذ. وبلا شك ليس كليةً، ولا نهائياً، ولكنها موجودة. ففي كل يوم، ومن غير أن نعلم ذلك، نمرُّ إلى جانب منتحرين مستقبليين.

عندما تلفظ الدكتور (باباداكيس) بهذه الكلمات، لم يكن يتصور قط كم كان يقول الحقيقة.

* * *

كانت هذه غرفة صغيرة جدرانها بيضاء على صورة جميع الغرف في المشافي، على الرغم من أننا لا نستطيع أن نطلق كلمة مشفى على منشأة متواضعة جداً كمستوصف (شورا).

كانت (بيبا)، وهي جالسة على الكرسي الوحيد، وعيناها مغرورتان بالدموع، تسحق، وتدعك، وتضغط بين أصابعها منديلاً صغيراً، وكأنها كانت تسعى إلى أن تبت فيه حزنها.

ويقي (تيوفان) بقربها، وهو مسند ظهره بوقار إلى الباب، متنبهاً لأقل حركة في وجه (انطونيا). لقد كانت الفتاة الشابة غافيةً. متعبة كما لو أن سماً كان قد سرى فيها. وكانت قساماتها معذبةً، كما لو كانت روحها تهشمت عبر جسدها. وكانت خصل

الشعر السوداء التي تغطي جبينها وخطيها جزئياً، تبرز الشحوب البالغ جداً لقسَماتها. وعلى ذراعها الأيمن، نُبتت إبرة مَصْل (سيروم غلوكوز) يَقْطُر ببطء. وبعد ساعة قبل الأوان، ولأسباب غير مفسرة، توقفت القطرة - قطرة، وهذا خطأ من الممرضة، فسحب (تيوفان) الإبرة بنفسه وشكها في وريد آخر.

* * *

«أنت لا ترى هدفاً لحياتك. أنت غائص للغاية هناك حتى إنك لا ترى بوضوح. أنت لا تفكر في شيء، ما دمت في الداخل. قبل، ثم بعد، ولكن طيلة الوقت، أنت لا تفكر في شيء. أنت تبدأ. ولكن قبل، من المؤكد أنك فكرت فيه: (هل فعلت ذلك أم لم أفعله؟). في لحظة ما، تحققت من أنني كنت أهم بالرحيل. وقلتُ لنفسي: (ما الذي سيحدث الآن، وحالاً، لو أنني مت؟)».

هذا البوح الذي قدّمته إليه، قبل نحو عشر سنين، صبيّة في الرابعة عشرة من عمرها، لم يكف عن الدوران في رأس الطبيب. كانت هذه الصبيّة قد نُقلت إلى قسم الطوارئ بعد محاولتها الانتحار. قامت الخدمة الداخلية بتقديم الإسعافات الأولية لها، ولكنها كانت، على ما يظهر، من غير أهلية كافية. فآدى ذلك إلى ارتخاء قلب هذه البنت الصغيرة. كان ذلك يوم الإثنين. ونحو الساعة الثالثة عشرة، كان (تيوفان) قد أنهى للتو مداخلة ثقيلة: هي تجسير الأبهر التاجي لمريض، وكان أكثر تعقيداً من المتوقع. واستغرقت العملية ست ساعات. وبينما كان يخرج من غرفة العمليات، هُرعت ممرضة مضطربة لتطلب إليه أن ينقذ تلك الفتاة المراهقة، قائلة:

- أرجوك، يا دكتور (دبانه)، إن الخدمة الداخلية فقدت السيطرة.

فقام بإتقادها.

كان بالإمكان أن تبقى الأمور على ما هي عليه هنا. غير أن عمل هذه الفتاة المراهقة ظل يعصف به. كيف يكون بإمكان كائن أن يقرر ببرود أن يلغي نفسه؟ النهاية لا تطراً فجأة على أي حال؟ إذا، لماذا استعجلتها؟ ثم إن هذا الفعل كان يتعارض إلى أقصى حد مع الفلسفة التي كانت تلهم حياة (تيوفان) منذ سنين، وهي: إنقاذ الحيوانات. الحفاظ على الحيوانات. صون الحياة. الحياة. إنها صراع (سيزيف)⁽²¹⁸⁾، الذي يتكرر دوماً. لم يستطع (تيوفان) أن يمنع نفسه من سؤال البنت الشابة فقال:

- هل فكرت في العذاب الذي كنت ستجلبينه للآخرين؟

لوالديك؟

- كنت أقول لنفسي فقط: ماذا سيفعلان حين يجدانني في

غرفتي؟ وكنت أعتقد أن بعضهم سيكون حزيناً وبعضهم الآخر سيكون سعيداً.

(218) سيزيف: كان - في الأساطير اليونانية القديمة - مؤسس مدينة (كورنثة) Corinth في اليونان وكان ملكاً عليها، ويرى أنه وسَّع البحارة والتجارة، غير أنه ظهر بخيلاً ومخادعاً وكان يقتل المسافرين، وقد حكمت عليه الآلهة بمقاب هو أن يُدحرج في الجحيم، وإلى الأبد، صخرة من سفح جبل إلى قمته، لكن الصخرة كانت تسقط إلى السفح كلما اقترب من القمة، فيضطر إلى رفعها مرة أخرى. وقد ذكر (هوميروس) عقابه هذا في (الأوديسة: الأنشودة 11)، ولكنه لم يذكر السبب، وذكرت بعض الروايات أن السبب هو تجرؤه على تحدي الآلهة، وذكرت أخرى أن السبب هو كونه قاطع طريق وشريراً مجرماً. وقد أتخذ بعض الشعراء العرب المحدثين رمزاً لعذاب الإنسانية الأبدية ومعاناة الناس (كالبياطي والسَّاب). واتخذ (البيير كامو) في كتابه: أسطورة سيزيف (المنشور سنة 1942 في دار غاليمار بباريس)، رمزاً لعيشة الحياة التي تجري فيها أشياء غير معقولة تدعو بعض الناس إلى التمرد أو الانتحار (المترجم).

- سعيداً لرؤيتك ميتة؟

- نعم. انت لا تدرك الأمر. إنني لم أكن أنا نفسي، لقد كنتُ مُقاطعةً من الجميع، وكنت أهزاً من الجميع. وكان بإمكانني أن أجعل قطاراً يسحقني، ولم يكن ذلك يزعجني. كان في رأسي أنه يتعين عليّ أن أموت. ولم يكن هنالك شيء يوقفني. كنتُ أرغب في أن اضع حداً نهائياً لعذابي. ينبغي أن يكون الموت خلاصاً.
- خلاصاً من أي شيء.

- من هذه الحياة! من هذا الغلاف النتن لروحي. ولقطع كل هذه العلاقات. لأتخلص..

هذه الأفكار نفسها ربما كانت تتزاحم في ذهن (أنطونيا).

* * *

قالت (بيبا) وهي تنظر إلى (تيوفان) نظرتها إلى مُخلص:

- (تيوفان)، هل تعتقد أنها ستخرج من هذه الأزمة؟

- لقد تم ذلك. وهي تتخلص منها. لا تقلقي.

- لولاك لكانت ستموت. وأنت تدرك الأمر، أليس كذلك؟

لقد أنقذت حياتها، وأنقذت حياتي.

هزّ (تيوفان) رأسه. فهو لم يصنع شيئاً سوى أنه أدى عملاً

يقوم به أول مُسعف. وهو عقْدُ رباط لمنع النزيف أعلى الجرح.

ولحسن الحظ أن (أنطونيا)، وهي تقطع الأوردة، لم تصل

إلى العصب. لو حدث ذلك، لوجب أن تتطلب وحدات دم من

(ناكسوس)⁽²¹⁹⁾ Náxos، لا بل من (اثينا).

اقترح (تيوفان) قائلاً:

(219) ناكسوس: جزيرة يونانية في بحر إيجه، تقع في منتصف المسافة تقريباً بين جزيرة (باتموس) والعاصمة (اثينا) (المترجم).

- تعالي نذهب لنشرب كأساً.
فمَشَّتْ على خطاه.

في الخارج، كان الوقتُ ليلاً. كان نور نصف القمر ينعكس على
الحجارة السود والبيض التي تكوّن بلاطَ الزُقَاقِ.
شاهدا مقهى (Kafeneion) ووجدا فيه طاولة شاغرة
بأعجوبة. فطلب زجاجة شراب (أوزو)، فطلبتُ مثله. كان هنالك
جوُّ احتفاليّ مريح يسود حولهما، بعيداً عن المأساة التي كانت
أسرة (فاسيلي) تعيشها، وعن مأساة (أنطونيا).
«إنه لأمرٌ مدهشٌ حين تَرِنُ خطوات امرأة في دماغ الفقراء
التعساء».

إنها كلمات جميلة لـ (فرلين)⁽²²⁰⁾ Verlainé. وإنه لأمر
طريفٌ حين يقيم الدماغ أحياناً جسوراً بين فكرة وفكرة أخرى.
فبأيّ رابطٍ يتمّ ذلك؟ هل تصبح سعادة الآخرين غير مسموح
بها لمن يتعذّبون؟
سألت (بيبا)؟

- يمكن لـ (أنطونيا) أن تبدأ من جديد، أليس كذلك؟
لم يفاجئه سؤالها. فهو دوماً السؤال الذي يطرحه المحيط
بعد كل محاولة انتحار.

أبي (تيوفان) أن يكذب عليها، فقال:
- هذا ممكّن في الحقيقة. وعلينا أن نسهر عليها أكثر من
أي وقتٍ مضى.

(220) فرلين: (بول - Paul) شاعر فرنسي (1844 - 1896)، كان شعره يلعب على وتر
الأحاسيس والرموز، مع جسٍّ موسيقي نادر، عن طريق التحوّلات وعدم الاستقرار، مستخدماً
موارد اللغة المختلفة (المترجم).

قال (علينا)، طبعاً، كما لو كان يشعر من الآن بأنه مسؤول
أيضاً عن مصير (أنطونيا).

- لو كنتَ تعلم كم كان الأمر كله قاسياً عليّ.

أمعن (تيوفان) النظر فيها، مندهشاً من أن يراها شاخَتْ في
بضع ساعات.

استأنفتُ كلامها وهي تحدِّق في الأفق قائلة:

- هل روى لك (الباشا) كيف تلاقينا؟

ولم تنتظر (بيبا) الجواب، وقالت:

- تلاقينا في ماخور.

واستأنفت تقول:

- أوه! لا تتصوّر أنه ذو صلة بواحد من بيوت الدعارة عند سفلة

الناس. لا. كان المكان فاحراً، ذا عمدان، وأبواب، ومرمر في كل مكان،

وغرف فخمة. إنه مكان فخمٌ جداً تقريباً، كما هو شأن هذا البيت

الباريسي المغلق⁽²²¹⁾ *cette maison close* في أيام زمان.

قال (تيوفان):

- ال (شابانية)⁽²²²⁾ *Le Chabanais* ؟

- نعم، ال (شابانية). يروى أن أحد زبائنه الأكثر شهرة كان

ملك (إنكلترا) (إدوارد السابع)⁽²²³⁾ *Édourd VII* أو (الثامن)،

(221) مبنى يقع في رقم 12 شارع (شابانية) في الدائرة الثانية بباريس، كان واحداً من البيوت المغلقة الأكثر شهرة وأناقة في باريس بين عامي 1878 و1946، التاريخ الذي أصبح فيه غير قانوني في (فرنسا). ومما يروى عنه أن شخصيات كبيرة وبارزة كانت تتردد عليه: كبعض رجال الدولة، والدبلوماسيين، والوزراء، وكبار الموظفين: منهم الأمير البريطاني الذي أصبح ملكاً باسم (إدوارد السابع) الذي ستذكره (بيبا) في المتن (المترجم).

(222) يقصد بالبيت المغلق هنا البيت الذي تمارس فيه الدعارة المنظمة تحت أنظار المجتمع (المترجم).

(223) إدوارد السابع (1841 - 1910): أصبح ملك بريطانيا سنة 1901 إلى وفاته (المترجم).

لا أدري، وكان لا يزال آنذاك أمير (غال) (224) Galles. قال (تيوفان):

- لم يكن في المبنى سواه. كما كان (موباسَّان) (225) ..Anatole France، و(اناتول فرانس) (226) ..Anatole France وكلُّ مَنْ كانت (أوروبا) تُعَدُّهم من الرجال العظماء، كانوا قد دخلوا هذا المبنى.

- حسناً، هنالك أمر مماثل، عندنا. وطبعاً كان علينا أن نقاسي من سَفَلَة (الكولونيلات) الذين كانوا يُخالطون سَفَلَة الناس قبل أن يرتكبوا جرائمهم. كان ذلك سنة 1970. وقبل ثلاث سنوات، وبمساعدة من الـ (سي.آي.إي) (227) CIA، استولت اللجنة العسكرية على السلطة. لقد كانت هفوةً من هؤلاء الأمريكان الأعزاء الذين كانت لديهم عادةٌ مؤسفةٌ هي عدم التمييز بين الشعوب والحيوانات. لقد كنتُ أمقتُ هذه الفترة. لو تعلم كم! لقد وُضِعَ جميع المعارضين السياسيين في إقامة تحت المراقبة، أو حُبسوا، أو أُرسلوا إلى معتقلاتٍ في جُزُرٍ مُقْفرةٍ في بحر (إيجة)، أو عُدبوا. وفَصِلَ الصبيانُ عن البنات بعدما كانوا

(224) ويدعى بالإنكليزية (أمير ويلز) prince of Wales، وهو لقب يطلق في بريطانيا على الابن البكر لملك البلاد أو ملكتها. وتقابل كلمة (غال) بالفرنسية كلمة (ويلز) بالإنكليزية، و(ويلز) إقليم في غرب بريطانيا قاعدته مدينة (كارديف) Cardiff (المترجم).

(225) موباسَّان: (غي دو - Guy de)، كاتب فرنسي (1850 - 1893)، كان سيّد الأفضوصة والرواية القصيرة الواقعتين في الأدب الفرنسي.

(226) اناتول فرانس: كاتب فرنسي (1844 - 1924)، تتميز رواياته بصياغة كلاسية منقاة، وتمتزج كتاباته النقدية وأقاصيصه ورواياته بالنزعة الارتياحية والإنسانية العلمانية ومعارضة تدخل رجال الدين في الشؤون العامة. من أشهر رواياته (البحث عن الزمن المفقود)، وهي مترجمة إلى العربية. نال جائزة نوبل للأدب سنة 1921 (المترجم).

(227) هذه الحروف اختصاراً لاسم (وكالة الاستخبارات المركزية) الأمريكية Central Intelligence Agency (المترجم).

يَدْرُسُون فِي مَدَارِسٍ مَخْتَلَطَةٍ. وَأَصْبَحَ اللَّبَاسُ الْمُوَحَّدُ وَتَحِيَّةُ الْعَلَمِ الْإِزْمَائِيِّينَ فِي كُلِّ صَبَاحٍ. وَكَانَتْ صُورَةُ (الْكُولُونِيَلِ) الرَّئِيسِيِّ (بَابَادُوبُولُوسِ) ⁽²²⁸⁾ Papadopoulos تَنْتَشِرُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ⁽²²⁹⁾. وَأَصْبَحَ طَائِرُ (الْعَنْقَاءِ) ⁽²³⁰⁾ phénix شَعَاراً لِلنِّظَامِ. وَلَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَمَقُّتُ (الْكُولُونِيَلَاتِ) لِهَذَا السَّبَبِ فَقَطْ. وَسَأَشْرَحُ لَكَ لِمَاذَا فِيمَا بَعْدَ.

ثُمَّ طَلَبْتُ إِلَى النَّادِلِ أَنْ يَحْضُرَ بَعْضَ الْمُقْبِلَاتِ، وَتَابَعْتُ تَقُولُ: - لَمْ أَكُنْ قَدْ بَلَغْتُ الثَّلَاثِينَ مِنَ الْعُمُرِ وَكُنْتُ رَائِعَةً. وَقَدْ كُنْتُ مَلِكَةً حَقِيقِيَّةً لِلْجَمَالِ. وَلَقَدْ لَقَبْتَنِي صَدِيقَاتِي وَزِيَّائِي بِلِقَبِ (بُوبُولِينَا) ⁽²³¹⁾ Boubolina، وَهُوَ اسْمُ تِلْكَ الْبَطْلَةِ الْيُونَانِيَّةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي كَافَحَتْ ضِدَّ الْأَتْرَاكِ خِلَالَ حَرْبِ الْإِسْتِقْلَالِ ⁽²³²⁾.

(228) بَابَادُوبُولُوسِ: (جِيورْجِيُوسُ - 1999 - 1919) (Georgios)، كَانَ (كُولُونِيَسَلاً) فِي الْجَيْشِ الْيُونَانِيِّ، قَادَ انْقِلَابًا عَسْكَرِيًّا مَعَ ضَابِطِينَ آخَرِينَ فِي 21 نَيْسَانِ/أَبْرِيلِ سَنَةِ 1967، بِإِعْزَازِ وَتَعَاوُنِ مَعَ (الْ.سِي.آي.إِي)، فَدَشَنُوا مَا يُعْرَفُ بِ(دِيكَتَاتُورِيَّةِ الْكُولُونِيَلَاتِ)، وَرَفَعُوا شَعَارَاتِ مَكَافَهَةِ الشِّيْعِيَّةِ: وَمَلَأُوا السَّجُونَ، وَحَوَّلَ عَدَدٌ مِنَ الْجِزْرِ إِلَى مَعْتَقَلَاتِ، وَمَارَسُوا التَّعْذِيبَ، وَحَظَلُوا بِدَعْمِ الْكَنِيسَةِ الْأَرْثُودُكْسِيَّةِ. أَصْبَحَ (بَابَادُوبُولُوسِ) رَئِيساً لِلزُّرَّاءِ (1967 - 1973)، وَكَانَ وَصِيًّا عَلَى عَرْشِ الْيُونَانِ (1972 - 1973)، وَأَخِيرًا رَئِيساً لِلدُّوَلَةِ (1973) بَعْدَ الْإِفْءَاءِ الْمَلِكِيَّةِ فِي الْيُونَانِ. ثُمَّ قَامَ الْجَيْشُ الْيُونَانِيُّ، سَنَةَ 1973، بِانْقِلَابٍ عَلَى (الْكُولُونِيَلَاتِ)، وَتَمَّ سَجْنُ (بَابَادُوبُولُوسِ) حَتَّى وَفَاتِهِ بِالسَّرْطَانِ سَنَةَ 1999 عَنِ عُمُرِ يَنَاهِزُ الثَّمَانِينَ (الْمُتَرَجِمُ). (229) كَمُصَوِّرَةٍ عَنْتَرَةٍ فِي قَصِيدَةِ نِزَارِ قِيَّانِي (الْمُتَرَجِمُ).

(230) طَائِرُ الْفِينِيْقِ: وَيُكْتَبُ اسْمُهُ أَيْضاً (phoenix) و(phoenix)، وَهُوَ طَائِرُ أُسْطُورِيٍّ فَرِيدٍ مِنْ نَوْعِهِ فِي الْأَسَاطِيرِ الْقَدِيمَةِ، قَامَ حَيًّا مِنْ رَمَادِهِ، وَقَدْ كَانَ يَظْهَرُ فِي شَعَارِ ذَلِكَ النِّظَامِ بِشَكْلِ طَائِرٍ يَخْفِقُ بِجَنَاحَيْهِ مَرْتَفِعاً عَنِ السَّنَةِ اللَّهَبِ تَحْتَهُ. وَلَعَلَّهُ الطَّائِرُ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ الْعَرَبِ بِاسْمِ (الْعَنْقَاءِ الْمُغْرَبِ) يَذْكُرُونَهُ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لَهُ أَوْ إِنَّهُ طَائِرٌ مَعْرُوفٌ بِاسْمِ مَجْهُولِ الْجِسْمِ (الْمُتَرَجِمُ).

(231) بُوبُولِينَا: (لَاسْكَارِينَا - 1825 - 1771) (Laskarina)، أَصْلُهَا مِنْ جَزِيرَةِ (هَيْدْرَا) Hydra، كَانَتْ قَائِدَةً بَحْرِيَّةً يُونَانِيَّةً وَبَطْلَةً مِنْ أَبْطَالِ حَرْبِ الْإِسْتِقْلَالِ الْيُونَانِيَّةِ ضِدَّ السُّلْطَنَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ مِنْذُ سَنَةِ 1821 (الْمُتَرَجِمُ).

(232) حَرْبُ الْإِسْتِقْلَالِ الْيُونَانِيَّةِ: وَتَعْرَفُ أَيْضاً بِاسْمِ (الثُّورَةِ الْيُونَانِيَّةِ) وَبِالْتَرِكِيَّةِ الْعُثْمَانِيَّةِ (يُونَانِ عَصِيَّانِي)، قَامَتْ ضِدَّ السُّلْطَنَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ الْمُهَيْمِنَةِ عَلَى الْيُونَانِ، مَا بَيْنَ سَنَتَيْ 1821 وَ1832، وَقَدْ سَاعَدْتَهُمْ بِأَسَاطِيلِهَا الْبَحْرِيَّةِ كُلِّ مَنْ رُوسِيَا الْقَيْصَرِيَّةِ، وَبَرِيْطَانِيَا ←

فهل تتصوّر أنني أنا، المومس، ألقبُ باسم أشهر مواطناتنا؟! ..
ثم إنها كرّرت ما قالته بخصوص (الكولونيلات):

- سأشرح لك سبب هذا اللقب فيما بعد.

ثم صببت قليلاً من الماء في كأس شراب ال (أوزو)، فأضفى على شراب اليانسون هذا لوناً حليبياً⁽²³³⁾. ثم تناولته جرعة واحدة. واستأنفت تقول:

- وذات مساء، قبل عيد الميلاد بقليل، دخل (الباشا) من باب الماخور. كان يخطو نحو الستين من العمر، ولكن أيُّ طلعة مهيبة كانت له! إنه (لورد)⁽²³⁴⁾ حقيقي. فأي فتاة اختار من بين كل الفتيات اللاتي عُرضت عليه؟ لقد اختارني أنا، مع أنني كنت أكبرهن سنّاً. هذا غير معقول، أليس كذلك؟ ولكن غير المعقول أكثر هو ما سيأتي. فقد صعدنا إلى الغرفة، فطلب (شامبانيا دو فرانس)⁽²³⁵⁾ Champagne de France. ثم تحدّثنا، وتحدّثنا، وشعرتُ بأنني أتناقش مع أحد من معارفي في حياة

→ العظمى، وفرنسا، وبعض القوى الأوروبية، وأما السلطنة فقد وقفت معها مصر محمد علي وولاية تونس وولاية الجزائر، وقد تحطم خلال هذه الحرب الأسطولان العثماني والمصري، في معركة (نافارين) Navarin الشهيرة سنة 1827، فآدى ذلك إلى استشراف المقاومة اليونانية في الجزر اليونانية التي لا حصر لها، وانحسار قبضة الأتراك عنها، وكان من نتائجها تجرؤ فرنسا على احتلال الجزائر سنة 1830، وتوسّع محمد علي نحو الشام وآسيا الصغرى على حساب العثمانيين، الأمر الذي دعا بريطانيا وفرنسا للتدخل مع السلطنة ضد محمد علي حتى لا تنشأ دولة قوية في شرق المتوسط على أنقاضها تهدّد مصالح الدولتين وأطماعهما فيه (المترجم).

(233) يبدو من هذا الوصف أن شراب ال (أوزو) اليوناني هذا هو العرق نفسه في بعض البلدان العربية (المترجم).

(234) كلمة (لورد) لقب نبلاء بريطانيا، وتمنحه الملكة لمن قدّم خدمات جُلى لبريطانيا، ويضم حملته مجلس يدعى (مجلس اللوردات)، ولهم مزايا يتمتعون بها، لكونهم نخبة المجتمع البريطاني (المترجم).

(235) وهي خمّرٌ بيضاء فوّارة من منطقة (شامبانيا) التي اشتهرت بإنتاجها، وهي إقليم قديم يقع في شرق الحوض الباريسي بفرنسا (المترجم).

أخرى. لقد باح لي بأسرار طفولته في (مصر)، وزواجه من (ليلي)، ووفاتها. وفي لحظة معينة قلتُ لِنفسي: عودي إلى الواقع. فتظاهرتُ بأنني أهمُّ بالجلوس على ركبتيه، فرجاني بلطفٍ أن اعود إلى مكاني، ويحنانٍ أيضاً. وسألني بابتسامة عريضة: «السنا جيدين هكذا نحنُ الاثنانِ؟». فتمتمتُ ببعض الأشياء التي لا أدري ما هي. وربما حسبني قلقاً، فأخرج رزمةً من المال من محافظته، ووضعها على الطاولة، وهمس لي بلهجة تشجيع قائلاً: «هذا لك أنتِ وسأدفع لـ (مدام داليا) على حدة». كنتُ مذهولةً. ولأوّل وهلةً - وينبغي لي ألا أبوح لك أكثر - تملّكني بعضُ الخوف. ما الذي سيطلبه مني بعد ذلك؟ فقال كما لو أنه كان يقرأ أفكارِي: «(بيبا). لن أطلب منك شيئاً. لقد كانت لديّ رغبةً فقط في الحديث. وهذا كلُّ شيء». إنه مجنونٌ نوعاً ما، أليس كذلك؟

فردّ (تيوفان) بقوله:

- ليس مجنوناً. بل جميلٌ. وبما أننا نبوح بالأسرار: ألم تناما

معاً في نهاية المطاف؟

- بلى. مرّةً واحدة. مرةً واحدة خلال ستة عشر عاماً.

وقد أنحى بعضنا على بعض باللوم، وكانت تلك خيبة معلّم. Méghalo⁽²³⁶⁾. كان ما يشعر به (أخيل) تجاهي ينتمي إلى نوع من الإحساس الأبوي، أو من الحماية، لستُ أدري! أكثر مما ينتمي إلى رغبة جنسية. وقد عرفتُ بسرعة فائقة أن ما بيننا لن يكون بقصد المتعة الحسية. ومع ذلك كنا ننام معاً كعاشقين: متعانقين، متراصّين، وملتصقاً أحدهنا بالآخر مثل طابَع على بطاقة بريدية. هذا كثيرٌ أليس كذلك؟

(236) كلمة يونانية بمعنى (عظيم!) وتكتب فيها (μεγαλο) (المترجم).

- على كل حال، هذا خيرٌ مما لو أنك كنتِ تلاعبين الهواء
كلُّ مساءً.

قالت:

- مطلقاً. إن الروح البشرية في أغلب الأحيان تتورط،
فالشهوة تشوّش على أحاسيسنا. لقد عرفت عدداً لا يُحصى من
الرجال، ولم أشعر بهذا الاندماج إلا مع اثنين منهم فقط: والد
(أنطونيا) ووالد (اليكسيس).

- فقط مع هذين الرجلين؟..

فقالت مقاطعةً:

- يوماً ما سأقول لك.

- كما تشائين. وعندما التقيتِ (آخيل)، كانت (أنطونيا)
موجودة، أليس كذلك؟

- صحيح.

ثم اقترحتُ عليه قليلاً من الـ (خوريا تيكي) Khoriatiki،
وهو سلطة من خيار، وطماطم، وبصل، وزيتون، وجبنة، فقبل.
واستأنفتُ تقول:

- كانت (أنطونيا) قد احتفلت بالذكرى العاشرة لمولدها. وكان
المرض قد تشكّل في داخل جسدها. وعندما تمنّيتُ (آخيل) أن يتعرّف
عليها كان القلق يستولي عليّ. هل بإمكان هذين الاثنين أن يتفاهما؟
وكانت المعجزة. فقد أتفقتُ (طونيا) مع (آخيل) على الفور. وأنا..
كان يُسمَع في المكان ضوضاء كراسيٍ تُدفع، وتصفيقٌ،
وصيحاتٌ. قطعتُ حديثها.

عُزفتِ النوطات الأولى على البُزق، وكانت معدنية وحادة.
وقفَ رجلٌ، وخلع قميصه، ومدَّ رجله إلى الأمام، ومسَّ الأرض

بطرفها مساً خفيفاً، ثم مدَّ الرجلَ الأخرى. وتحركتْ حُطاهُ، شيئاً فشيئاً، مع تشجيع زبائن المقهى من حوله. لم تكن هنالك أي قاعدة تتعلّق بتصميم الرقصة في تتابع حركاته. ولم يكن هنالك أي التزامات حركية. ويبدو أن الراقص كان يزايد على جاذبية وزنه أكثر من سعيه إلى التحرُّر منها. أبقى نظراته منخفضةً نحو فراغ يكتم الأسرار. وكان ينبعث منه شيءٌ من النفور والقسوة على شاكلة العواصف غير المتوقَّعة التي تحرق كالريح الجامحة حين تعوي على الجُرُ.

قالت (بيبا) وهي تمطّ شفيتها:

- إنها رقصةُ الـ (زيبيكو) (zeimbékiko)⁽²³⁷⁾. وهي رقصة

همجية.

(237) رقصة شعبية جداً في اليونان وقبرص، وأبرز سماتها الاقبال غالباً سوى راقص واحد، يحيط به الحضور جلوساً أو وقوفاً، ويصفقون له، وهو يرقص على إيقاعات آلة (البُزُق) الـ وثرية الشهيرة في الموسيقى الشعبية اليونانية: والكلمة اليونانية الأصلية هي (οκικέπιττεξ) وتلفظ حسب الحروف الفرنسية (zebekiko) كما أثبتناها في المتن، ويلاحظ أن (الميم = μ)، هنا، لا تلفظ في هذه الكلمة، وإن كتبت، ومن طريف هذه الكلمة أن أصلها مأخوذ من (المحاربين الزيبقيين)، الذين ظهروا في الإقليم الإيجي، أي الواجهة البحرية التركية المطلّة على بحر إيجه ولها عمق بطولها نحو الداخل، إبان العصر العثماني، من أواخر القرن 17 إلى أوائل القرن 20، وهم محاربون غير نظاميين، كانوا أشبه بنظام الفتوة أو الفتيان في بعض الأقاليم العربية آنذاك، وكانوا يقومون بحماية سكان القرى من غَسَف مُلاك الأراضي، ومن قاطعي الطريق واللصوص، ومن فارضي الإتاوات أو الخَوَات على الناس ظلماً وعدواناً، ويتميزون بالشهامة والإيثار والشجاعة، ولعل قصة (علي الزيبق) التي يمتد حديثها من بغداد إلى دمشق والقاهرة كانت بوجي من هذه الجماعة، أو أن نشأة هذا النظام في منطقة تركيا عموماً وإقليم إيجه خصوصاً كان متأثراً بحركة الفتوة عند العرب. ولعل هذه الرقصة نشأت في اليونان متأثرة برقصة كان يمارسها أولئك المحاربون (الزيبقيون العثمانيون). ويلاحظ المرء أن فلسفة هذه الرقصة تقوم على الحركات الجسدية (من أذرع وأرجل) في كل اتجاه، وهبوطاً وصعوداً ودوراناً، مع سكون تارة وحركة تارة أخرى، وبطء في الحركة حيناً، وسرعة حيناً آخر، وهي بذلك تتطابق مع فلسفة نظام (المحاربين الزيبقيين) على نمط تحركات (علي الزيبق) ضد الظالمين ويمكن تسمية هذه الرقصة في العربية بـ (الرقصة الزيبقية)، وربما اشتقت التسمية من مهذب (الزئبق أو الزيبق) الرجراج الذي يصعب الإمساك به، ومن خواصه التمّدّد بالحرارة والتقلص بالبرودة (المترجم).

الرجل الذي كان يَنْظُرُ إلى الليل

بين الحين والحين، كانت هنالك أصواتٌ مُحَاكَاةٌ تصدُر، على شاكلة: (هوبا)، (هوبا)، (هوبا) hopa ، hopa التي تشبه صرخات الحب.

كان الرجل يواصل التمايل. ومن وقت لآخر، كان يفتح ذراعيه على اتساعهما وكأنه كان يريد أن يعانق الناس، وكان يفرقع أصابعه، ويسقط على ركبته، ويخبط الأرض بيده ليعود إلى النهوض، مترنحاً ببطء على نفسه، في وضع مرتصُّ رجولي، ولكنه متقلبٌ بشكلٍ لا يُتصوَّر.

قالت (بيبا) وهي تشعل سيكاراً صغيراً:

- كأنَّ المشهدَ قد أعجبك، فأنتَ تبدو مبهوراً به.

بقي الطبيبُ صامتاً، وقد فُتِحَ عليه بابٌ من الذكريات.

* * *

- انظر، يابني، يا عجاب، فإنَّ تحت نظرك أعظمَ راقصة بطن في (مصر) كلها.

- ما اسمها؟

- (سامية جمال)⁽²³⁸⁾. أليست رائعة؟

كان فمُ (تيوفان) جافاً. وقد جعل الانفعالُ قلبه يخفق كمئة طبلية. إن الراقصة، التي كان عمرها أكبر من ثلاثين سنة بقليل، أي أكبر منه باثنتي عشرة أو ثلاث عشرة سنة، كانت ترفع ذراعيها العاريين وتجعلهما يتلوَّيان فوق شعرها الأسود الطويل، فتصبح يداها قلباً، قلباً منتظماً، قوياً، كل نبضة فيه تحدثُ عند هؤلاء الحالمين هزةً جديدة. وكانت، أحياناً، تتلوَّى حول الطاوات،

(238) سامية جمال: راقصة وممثلة مصرية (1924 - 1994) لها أكثر من خمسين فلماً، وشكلت ثنائياً ناجحاً مع الفنان فريد الأطرش في نحو ستة أفلام شهيرة (المترجم).

وتلمس الزبائن، وهم مبهورون، لمساً، فيبادرون بدسُّ بعض الأوراق المالية في حمالة الثديين ذات التباريق⁽²³⁹⁾. وعندما كانت تدنو يبطنها العاري من وجه (تيوفان)، كان يشعر بقوة خارقة تتدفق في كيانه. ثم كانت تتراجع، بخفة فراشة، وترشقه بابتسامة مأكرة. ولم تكن تعود إلى وسط الحلبة، وردفها مكشوفاً، إلا ناراً. وكانت الرؤية تتعمق، بتحريض من الجمهور، بتقوس الخضرين، وبالحركات المتقدمة وضربات الرجلين الارتعاشية.

ماذا أصبحت (سامية جمال)؟ هي تلك الفترة، سنة 1959، تم طلاقها من ملياردير، لتتزوج من ممثل مصري شهير⁽²⁴⁰⁾. واليوم؟

ثم تتم (تيوفان):

- شيءٌ ساحرٌ.

هل قال ذلك عن (سامية جمال) أم عن الراقص اليوناني؟

لم يكن هذا السؤال مطروحاً على (بيبا).

قالت (بيبا):

- يا عزيزي، ألسنا في (اليونان)؟ إن كل ما يؤكد على هذه الأرض ساحرٌ، ولا حدٌ له. هل رأيت من قبل يونانيين يلتقيان مصادفةً في شارع من شوارع (لندن) أو (باريس)؟ إنهما حينئذ يصرخان، ويُسبِران، ويضحكان، ويبكيان. وتصبح المدينة كلها على علم بلقائهما. ومن هنا كان الفرق الذي سيبقى قائماً بين شعوب البحر المتوسط والشعوب الشماليين⁽²⁴¹⁾؛ فالأولى تكاد

(239) نوع من الزركشة بقطع معدنية أو بلاستيكية برأفة (المترجم).

(240) هو الفنان (رشدي أباطة) (1927 - 1980) (المترجم).

(241) يعني بالشماليين شعوب أوروبا في البلدان غير المطلة على المتوسط، وكان سكان حوض المتوسط أكثر اجتماعية وحميمية من سكان تلك البلدان، وهو مجرد رأي (المترجم).

تلامس (الهستيريا) (242) l'hystérie، والأخرى تكاد تلامس (البارانويا) (243) la paranoïa. فكيف لها أن تتمكّن من أن تتفاهم؟ تصوّر للحظة (جنتلمان) إنكليزياً محصوراً في مصعدٍ متعطلٍ مع مشرقى⁽²⁴⁴⁾.

انتزعت هذه المقارنة ضحكة مدوية من (تيوفان)، وقال:

- سأتذكّر ذلك. لو عدنا إلى لقاء (أنطونيا) و(الباشا).

- لقد أحبّ أحدهما الآخر على الفور. لأنها وجدت في

أباً، ووجد هو فيها الطفل الذي لم يكن قد حصل عليه من زوجته الراحلة. واقترح عليّ (أخيل) آنذاك أن أترك عملي، وأن أعيش معه. وكان يهتم بكل شيء، بما في ذلك (أنطونيا)، وأكد لي أنه لن ينقص عليّ شيء أبداً. ولكن بشرط: عدم الزواج.

- مُدهش! وهل قبلت؟

- سأكذب عليك إن قلت لك إن ذلك كان أمراً سهلاً.

لا للدوافع التي يمكنك تخيلها. فقد كنت متزوجة من والد (أنطونيا). فأنا إذن لم أكن أنتمي إلى هذه الفِرَق من النساء اللواتي يحلُمن بحفلة زواج في الثوب الأبيض. ولم يكن ذلك سهلاً أيضاً لأننا كنا نعيش في (اليونان)، بلد

(242) الهستيريا: اضطرابات عارضة في الذهن والحس والحركة (المترجم).

(243) البارانويا: دُهان الأوهام الثابتة والمنظمة، كجنون العظمة، والارتياب، والاضطهاد. وصاحب هذا الدُهان يبدو سليماً معافى، لكن تحليل أقواله ومواقفه يبيّن تهافتها ويكشف عدم تماسك بعضها مع بعض إلا في الظاهر (المترجم).

(244) أظن هذا المثال غير موفق، لأن الشرقيين لا يطلون جميعاً على المتوسط، وكان (بيبا) - أعني المؤلف طبعاً - أرادت هنا أن تشمل شعوب الجنوب عموماً في مقابل شعوب الشمال غير المطلة على شمال المتوسط؛ فالجنتلمان الإنكليزي سيكون دمه بارداً في المصعد ويظل ساكناً في حين أن المشرقى سيتضايق ويتأفف ويضجر ويبدأ بمحاولة الوصول إلى حل سريع للموقف (المترجم).

التقاليد، وحيثُ الكنيسةُ في كل مكان، وهي حاضرة. ومن ثمَّ الناسُ يتكلمون. ويحبون القيلَ والقالَ: امرأة تعيش مع رجل كزوجين، هذا أمر قبيح في عيون المجتمع، حتى لو كان الزوجان غيرَ الشرعيين يتضاجعان خفيةً بنشاط. ومع ذلك قبلت. وعلى أي حال، كانت المهنة التي أعمل بها قبيحةً أيضاً، أليس كذلك؟

عاد راقص الـ (زيبكيكو) إلى مكانه، وحلت محلُّه على الفور
جلبَةُ الأصوات.

قال (تيوفان):

- شيءٌ ما في تصرف (آخيل) كان يشغل بالي، فهو رجلٌ يقارب الستين، وهي السن التي يتجنَّب فيها المرءُ عموماً تحمُّلَ مسؤوليات جديدة. إنه ثريٌّ، وكان بإمكانه أن يستمرَّ في العيش بهدوءٍ وحده.

هزَّت (بيبا) رأسها متظاهرة بالفهم، وقالت:

- هل قرأت (راموز) ⁽²⁴⁵⁾ Ramuz؟

نفى (تيوفان) ذلك، فقالت:

- عليك بقراءته. فأنا أعترف أن رواياته كانت نوعاً ما - وبحثتُ عن كلمة دقيقة - خاصَّة ومُبهِمة. وكانت يومياته، في المقابل، تُكسب الحيلة. هل تعلم ما كتب فيها؟ كتب يقول: دكونُ الإنسان معزولاً عن سائر البشر يُشعره بأنه غيرُ نافع. وشعوره بأنه غير نافع أسوأ أيضاً من شعوره بأنه مذنب.

(245) راموز: هو (شارل فردينان - Charles Ferdinand) كاتبٌ سويسري بالفرنسية (1878 - 1947)، كان يُشيد بالمودة إلى ما هو بدائي وجوهري. كتب دراسات، وروايات، في تعزيز الأخلاق والقيم الروحية، مع موافقة الطبيعة في الرؤية، بأسلوب بسيط وقوي، ومن أعماله: (الخوف العظيم في الجبل)، و(دريورانس)، و(الجمال على الأرض) (الترجم).

وكان (أخيل) يكره أن يشعر بأنه غير نافع. هل يكفيك هذا
الجواب؟

- يكفيني.

(راموز) .. إن هذه المرأة لا تكف عن مفاجأته. لقد فهم الآن
فهما أفضل وجود مؤلفات كثيرة كانت تزيّن رفوف صالونها. قال:
- يبدو أنك ملتَهمةٌ للكتب.

فقالت:

- لقد تركتُ المدرسة من الصف السادس، مقتنعةً بأنني
استطيع العيش بلا ثقافة، ولا معارف، إلى اليوم الذي ذكر
لي فيه رجلٌ مهووسٌ بالشُّعر، هو والدُ (أنطونيا)، اسم (جورج
سيفيريس) ⁽²⁴⁶⁾ Georges Séféris. وكان ذلك سنة 1963،
وكان عمري آنذاك اثنين وعشرين عاماً، وكان (سيفيريس)
قد نال مؤخراً جائزة نوبل. ومن شدة حياثي، كان عليّ أن
اعترف بأنني لم أكن أعرف شيئاً عن هذا الشاعر. فبدأ لي
(بطرس) Petros، وهو زوجي الأول، مشدوهاً. فقد كان جهل
أحد اليونانيين بـ(سيفيريس)، في نظره، أمراً غير طبيعي،
كان يجهل أين يقع الـ (أكروبول) ⁽²⁴⁷⁾ l'Acropole. ومن غير
المجدي أن أذكر لك شعور الهوان، وخصوصاً الحزن الذي عانيت
منه في ذلك اليوم. ومن اليوم التالي، أقيت نفسي جسداً وروحاً
في أحضان المطالعة.

(246) جورج سيفيريس: اسم مستعار للشاعر اليوناني (غورغوس سيفيرياديس) (1900 - 1971)، نال جائزة نوبل للأدب سنة 1963 (المترجم).

(247) الأكروبول: هضبة صخرية مرتفعة في وسط (أثينا)، بنيت عليها قديماً مدينة، والكلمة اليونانية (أكروبول) (ἀκροπολις) مركبة أصلاً من كلمتين: الأولى (ἀκρος) بمعنى (المرتفعة)، والثانية (πολις) بمعنى (المدينة)، وهكذا تعني كلمة (أكروبول) (المدينة المرتفعة) (المترجم).

فقراتُ (سيفيريس) بالتأكيد، وقراتُ كذلك
(كازانتساكي)⁽²⁴⁸⁾ Kazantzaki، و(إيليتيس)⁽²⁴⁹⁾ lýtisÉ،
وآخرين. واخذتُ التهم، بسُعارٍ حقيقيٍّ، كلُّ ما كان يمرّ بين يديّ
من الكتب.

ثم مالت برأسها، وقالت:

- وهاندي!

وبينما كانت تُشعل سيكاراً صغيراً، ظهر على وجهها تعبيرٌ
كئيب. وقالت بهمسٍ تقريباً:

- أرجو ألا أكون في نظرك قذرةً جداً.

لمس (تيوفان) خدّها لمساً خفيفاً بحنان، وقال:

- عزيزتي (بيبا)، ليس هنالك حياةٌ من غير جانبٍ مظلم.
ولعلك تُفاجئين لو أكّدتُ لك أن الأكثر دَنَساً، منا نحن الاثنان،
ليس الذي يُظنّ..

لم تُعلق (بيبا) بشيء. وقد كان مقتنعاً بأنها تظنّ أنه هو.

استفسر (تيوفان) فجأة:

- وما شأن (ديمتري)؟

ظلت (بيبا) مذهولة، ثم قالت:

- أنت لا يفوتك شيء.

ثم تحرّكت على كرسيها حركةً شبه طفولية، وقالت:

(248) كازانتساكي: هو (نيكوس - Nikos)، روائي، وفيلسوف، وشاعر يوناني (1883 - 1957)، أشهر أعماله التي شهرته رواية (أليكسيس زوريا) التي اقتبست في السينما فليماً بعنوان (زوريا اليوناني) (المترجم).

(249) إيليتيس: هو (أوديسياس - Odysseas) وكان الاسم المستعار للشاعر اليوناني (أوديسياس البيوديليس 1911 - 1996) (Alepodellis)، نال جائزة نوبل للأدب سنة 1979. كان مقرّياً من الشعراء السرياليين الفرنسيين، والمصورين مثل (بيكاسو) و(ماتيس) اللذين زيّبا بعض أعماله المنشورة، وكان صديقاً لـ (البيير كامو) أيضاً (المترجم).

- هل تذكر؟ كنتُ أقولُ إن الرغبة تشوُّش على أحاسيسنا.
ومن المؤسف أنني في حاجة إليها أيضاً. وكما قال (برنارد شو)
(250) Bernard Shaw: «العفةُ أخطرُ من جميع الانحرافات».

ومن ناحيتي، أرى أن الرغبة مثلُ الذاكرة، إن لم تجعلها تعمل
فإنها تضمُر. إن صديقك (ديمتري) ليس جميلاً، إنه بدين، أكثر
من شبابه الأول، ولكنه يُطلق (ما لا أدريه) (251) - je - ne - sais -
quoi. فحاول أنت العمل على فهم النساء. والخلاصة: أنا أكره
أن أفقد ذاكرتي.

- ينبغي أن أسلم لك بأنك استعملت فن الاستعارة بمهارة
هنا.

- وأنت؟

- أنا؟

- هل تلاعب الهواء من وقت لآخر؟ ستردُّ عليَّ بالقول:
لا ينبغي لرجل، على هذه الجزيرة، بخصوص الأمريكيات
الحيويات، أن يدخل شيئاً تافهاً على نفسه. فهل أنا مخطئة؟
- لقد أصبت (الجوكر) (252) (Joker).

- إنه حقك.

(250) برنارد شو: هو (جورج - جورج)، كاتب ومؤلف مسرحي إيرلندي (1856 - 1950)،
جعلت منه فكاهته اللاذعة والساخرة مجادلاً مخيفاً، كان ذا نزعة اشتراكية. وقد أسهم في تجديد
المسرح الإنكليزي. ومن أبرز أعماله: (البطل والجندي)، و(قيصر وكليوباترا)، و(أندروكليس
والأسد)، و(بيغاليون) وهي أشهر مسرحياته، و(القديسة جان) (المترجم).

(251) هذه العبارة تستعمل هكذا استعمال الاسم المذكر في الفرنسية، وهي تعني ما يُحس
به المرء من شعور أو ما يخطر على باله من معنى، ولكنه يعجز عن التعبير عنه باللغة، فيبقى
في الذهن ضبابياً وغامضاً، كالعجز عن التعبير عن الأنواع أو مفاهيم الجمال الفاتن الجذاب
(المترجم).

(252) الجوكر: ورقة رابحة في ورق اللعب وتحل محل أي منها، وكسى (تيوفان) بذكرها عن
تأييده لرأيها الذي أبدته (المترجم).

ورسقته بنظرة فاحصة، ثم قالت:

- هل أنت بخير؟

ولما بدا وكأنه لم يفهم قصدها، وضحت له (بيبا) قائلة:

- أعني: هل أنت على خلاف مع أحدهم؟ هل يريد أحدهم

بك شراً؟ هل لديك همومٌ صحيّة؟

فردّ بارتباك:

- لا، على ما أعلم.

- هل تقول لي الحقيقة يا (تيو)؟

- قطعاً. من أين جاءتك هذه الأفكار؟

- من الورق. إن الورق يكشف الحقائق الخفية تماماً.

فضحك ضحكة عالية، وقال:

- اطمئني. ليس لي أعداء. وصحتي على ما يُرام.

هزّت رأسها مراراً، وقالت:

- لا أصدقُ أيّ كلمة من ذلك. ولكنك حُرْفِي ألا تبوح بسرّ.

واعلم مع ذلك أنني هنا. في حالة ما..

ثم دفعتُ كرسيها وأعطت إشارة الانطلاق، وقالت:

- لنذهب لرؤية (أنطونيا). ينبغي أن تكون قد أفاقت من

النوم في هذه الساعة.

* * *

وبينما كانا يجتازان باب المستوصف، أبدى (تيوفان) لها

ملاحظة قائلاً:

- لقد تركت مناطق معتمة كثيرة: فمن والد (اليكسيس)؟

وماذا حصل لزوجك الأول؟ ولأي سبب كانت صديقاتك يُلقبُنك

(ببولينا)؟

فوضعتُ (بيبا) سبَابَتَهَا على فم الطبيب، وقالت:

- اسكُتْ، يا صديقي! فالاعترافاتُ تُقَطَّرُ مثلَ السُّمِّ: قطرةٌ

قطرة. وقد سكبْتُ لك منها قدرًا لا بأسَ به.

- وأنا أَقِرُّ بذلك. إذن أجيبيني على الأقل عن سؤالٍ

يُنْخِرُ بي منذ أسابيع: لماذا أطلقتِ على نُزْلِكَ اسمَ

(إيبيفانيا) Epiphanea؟

- ألم تتوقَّع لماذا؟ إنه اسم الماخور.

- ماذا؟ .. أنت تمزحين!

- إن (مدام داليا)، مديرتَه، كانت تقول لنا: إن هذه الكلمة

كانت تستدعي ظهور المسيح الطفلِ لملوكِ المجوس الذين جاؤوا

بحثاً عنه. والحاصلُ، حسبَ رأيها، كان الرجالُ الذين يزوروننا

يمثلون، بشكل ما، ملوكَ المجوس. ونحن جميعاً كنا مقدَّسات.

فتصوَّر أن يُسمَّى ماخور باسم (إيبيفانيا) في بلدٍ متديِّنٍ

جداً⁽²⁵³⁾ يُمَجِّد فيه الباباوات عملياً.

(253) تقصد بلاد اليونان التي اشتهرت بالثدين لجملة أسباب لا مجال لحصرها هنا (المترجم).

(14)

هنالك صُورٌ جدارية، قديمة منذ أكثر من سبعة قرون، كانت تغطّي في بعض الأماكن جدران الكهف الذي عاش فيه، بحسب الأسطورة، (القديس يوحنا)، وأنشأ رؤياه لنهاية الأزمان: (رؤيا القديس يوحنا) l'Apocalypse. وفي ركن مُضاء بمصابيح خافتة النور، هنالك حجر مطوّق بمعدنٍ يشير إلى المكان المفترض حيث كان الرسول يريح رأسه للنوم. وكان هنالك ثلاثة صُدُوع في أحد الجدران كانت تمثّل الثالوث المقدّس la sainte Trinité. وكان صوتٌ يأتي من خلالها. وفي أقصى الكهف، على اليمين، كانت هنالك صخرةٌ تكوّن ما يشبه مكتباً طبيعياً كان أحد تلاميذ (يوحنا)، كما يؤكّدون، يكتب ما يمليه عليه.

ألقي (تيوفان) نظرةً متحفظةً نحو (أنطونيا). كانت جالسة بجانب جدار، وهي منحرفةٌ جانباً، وعيناها مغلقتان، وشفاتها ترتجفان. وكان يبدو أنهما تتمتمان بقولها: «ساعدوني». أو على الأقل «سامحوني». كانت هنالك موجةٌ من الأفكار المتناقضة تتفجّر في نفسها. ربّما كانت تستشّف في محاولتها الانتحار تأكيداً لتعاستها، أو لإندارٍ مُبهمٍ بسوء جديد، أو لسوء حالها آنئذ.

اقترحتُ (أنطونيا) على (تيوفان) بعد عودتها من المستوصف ببضعة أيام قائلة: «هل ترغب في مرافقتي إلى كهف (القديس يوحنا)؟». وللهولمة الأولى، ظنَّ أنها مزحةً. وكان مخطئاً في ظنه. فقد قالت له: «أنا لستُ متزمتةً مثل أمي، ولا أزال قليلة الالتزام، ولكنني أشعر بحاجة ماسةً إلى لطف الله».

«لا متزمتة ولا ملتزمة؟ ولكن مؤمنة في الوقت نفسه». انطلق جواب (أنطونيا) بلا أي ظلُّ للتردد: «إنني مقتنعة فقط بأنه موجود، مثلما أوْمَن بقوة الصلاة».

قوة الصلاة! إنه إعلان متناقض للإيمان المنبثق من كائن كان، قبل قليل من الوقت، يتمسك ببلغةٍ متمردة، وعنيفة أيضاً، محتجةً ولاعنةً مصيرها.

كان اللقاء الوحيد لـ (تيوفان) مع نص (رؤيا يوحنا اللاهوتي) يعود إلى الفترة البعيدة من دراسته لدى (اليسوعيين). غير أن هذه الرؤيا، على هذه الجزيرة، جعلته يعود إلى ذكرياته دفعة واحدة. فكيف يفرّ منها؟ فالرسول كان يتردد على شوارع جزيرة (باتموس) وكانت أجراس الدير القلعة تذكر بوجوده بلا انقطاع. وهكذا، وبدافع من الفضول أكثر من الاستلهام بدوافع دينية، قرَّر أن يراجع الفقرات، متسائلاً في نهاية المطاف عن الصِّحة العقلية لمؤلِّفها. (تيمور) الذي كان (تيوفان) قد قرأ عليه بعض الفقرات، كان يصيح قائلاً: «هل كان يُزيلُ السَّجَادَ هذا الشخص أم ماذا؟». وما إن عرف أنه قد تخلَّص من القصة حتى أطلق نفضةً حقيقية.

مرَّت الدقائق. ولا تزال (أنطونيا) غارقة في تأملها. ثم أتى الوقت الذي كان التوتر، الذي يسكن، حتى الآن، في ملامحها،

الرجلُ الذي كان يَنْظُرُ إلى الليل

قد بدأ بالتلاشي لمغادرة المكان إلى نوع من المهادنة. وببطء،
فتحت عينيها، ورفعت وجهها نحو (تيوفان)، وقالت:

- شكراً لك على التوضيح.

- لا شكربيننا. ومن جهتي لم أضحُ بأي طريقة، لقد أتحت
لي أن أراجع دروسي في الدين. هل تشعرين بالقدرة على الذهاب
إلى (سابسيلا) Sapsila؟

- حتماً. لقد وعدتُ (اليكسيس) بأنني سأكون طوعاً لكما.
وأشعر بالألم إن خيبتُ أمله. ثم إن مسَّ البحر والرمل..

وفي اللحظة التي أخذها من ذراعها، اجتاز زائر عتبة الكهف.
كان ابن نحو خمسين سنة، بشعر أصهب. وعندما وصل إليهما
توقَّف فجأة وتفرَّس في وجهه (تيوفان) بتعبير حائر. وعلى الفور،
خفض الطبيب نظره، وأمال بخفة رأسه، وأخذ (أنطونيا) نحو
المخرج.

قالت (أنطونيا)، وهي تجاهد الدرجات الحجرية الموصلة إلى
الشارع:

- هل تعرفه؟

- مَنْ؟

- هذا الرجل الذي التقيناه قبل قليل.

هزَّ (تيوفان) رأسه وقال:

- لم أره قط.

* * *

أوقف سيارته الـ (فيات) على طرف شاطئ (سابسيلا)، ولكن
كان هنالك مع ذلك نحو مئة مترٍ يجب قطعها قبل الوصول إلى
شطِّ البحر.

دمدمت (أنطونيا) قائلة:

- لن أصل إليه أبداً. فأنا مرهقة جداً. هيا نرجع.

قال (تيوفان):

- سيخيب أملُ (اليكسيس).

فرمته (أنطونيا) بنظرةٍ مريرة. فقال (اليكسيس):

- وأنا؟ هل حدث أن فكرتُما فيّ؟

فاستشاطتُ غضباً ثانياً. كالعاصفة بعد الهدوء. وانتابت

(تيوفان) رغبةٌ فجأة في أن يمدَّ إليها يده كما لو كان

يريد أن يمررَها بين قضبان حديقة الحيوان لتداعب بعضها.

وقال:

- سأحملك.

- لا تفكر في ذلك! فالشطُّ بعيد جداً.

- أنت لا تبلغين وزن (ديمتري).

ثم دار حول السيارة، وفتح بابها. وباحتراسٍ دسَّ ذراعاً تحت

ظهر الفتاة الشابة، ودسَّ الأخرى تحت فخذَيْها ورفعها خارج

السيارة. قائلاً:

- أرجو أن تكوني قد فكرتِ في أن ترتدي (المايو) تحت ثيابك.

فدمدمت بصوت محاكاة كان يشبه كلمة (نعم).

الآن وقد حملها بين ذراعيه، وقد أصبحت قريبة جداً، كان

بإمكانه أن يشم بوضوح عطرَها، إنها رائحة تدنُّر بالعنبر، أو

كذلك رائحة عُشبٍ نديٍّ دفأه القشُر.

كان (اليكسيس)، وهو يضع نظارات الغوص على جبينه،

يوجِّه إليهما إشارات كثيرة، ويصيح:

- (طونيا)! (تيو)!

وعلى جانبيه، كان المرء يلمح صبياً آخر في نحو الثانية عشرة من العمر، وامرأة مكتنزة، ممتلئة لحماً.

وما إن وصلا حتى ارتقى (اليكسيس) عليهما، وقال:

- هائل! لقد خفتُ ألا تأتي!

وقدم المرأة التي كانت (أنطونيا) تعرفها من قبل، قائلاً:

- (ميلينا) Mélina. دكتور (تيوفان). والصبي هنالك، إنه

(ميخاليس) Mikhalis. وهو ابن (ميلينا)، وصديقي.

حيّاه الطبيبُ بحركة من رأسه وساعد (أنطونيا) على

التمدد على الحشية، وقال:

- كل شيء على ما يُرام؟ ألم اهزُك كثيراً؟

غطى الصوتُ الراعد لـ (اليكسيس) على الجواب، وهو يقول:

- هل جئت لتسبح، يا دكتور؟

فاحتجّت أخته، قائلة:

- كفى! اهدأ. أعطنا فرصة لنتنفس!

ونادت (ميلينا)، وسألتها:

- كيف تصنعين لتتحمليه؟

- كالعادة، يا عزيزتي. هل نسيت أن عندي من الأولاد ثلاثة

آخرين في البيت؟

أصرّ (اليكسيس) قائلاً لـ (ميلينا):

- والآن؟

- أعطني الوقت لأخلع ثيابي. وسألحق بك.

قالت (أنطونيا):

- هذه غلطتك. لم يكن عليك أن تدعيه يتناول. أنت

تعطينه يدك، فيأخذ منك ذراعك.

- ومع ذلك، أحبه كثيراً.

خلع (أليكسيس) ثيابه، وقال وهو ينطلق:

- كوني جاهزة. بعد قليل، سأعود باحثاً عنك.

* * *

دقيقة و10 ثوان، دقيقة و15 ثانية، دقيقة و20 ثانية..
دقيقة..

عاد (أليكسيس) إلى الظهور داخل دُؤامة من الزيد. وسأل
وهو يلهث: كم؟

- دقيقة و50 ثانية. تحياتي!

- تفوق! حطّم الرقم القياسي بثماني ثوان!

كان (أليكسيس) يلهث، ويبصق باستمرار، وينتفض.

قال (تيوفان):

- برافو، يا (أليكسيس). ولكن كان عليك ألا تضغط كثيراً
على الآلة. انظر لنفسك، كأنك يقطينة جاهزة للانفجار. عليك
أن ترتاح الآن. هيا! نصف دورة.

وعن غير رضا، سبح الصبيّ نحو الشاطئ مقتفياً أثر الطبيب.
قال وهو يلهث باستمرار:

- المدة جيدة، ولكنها غير كافية. ومن الآن فصاعداً سوف
أندرب على النزول إلى الأسفل أكثر. وفي يوم ما، سوف أحطم
الرقم القياسي لـ (مايول) Mayol.

- (مايول)؟

- ألا تعرف (مايول)؟ إنه فرنسي مثلك. قبل ثلاث سنوات،

عجوز مثله، نجح في النزول إلى 105 امتاراً!

- عجوز؟ ما عمره؟

- إنه عجوز جداً. في الستين من العمر على الأقل. ولقد قرأتُ أن قلبه لم يكن ينبض سوى 26 نبضة في الدقيقة. أمر لا يُصدِّق، أليس كذلك؟

قال (تيوفان):

- تذكّر من الآن فصاعداً أن القفص الصدري لطفل ليس واسعاً كفاية مثل القفص الصدري لبالغ. وبالنتيجة، فهو يحتوي على أوكسيجين أقل. انظر كم تلهث.

- لا تقلق!

وكانا يستعدّان للخروج من الماء، عندما سأل (اليكسيس) قائلاً:

- قل لي يا دكتور، لماذا أرادت (طونيا) أن تموت؟

- إنها لم تكن تريد أن تموت. وإنما كانت تسعى فقط لأن تقول لنا إنها كانت تعسة.

- أما كان بالإمكان أن تعبّر عن ذلك بالكلمات؟

- إن الذين يتألمون لا يفكّرون مثلك ومثلي. وبالتالي، لكل امرئ طريقته في التعبير عن مشاعره. فبعضهم يصرخ، ويبكي، وآخرون يلوذون بالصمت، وغيرهم يكفّون عن الأكل. وقد اختارت (انطونيا) طريقته.

هزّ (اليكسيس) رأسه برصانة، وقال:

- فهمتُ. إذاً هناك حاجةٌ ملحةٌ لكي تشعر بالسعادة، غير أن..

- غير أن؟

- غير أنها ستبدأ ثانية، وهذا أكيد.

* * *

قالت (أنطونيا):

- لقد أتعبك كما أتصوّر؟

- تقريباً.

كانت ترتدي مايوهاً من قطعة واحدة. وشعرها الأسود، المسترسل إلى الخلف، كان يبرز صفاء ملامحها. وفيما عدا تشوّه ساقها، كان جسمها تاماً. وبدلاً من أن يشوّه هذا الأمر قوامها الرشيق، فإنه أضفى عليه مظهراً رائعاً بشكل مدهش.

واقترح وهو ينحني على الفتاة الشابة ليرفعها، قائلاً:

- هل نذهب (للسباحة)؟

تردّدت، فشجّعته (ميلينا) قائلة:

- Ella pedimou (254).

وهكذا، تركت نفسها في أحضان (تيوفان). فقالت له:

- أنت لن تُغرّقني، هذا وعد؟

فابتسم، وقال:

- مجازفة محتملة.

* * *

وعندما غطست في الماء برفق، أبقاها مشدودة إليه.

ومرة أخرى جاءه هذا المزيج من العنبر والعشب الندي، وأضيفت إليهما الآن عطورٌ مملّحة. فهل كان ذلك لأنه لم يأخذ امرأة في أحضانه منذ زمن طويل جداً حتى إنه كان يشعر، من هذه الناحية، أنه قد ضلّ الطريق؟

كان قلبه يخفق بشدة إلى حد أنه خشي أن تسمعه، بينما كان البحر حولهما يترجح بهدوء في رقصة (باليه) هادئة بين الرّيد والماء.

(254) بمعنى (ميا يا طفنتي (παίδιμου) (الترجم).

كانت قد حافظت على خدها الموضوع على خد (تيوفان). وعلى صدرها إزاء صدره. في أي لحظة رفعت نحوه عينيها البنيتين الكبيرتين؟ لقد كان لديه انطباع بأنها تسأله النظر إليها، وكأنها كانت تدرك السلطة التي كانت تمارسها عليه. تمتم الطبيب، وهو يدرك أنه يتفوه بكلام مبتذل:

- هذا لطيف.

- تتكلم عن البحر، كما أتصور؟

وأضافت قائلة:

- كيف سأعرف ذلك، بينما أنت تتسبب بنثر الماء؟

أمعن النظر فيها وهو تائه قليلاً. واستأنفت هي تقول:

- نعم، أنت تنثر الماء يا (تيو). إن جسدي لا يعرف البحر.

وهو لا يُحس به. وأنا لا أشعر إلا بك. بقربي، وملتصقاً بي. شيء جميل حتى إنني لأستحيي منه.

فقال:

- إذن حياؤك وحيائي يندمجان.

وعلى الفور، أصبحت الحياة خفيفة كريشة. وتجددت عُذرية

العالم. وعندئذ، تجرأ على أن يقبل جفنيها وأحس بدمعة تتلألأ على طرف رموشها.

قالت (أنطونيا):

- أنا غبية، أليس كذلك؟ وأظن أنني سأنضجر بالبكاء.

فالسعادة تجعل المرء يبكي إذا؟ قل لي.

- من بعيد جداً أتذكر: نعم. وكان ذلك منذ زمن طويل.

توقف الزمن. واتسع الفضاء. ولم تكن لهما حدود سوى هذا

المحيط البحري مع كيانيهما.

وعندما خرجا من الماء، وبدلاً من أن يأخذها إلى الحشية،
وضعها على الرمل، وتمدد قريبا.

قالت بصوت خفيض خوفاً من أن يسمعها أحد:

- ما الذي يجري؟ ماذا حصل لي؟ ماذا نعيش؟
فابتسم، وقال:

- (رؤيا يوحنا اللاهوتي)، بلا شك؟

- أي نهاية العالم إذن.

- لا، إنه نهاية عالم.

أدارت رأسها باتجاه المظلات الشمسية (وميلينا). كانت
تلك المرأة غارقة في نسج الصوف. وغير بعيد منها، يجلس
(أليكسيس) على الرمل، وكان يتجادل مع رفيقه.

قالت (أنطونيا):

- تعتقد أنهم رأونا؟

- وإن كانت هذه هي الحال؟

- كنا قليلي الحياء، أليس كذلك؟

- إنهم يعرفون كيف يتظاهرون بالتسامح.

ثم حل صمتٌ طويل، يُوقَّعه أنينُ الهواء الذي كان يهب على
الخليج الصغير. مررتُ (أنطونيا) يدها اليمنى على امتداد
إعاققتها، وقرصت اللحم بين إبهامها وسبابتها وتركته. وقالت:

- لا شيء.. لا شيء يحيا تحت هذا الجلد. ماذا ستصنع

بنصف ميتة؟ من يرغب فيها؟

فردتُ بلا تردد قائلاً:

- يرغب فيها أحدهم، وهو أيضاً ميتٌ جزئياً.

- اشرح لي ذلك.

- أنت لا تعرفين حياتي. أريد أن أتحدّث عن حياتي القديمة، أي حياتي قبل جزيرة (باتموس). ويوماً ما، سأبوح لك بكل شيء. واعلمي فقط أننا أنا وأنتِ صنوان. إننا مختلفان، ولكننا صنوان. إن جزءاً صغيراً من جسديك مَيّت بالفعل، وإن جزءاً صغيراً من روحي كذلك.

- إن الروح يمكن أن تحيا، يا (تيو)، أما الجسد، فلا.

- جزئياً، نعم. أنا مقتنعٌ بذلك.

فقالت بسخرية:

- بشراب سحري؟

- إنني جادٌ. وأنا أفكر في ذلك أحياناً.

- المشي؟ الشفاء؟ استرداد استعمال ساقِي؟ إنه مستحيل.

- لا يُعقل. ولكنني أفكر في مدخل آخر. فدعيني أفكر أيضاً

قليلاً. وسأجيبك. هذا وعدٌ مني.

فأشارت بسبابتها نحوه، وقالت:

- احترس، يا دكتور: «لا تغدّي الأمل في مَنْ لا أمل فيه». وإلا

انفتحت عليك أبواب الشر.

(15)

كان الوقتُ ليلاً. وكانت هنالك بضع شمعات تضيء صالون المنزل، وتضيء على (تيمور) مظهرًا شبيحياً. كان يذرعُ الغرفة جيئةً وذهاباً، وكأنه يبحث عن مخرج. وقال:

- إن ما فعلته لم يكن حسناً! من قبل، كنت تثق بي، وكنا نتقاسم كل شيء. غير أنك، منذ بضعة أيام، تحبس نفسك، وتنطوي عليها. وقد أصبحت حواراتنا محدودة بأمور تافهة: «هل نمت جيداً؟ ماذا تريد أن تحضر لك الخادمة من طعام؟ هل راجعت درس الجغرافيا؟»، وحماقات أخرى! لم أعد أحتمل عدم وجودك!

واصل (تيوفان) بهدوء ضبط أوتار غيتاره، وقال:

- لا يجدي في شيء أن تزعق، يا بُني. فأنا على بعد متر واحد منك.

- نعم! لسوف أزعق. فهذا يُنفس عني.

ثم توقف، ويداه خلف ظهره، متقوس الظهر.

فكّر (تيوفان): «كانه رجل عجوز».

واستأنف (تيمور) قائلاً:

- (ديمتري)، (انطونيا)، (بيبا)، وذلك (المصري)!

(أناغنوس) Anagnos .. فلان.

- إنه (اناغنوستاكيس) Anagnostakis.

- وهذا الطبيب العجوز الخرف (بابادا كيس) لا.. نعم لو (أليكسيس) أيضاً. كنت سأنسى هذا الـ (فرميسيد)⁽²⁵⁵⁾ vermicide.

- أنت تعني هذا الـ (فرميسيل)⁽²⁵⁶⁾ vermicelle، على ما أظن؟

توقّف (تيمور)، ونظر بازدراء إلى أبيه، وقبضتا يديه على وركبتيه، وقال:

- لقد حلّ محلّي، أليس كذلك؟ الحقيقة! أنت تؤثره عليّ. لا تكذب!

وضع (تيوفان) الغيتار بجانب الحائط.

- عد إلى الواقع!

- مستحيل!

- من أين طرأت لك هذه الفكرة، وهي أنني أستطيع إثارة غيرك عليك؟ هل نسيت أنك ابني؟

- لقد ذهبت للغوص معه. ووعده أيضاً بالعودة إلى الغوص ثانية، وأنت..

- توقّف، يا (تيمور)! هذه مجرد غيرة! أن تشاطر بعض اللحظات مع (أليكسيس) لا يعني أنه حلّ محلّك. أنت لا يمكن

أن يُستبدل بك أحد، لأنك أنت من لحمي، لا هو.

- ومع ذلك أعلنت لـ (أنطونيا) أنك تحب (أليكسيس).

- هنالك فرق دقيق. لقد قلت: «أحبه كثيراً»، وهذا لا يشبه ذلك بتاتاً.

(255) هذه الكلمة تعني (المادة التي تقتل الديدان) (المترجم).

(256) هذه الكلمة تعني (الشمعيرة) وهي من المعجنات الجافة التي تشبه (المكرونه) لكنها رقيقة جداً، ولعلّ (تيمور) أراد أن يكتي بها عن نحافة (أليكسيس) وهزاله (المترجم).

نهض (تيوفان) وأشعل مسجّلة الـ (Hi - Fi)⁽²⁵⁷⁾، ووضع فيها (سي دي) CD لـ (جون ويليامز)⁽²⁵⁸⁾ John Williams، فاجتاحت الفواصل الأولى الساحرة لـ (المعزوفة المكسيكية)⁽²⁵⁹⁾ Scherzino mexicano الغرفة.

قال (تيمور):

- ومع (أنطونيا)، أين أنت منها؟

- هذه ليست قضيتك.

- خطأ! من حقي معرفة ذلك! وأنا معني بها.

- معني بها؟

- طبعاً. إن كانت قضيتك جادة، فستطرد أمني، أليس كذلك؟

صبّ الطبيبُ لنفسه كأساً من شراب (فوكيانو)، وذهب

للجلوس.

- لقد أبديتُ لك ملاحظة أنه منذ ثلاث سنوات لم تُطرح

هذه المسألة. اسمع، يا (تيمور).. أنت تعذب نفسك للأشياء.

صحيح أنني منجذب - وهذه الكلمة ضعيفة - إلى (أنطونيا).

لأنها تفتنني.. وهي تجددني. وقد أذكت النار التي كنتُ أعتقد

أنها خبت. لكن كل شيء معقد. وفارق السنّ قبل كل شيء..

- هذا تماماً! يمكنها أن تكون ابنة لك. فعلاقتك بها غير

طبيعية!

(257) هذه الكلمة اختصار لكلمتين هما (High - Fidelity)، يعني إعادة إنتاج الصوت

وتضخيمه بامانة أو دقة عالية، عن طريق جهاز صوتي كهربائي ذي مكبرات متعددة (المترجم).

(258) جون ويليامز: مؤلف موسيقي أمريكي (ولد سنة 1932)، وقائد فرقة موسيقية، وعازف

بيانو، ويُعدّ على نطاق واسع أحد أكبر مؤلفي موسيقى الأفلام في كل تاريخها، وقد أسهم في

وضع موسيقى أفلام الرواية الخيالية (هاري بوتر) Harry Potter الشهيرة (المترجم).

(259) المعزوفة المكسيكية: من أشهر مؤلفات (ويليامز) الموسيقية المعروفة والمنتشرة التي تعزف

على الفيتار (المترجم).

رفع (تيوفان) حاجبيه دَهشاً، وقال:

- انتبه، انتبه. من قليل، أبديتُ لك ملاحظةً أنني أكبر منها
بعشرين سنة، فكان ردُّك: «هذه مشكلتك، لا مشكلتها». وأنت
كنتَ تبدو مشجُعاً لي على هذه العلاقة. أليس ذلك صحيحاً؟
أعرض الفتى المراهق عن ذلك منزعجاً، وقال:

- والآن، أين المشكلة؟

- إنها بالتحديد مشكلة السن. فعندما أكون في الخامسة
والستين، سيكون عمرها ستاً وأربعين سنة. وستكون في أوج
جمالها وأنا على الزَّلَاقَةِ، والانحدار نحو الأغرور.
قام (تيمور) بخطوة نحو أبيه وتأمَّله برصانة، وقال:
- لقد أهملتَ عنصراً آخر.

عقد (تيوفان) ذراعيه على صدره وترقَّب التالي. فقال
(تيمور):

- هو الطفل. إنها سترغب في طفل.
- أنا أحلم! من أين جاءتك مثل هذه الأفكار؟
- على الرغم من مرضها، يمكن أن يكون لها أطفال، أليس
كذلك؟

- لنغيِّر الموضوع.

- هل يمكنها أم لا؟

- نعم. ولكن ليس من غير مخاطر التعقيدات.

- مثل ماذا؟

- أنت تضايقني!

- أن تموت؟

- لا نبالغ. نزييف. قصورٌ تنفُّسي. وستكون عاجزة عن استعمال

الرجل الذي كان يَنْظُرُ إلى الليل

الركاب أثناء الولادة بسبب الـ (تشوُّه في مفصل الركبة) genu recurvatum لديها. وفي هذه الحالة، يجب اللجوء إلى الولادة القيصرية. باختصار.. لسنا بصدد ذلك. وهيهات! تأمل (تيمور) وقتاً طويلاً، وقام بخطوة أخرى وسأل وهو يشير إلى ذراعي أبيه:

- ممكن؟

- يا له من سؤال! تعال.

فضمه (تيوفان) إليه، وقال:

- لا فائدة من تعذيب أنفسنا. هذا غير معقول. إنني أحبك.

- إنني خائف، يا أبتني. خائف من غيابك. مع أنني أعلم

أن وقت ذلك سيأتي. وهذا واضح. ولم يكن ذلك يبدو لي قط

واضحاً. وبقي لي سؤال واحد مهم: لقد تركت (أنطونيا) تفهم

أن بإمكانها أن تسترد الاستعمال الجزئي لساقها. فهل كنت

تكذب عليها؟

- انتبه! كان جوابي بلا التباس: لا يُعقل.

- إذا ماذا تنوي؟

- أنوي استلهاً (لِيس هارتل)⁽²⁶⁰⁾ Lis Hartel.

- (لِيس هارتل)؟ من؟

(260) ليس هارتل: كانت فارسةً تدريب دانماركية على ركوب الخيل (1921 - 2009)، وفي سنة 1944، كانت حاملاً بطفلها الثاني، وصارت ضحية لشلل الأطفال polio، وبقيت مشلولة تحت الركبتين، وخضعت لإعادة التأهيل ثلاث سنوات. وفي سنة 1952، السنة التي حصلت فيها المرأة على حق المشاركة في الألعاب الأولمبية، اشتركت فيها، في (هلسنكي) Helsinki (عاصمة فنلندا)، وحصلت على الميدالية الفضية. وبعد أربع سنوات، حققت النتيجة نفسها في (ستوكهولم) Stockholm (عاصمة السويد)، على الرغم من أنها كانت تحتاج إلى مساعدة لركوب الحصان والنزول عنه، وأصبحت مضرب المثل في تحدي الإعاقة، وانتشرت شهرتها في أنحاء العالم، وسميت باسمها نواد كثيرة للفروسية في الدانمارك وغيرها من البلدان تخليداً لذكراها (المترجم).

- امرأة.

- كان قلبي يحدثني بذلك، ماذا أيضاً؟

- إن نقطة الانطلاق في كل شيء هي: انتصار الفكر والإرادة

على المرض.

- اشرح لي ذلك.

- مرّة أخرى.

- كما تشاء. وفي انتظار ذلك، قُل لي على الأقل ما الذي

تعتزم أن تفعله لساقَي (انطونيا).

- أريد أن يكون لها أربع أرجل.

- أربع أرجل؟

كُرر (تيوفان) قوله:

- أربع أرجل.. نعم.

(16)

أخفت ریح الشمال السُّحب التي كانت تحجب الأفق.
وصخور جزيرتي (ليبيسي) و(ماراتي) الصغيرتين،
المغطاتين بالسحب البيضاء الأخيرة، يبدو أنهما طفنا فوق
الأمواج⁽²⁶¹⁾.

كان هنالك قطيع من الماعز، ذواتي الضروع المثقلة يسبقه راع،
ينحدر بخطى ثقيلة، من المرتفعات المجاورة. ويتبعه كلب.
اعترف الدكتور (باباداكيس) وهو يعرج قائلاً:

- إنني أفهم شعور التمرد لدى هذه الفتاة الشابة. وللأسف،
ليست الحياة سوى ظلم، يا صديقي.

وأشار إلى مقعد حجري عند منعطف الزقاق، كان الرجلان
قد جلسا عليه في متاهة (شور). وقال:

- لنجلس، ألا ترغب في ذلك؟ إن الصعود والنزول عبر هذه
الشوارع الصغيرة ليس مناسباً لمفاصلي.

كان الجو لطيفاً. سماء صافية صفاء لا يُصدّق كان يغطي
المشهد. وكانت المدينة تغفو.

قال (تيوفان) وهو جالس قرب زميله:

(261) يبدو أن هاتين الجزيرتين القريبتين من (باتموس) تُفمران بماء البحر في أوقات، وينحسر
عنهما في أوقات أخرى، لتركيبهما الجيولوجي الرقيق (المترجم).

- أنت تعرف. ليس في العالم ما هو أشدُ خيبةَ أملٍ لطبيبٍ حين يعلن لمريضه قائلاً: «أسف. لا أمل في شفائك». وهذا هو الشعور الذي أحسستُ به عندما طلبتُ إليَّ (أخيل) والد (أنطونيا) بالتبني، إن كان بالإمكان فعل شيء من أجلها.

ثم أخذتُ نفساً قصيراً، وقال:

- ومن تلك اللحظة نشأت الفكرة التي عرضتها عليك. فهل هي فكرة مُحققة؟ وهل أمامها فرصة، ولو طفيفة، للنجاح؟ إنني في حاجة لرأيك.

ردُّ (باباداكيس) أولاً بهزُّ كتفيه، ثم قال:

- هل تعرف الدكتور (البير ماسون)⁽²⁶²⁾ Albert Mason؟ تعود القضية إلى الخمسينيات. ففي سنة 1951، كان هنالك فتى عمره ستة عشر عاماً، جسمه مغطى بالتآليل البشعة التي تنشر رائحة كريهة، وقد حضر إلى عيادة (ماسون). كان جلده القاسي، والجاف، يشبه جلد فيل، وكان ذلك منذ ولادته. نفّض الطبُّ المتعارف عليه يديه منه. وقرَّر (ماسون) حينذاك أن يعالج مريضه بالتنويم المغناطيسي فقط. وهو منهج موجود من آلاف السنين. هل تعلم أن المصريين القدماء كانوا يستعملونه؟ وأنا شخصياً، أتاحت لي الفرصة لقراءة مقطع من البردية الشهيرة في

(262) البير ماسون: طبيب إنكليزي، استطاع عن طريق المعالجة بالتنويم المغناطيسي أن يعالج بقعة من جلد الفتى السميك الذي كان مغطى بما يشبه حراشف السمك، خلال عشرة أيام، وتابع من ثم هذا النوع من العلاج، حتى عاد جلد الفتى المريض كجلد غيره من الفتيان العاديين، وقد كتب بحثاً عن ذلك سنة 1952 (المترجم).

(ليدن)⁽²⁶³⁾ Leyde، وقد وُصِفَ فيها ما يقارب كثيراً جلسة تنويم مغناطيسي.

- أعترف بجهلي ذلك.

فضحك (لوكاس) من قلبه، وقال:

- إنني أعتذرُك. لنعد إلى الدكتور (ماسون) ومريضه الشاب. ركزت الجلسة الأولى فقط على منطقة الذراع. وعندما دخل الفتى في غشية التنويم المغناطيسي، أكد له زميلنا صراحة أن جلده سيُشفَى، وأن التآليل ستختفي. ولما عاد بعد أسبوع، اكتشف المعالج أن التآليل قد اختفت. ولما كان متأثراً، ومتفوقاً بلا شك بمأثرته الخاصة، قرَّر على الفور أن يرجع إلى الجراح الذي أرسل إليه هذا المريض. وكان هذا الجراح، الذي أذكره عرضاً، قد حاول مرتين تطعيم جلد الصبي، بلا أي نجاح. وكانت النتيجة مذهلة، وفي الأصل لم يكن الفتى يعاني من تآليل تافهة، وإنما من مرض جيني يتيم يدعى (داء السمك) الخَلَقِيّ ichtyose congénitale. وقد أنجز (ماسون)، آنذاك، عن طريق اللاشعور التام وبسلطته العقلية الوحيدة، ما كان يُعدّ، حتى ذلك الحين، أمراً مستحيلاً، وهو: قهر مرض جيني بالطاقة العقلية وحدها. ويحافظ من نجاحه، واصل الطبيب معالجة الصبي، بالتنويم المغناطيسي أيضاً، حتى حصل له على الشفاء التام.

كان (تيوفان) يبدو مشدوهاً، وقال:

- أتصور أن حكايتك لا تتوقف هنا؟

(263) ليدن: من المدن الكبرى في (هولندا) وهي Leiden باللغة الهولندية، وفيها أقدم جامعة، واشتهرت بقسم الاستشراق العريق الذي كان يهتم بطباعة الكتب العربية في مطبعة (بريل) Brill الشهيرة، وعُرف بحفظ المخطوطات والوثائق من كل نوع، ومنها البريدية المشار إليها التي اكتشفت في (طيبة) بمصر في القرن 19 (المترجم).

- بالضبط. في السنة نفسها، وصفَ (ماسُون) علاجه بالتنويم المغناطيسي في المجلة الرصينة جداً (المجلة الطبية البريطانية) The British Medical Journal. وقد أحدث المقال وقعاً لا بأس به. وقد هلل له البريطاني في وسائل الإعلام، وكانت النتيجة المنطقية، أن المرضى القادمين من أربعة أركان (إنكلترا)، والذين كانوا يعانون من المرض نفسه، اجتأحوا عيادته. وفي هذه المرحلة أصبحت القضية محيرة.

أمسك (باباداكيس) بمنديله وجفّف عرقه، قائلاً:

- ألا ترى أن الجو حار؟

- لا. ليس صحيحاً.

- إذا، هذا هو التعب. أين كنت وقفت؟

- كنت تقول إن الازدحام..

- آ.. نعم! كان المرضى يتزاحمون عند (ماسُون). ولأسباب يتعدّر تفسيرها، لم يفلح العلاج بالتنويم المغناطيسي. وأخفت كل محاولات الطبيب.

- وهل من تفسير؟

- هنالك تفسيرٌ وحيد، هو تفسيري. فأنا مقتنعٌ بأنه لما أصبح يعي خطر المرض المعالج في المرة الأولى وبجهد تام، تسلل الشك إلى روح (ماسُون). ففقد قوة الإقناع التي أبدأها عند الانطلاق ونقل شكوكه إلى المرضى الجدد. ومن تلك اللحظة، أصبح عاجزاً عن إعادة إنتاج السلوك الجاد والعفوي الذي كان لدى الطبيب الشاب المقتنع بمعالجة حالة صعبة للتأليل وليس ل (داء السمك) الخلقِي.

رفع (تيوفان) حاجبيه، وقال:

- اعذرني، إن تفسيرك لا يكفي. ف (داء السمك) الخَلْقِيّ
تسببه جينة (مورثة) gène. فكيف يتم الاستنتاج بأن الروح -
لأن الأمر يتعلق هنا بالقوة الوحيدة للروح - يتجاوز البرمجة
الجينية؟ وبأي شيء كان بإمكان يقين (ماسون) في معالجته أن
يؤثر في نتائجه؟

- لأنه على الرغم من أن الطبّ الغربي كان يسعى دائماً
وبمنهجية إلى فصلهما، فإن الروح والجسد مرتبطان ارتباطاً
حميمياً. وأنا مقتنع بأن الروح، التي هي طاقة محضة، يمكن أن
تؤثر في الجسد، الذي هو مادة محضة.

فكر (تيوفان) بضع لحظات قبل أن يبدي ملاحظة بقوله:

- أنت لا يفوتك العلم، بطبيعة الحال، بأن هذه
الفرضية مرفوضة على نطاق واسع من قبل عقول العلماء،
ك (ديكارت) (264) Descartes وغيره. وبالنسبة للفيلسوف المادة
يمكن أن تؤثر فقط في المادة. وروح «غير مادية»، لا يمكن أن تؤثر
في جسد «مادي».

فتار (لوكاس) وقال:

- نُب إلى رُشدك. فطاقة الفكر تتمكّن من تنشيط إنتاج
الخلية من البروتين أو تثبيطه بألية تداخلات بناءة أو سلبية
تحضّي عنا قواعدها، وهذا صحيح. خذ هذه الممارسة الهندوسية
الغريبة في المشي على النار. أليست مثلاً شائعاً يتحدثُ به
الواقعُ المعتمد العلمي الثابت؟ وعلى الرغم من أن حرارة الفحم

(264) ديكارت: (رُنيه - René)، فيلسوف وعالم فرنسي (1596 - 1650)، دافع عن الأولوية المطلقة للعقل التحليلي، من أجل الوصول إلى الحقيقة، مطبقاً هذا المبدأ على الرياضيات والفيزياء، وكان لأفكاره تأثير واسع في الغرب، ومن أهم ما أثر عنه (خطاب حول المنهج)، وهو القائل: (أنا أفكر إذا أنا موجود)، وتبنى نظرية الشك أيضاً (المترجم).

وزمن العرض كافيان لإصابة الماشين عليه بحروقٍ بليغة في القدمين، ولكنهم يخرجون منه سالمين تماماً. ومثال المصابين بالسرطان الذين يستردّون صحتهم بعد شفاء تلقائي، أليس محيراً أكثر كذلك؟

- ليس الأمر كذلك، إن قبِلتَ أن هؤلاء المرضى كانوا موضوع خطأ في التشخيص.

رفض (باباداكيس) الاقتراح بإشارة من قفا اليد، وقال:

- وتأثير العلاج البديل placebo؟ الا يقدم برهاناً مطلقاً على ما أسميه تأثير المعتقد؟ البرهان الذي يتعدّر رفضه على طاقة شفاء الجسم من قبل الروح؟ وفي الحقيقة، وإذا ما كان البحث في هذا المجال وجد نفسه في نقطة ميتة، أو شبه ميتة، فذلك يعود بشكل رئيسي إلى المسائل القذرة للمصالح المالية. فهل عليّ أن أعلم طبيباً مثلك كم تُنتج صناعة الصيدلة من مليارات الدولارات وكم تستثمر في البحث الكيميائي؟ وفي المقابل، إن كان بالإمكان أن توضع قوة الروح في أقراص، فلسوف تُفاجأ برؤية عدد المختبرات التي ستصنّعها!

وشخصٌ ببصره نحو شجرة زيتون تنتصب غير بعيد وصمّت. احترم (تيوفان) صمته، حتى برز السؤال الذي كان يُحرق شفّتيه، وقال:

- أنت تعتقد إذاً أن فكرتي ليست غير معقولة كلية؟
- وملهمتنا، (ليس هارتل)، ألم تُثبت ذلك؟ وما كنتُ قد عرضته عليك للتو الا يؤكّده؟ ومع ذلك، أعلمك أن عليك أن تبرهن على صبرك وإصرارك على نتيجة غير أكيدة. وتَشعُر أنك أهلٌ لها؟

- تماماً.

- وعليك أن تُحِبَّها.

- حتى لو كان الرجل لا يحِبُّها، فعلى الطبيب أن يحاول ذلك.

أنارت ابتسامة ملامح (باباداكيس)، فقال:

- وفي النهاية، لن أكون مخطئاً إن أعلنت ذات يوم «أن لدينا دوماً حياةً يجب إنقاذها. لا كَلِيَّةٌ بلا شك، ولا نهائياً، ولكنها موجودة».

أقرَّ (تيوفان) بذلك بانحناءة من رأسه، بينما كان زميله يضيف قوله:

- وحينئذٍ، ربما يكون تشاطر الأرواح هذا هو تشاطر فدائك.

أشار (باباداكيس) بسبَّابته إلى شجرة الزيتون وقال بصوت

عميق:

- هل تصدِّق أنها سئمت من بلوغها نحو مئة عام؟

* * *

((2) فنظرتُ وإذا فرسٌ أبيضٌ والجالسُ عليه معه قوسٌ وقد

أُعطيَ إكليلاً وانطلق غالباً ولكي يغلب

3 ولما فَتَحَ الخَتَمَ الثاني سمعتُ الحيوان الثاني قائلاً هَلُمَّ وانظُرْ

4 فخرج فرسٌ آخرٌ أحمرٌ وللجالسِ عليه أُعطيَ أن يَنْزِعَ

السَّلامَ من الأرض وأن يقتل بعضهم بعضاً وأُعطيَ سيفاً عظيماً

5 ولما فَتَحَ الخَتَمَ الثالثَ سمعتُ الحيوان الثالثَ قائلاً هَلُمَّ

وانظُرْ. فنظرتُ وإذا فرسٌ أسودٌ والجالسُ عليه معه ميزانٌ في

يده

6 وسمعتُ صوتاً في وسط الأربعة الحيوانات قائلاً ثُمْنِيَّة
قَمَح بدينار وثلاثُ ثمانِي شعيرِ بدينار وأما الزيتُ والخمرُ فلا
تضرُّهما

7 ولما فَتَحَ الختمَ الرابعَ سمعتُ صوتَ الحيوانِ الرابعِ قائلاً
هَلُمَّ وانظُرْ

8 فنظرتُ وإذا فرسٌ أخضرٌ والجالسُ عليه اسمه الموتُ
والهاويةُ تَتَّبِعُهُ)) (265).

فعلى أي من هذه الأفراس الأربعة تملك القدرة على الركوب،
يا (تيوفان)؟ ذلك الفرس الذي يجعلك غالباً، ولكن بأي ثمن؟
أم ذلك الفرس الذي يحمل لك السلام، ولكن بقتل كل الكائنات
من حولك؟ (266) أو فرس القاضي والمحِب للعدل؟ أو الفرس الذي
سيقتلك آخر الأمر؟ (267).

فتذكُرُ (أوريست) الشقي. واحذر ربات الانتقام. وقد قالت لك
(انطونيا): «إن (ربات الانتقام) لا يعرفن سوى قانونهن الخاص
ويعاقبن من يخرقهن».

ألقى (تيوفان) سترة الجوخ بحركة غاضبة.
كانت ساعته تشير إلى الثانية صباحاً.

(265) نقل المؤلف نص ترجمة ما بين قوسين إلى الفرنسية من (رؤيا يوحنا اللاهوتي) المعروفة
باسم (Apocalypse)، ونقلنا نحن مقابله تماماً من: الكتاب المقدس، الترجمة العربية المنشورة
في المطبعة الأمريكية ببيروت، سنة 1913، العهد الجديد (الترجم عن اليونانية)، الفقرات
2 - 7 ومن الفقرة 8، ص 280 - 281 (الترجم).

(266) يبدو لنا سوء فهم المؤلف هنا مهمة راكب الفرس الثاني الأحمر التي هي انتزاع نزع
السلام من قلوب البشر للميل إلى أن يتقاتلوا إلى حد انقراضهم من فوق وجه الأرض، لا لضمان
سلامه الخاص (الترجم).

(267) من الواضح أن المؤلف أساء هنا أيضاً فهم المقصود من الفقرة 8 من (الرؤيا)، فراكب
الفرس ليس مستهدفاً بالموت، لأنه هو الموت بنفسه، وأما الهاوية فهي التي تجمع كل من وقع
عليه فعلة (الترجم).

فنهض، وتناول زجاجة خمر وصعد الدرجات المفضية إلى الشرفة.

لم يكن هنالك أي صوت. ولا نسمة هواء. وكان يبدو أن الزمن ينام هو أيضاً، على شاكلة البشر، وأن الساعات تنطوي ريثما ينتهي الليل. وفي الضجر، يُبعث كل شيء ثانية، ويواصل الناس تقدّمهم في السن.

ماذا تصنع (طونيا)؟ إنها ربما كانت نائمة. لا. فبالنظر إلى الطريقة التي تركها بها، لا بد أنها كانت تبحث هي أيضاً عن النوم. وإلا فإنه لم يكن يفهمها جيداً.

وقبل بضع ساعات، بعد العشاء، ونظراً لأن (بيبا) لم تظهر من المساء، ولأن (الباشا) كان قد ذهب إلى الصالون لتدخين سيكاره، أعلنت له (أنطونيا) برصانة قائلة:

- أنا غير متأكدة.

- غير متأكدة؟

- من مشاعري. إن كل شيء يختلط في رأسي. فهل الطبيب يُطمئن المريضة التي أنا هي؟ أم أنني، مثل كل العطاش إلى الحنان، أكون مستعدة لأن ألقى بنفسي على أول مورد؟

- أنت تُفعلين ذكر فرضية ثالثة.

كانت الرموش الطويلة لـ (أنطونيا) ترف كأجنحة الفراشات.

- ألا يمكن تصوّر شعور يشبه الحب؟

أمسكت (أنطونيا) يد الطبيب، ورفعتها إلى شفّتها وقبلتها.

- هذا هو كل ما كنتُ أريد أن أسمعك تقوله.

ثم:

- يا (تيو). هنالك بعض الأشياء التي كنتُ أحبّ أن أبوح بها إليك.

عقد (تيوفان) ذراعيه فوق صدره إشارة منه إلى انتظار ذلك.
 - هل تذكر اليوم الذي سألتك فيه، ونحن في (غريكوس)،
 إلى أي صنفٍ من الرجال تنتمي؟ فأجبتني: «إنني أجهل ذلك.
 واعتقد ببساطة أنني، وقد طفت عليّ الأولويات التي لم تكن
 كذلك، نسيت بلا شك أن أعطي الآخرين».

- وماذا بعد؟

- والآن، أودّ أن أعرف من أنت. نعم، يا (تيو). أريد أن أعرف
 هذا الذي يبدي، في عينيك، بريقَ حزنٍ لا نهائي. لقد تنبأت أُمي
 عن طريق ورق اللعب. وبالتأكيد نحن داخل اللامنطقي. فهل
 تعلم، مع ذلك، ما كَشَفَتْه؟ كَشَفَتْ أن بالإمكان أن تكون مصاباً
 بمرض لا شفاء منه. فما سرُّك، يا (تيوفان)؟ بُخ لي بسرِّك.
 إذا ما تمكَّن، في هذا الوقت المحدد، أن يتأمل في مرآة، فسوف
 يكتشف وجهاً مخيفاً. ومع ذلك حاول أن يحتفظ بلهجة
 طليقة. فقال:

- ورق اللعب! أنت مع ذلك تعتقدين بهذا النوع من التنبؤ؟

- لقد تحدّثت للتو عن مولد الحب. وليس بالإمكان إخفاء
 أسرار عن أولئك الذين يحبهم المرء. وينبغي ألا يكون هنالك
 خجل، ولا خوف، ولا حياء. تفهمني؟ وأنا في حاجة إلى معرفة
 من تكون.

إنه لن ينسى أبداً الملامح التي تلبَّسَتْه في اللحظة التي نطقت
 فيها هذه الكلمات. إنها كلمات اعتقد أنه يسمع داخلها كلمات
 أخرى، هي: «إنني سأبحث عن سرِّك، وسأجده، وأستولي عليه».

(كان النزف يستمر على الرغم من الخياطة، بل إنه يتفاقم.

ثم قال:

- تَباً لهذا!

كان قد فهم الأمر.

فهو عندما قام بثَقْبِ الشريان لتفريغ الهواء، نَفَذَ الثُّقْبُ من جانب إلى آخر.

أصدر أمره إلى الجراح الثاني قائلاً:

- اسحب الهواء! فإنني لا أكاد أرى شيئاً.

- (تيوفان) هذا لن يجدي، يجب التوسيع أو التحويل.

- عنده حقٌّ، يا (تيوفان)، فالمريض سوف يُفْلِتُ منا. لا يمكنك

أن تتابع⁽²⁶⁸⁾.

* * *

وعلى شكل سَيْلٍ جارِفٍ، كانت الأصوات، والخيالات، تتلاطم بين السماء والأرض. لم تكن ذكريات تلك اللحظات ترد على خاطره منذ بعض الوقت، لكن استجابات (أنطونيا) بعثتها ثانية، وبعثت معها حصتها من خيبة الأمل.

أود أن أعرف من أنت.

وغداً أنت وغداً، يا (تيوفان) وغداً ومريض. مريض بالغرور، مريض بالغطرسة التي لا حد لها! لقد دمّرت حياتنا. إنك وَخْشٌ⁽²⁶⁹⁾.

كان قد قال لها:

(268) ما بين قوسين قائمين هنا ترددٌ لمجريات الحوار داخل غرفة العمليات بين (تيوفان) ومساعديه أثناء إجراء العملية في قلب مريض انتهت إلى الإخفاق بسبب إصراره على نظريته الجراحية التي أراد تطبيقها توفيراً لفتحٍ تقليدي لصدر المريض، وهذا الحوار تكرر لما صفحات سابقة (المترجم).

(269) هذه العبارات ممّا يرد على ذهن (تيوفان) من أقوال زوجته حين همت بالرحيل عنه، وسبق أن مرّت بنا (المترجم).

- (انطونيا) !، أعطني وقتاً. أرجوك. فما زال الأمر مبكراً جداً.

- كم من الوقت، يا (تيو)؟

- إن ما أحمله ثقيل جداً. وواسع جداً. إنني..

- نحن الاثنان نحمل صلباناً تبدو لنا أثقل من صلبان الآخرين، فهل عليّ أن أذكرك بكلماتك الخاصة؟ وأوردت:

- «مَنْ تحسبِن نفسك؟ هل تتصوّرِين أن كل شيء مسموح به لك بسبب إعاقتك؟ وأن على الناس أن يجثوا على ركبهم أمام أعضائك التعيسة ويلتمسوا العفو؟ لا، يا (انطونيا) أنت مخطئة تماماً. أولم تنس، يا (تيوفان)، أليس كذلك؟ لقد عدّبتني كثيراً يومذاك. والآن، اشرح لي لماذا عليّ اليوم أن أقبل ما رفضته لي؟

- اليوم، المهم هو نحن. الحاضر. وأن تعرفي ماضيّ لن يفيدك شيئاً. ومن نحو آخر، لم يبقَ منه سوى مجموعة من الأطلال، وجيشٍ من الأشباح. لا شيء.

- إنها أشباح لا تزال، مع ذلك، تلاحقك. أنت تريد أن تعالجني من آلامِي الطبيعية، وأن تكون صانعَ فَخَّاري. أنا موافقة. وأنا جاهزة، شكّلتني كما تشاء، فأنا ضلّصالٌ بين يدك. ولكن قبل ذلك يجب عليك أن تدعني أصبح (أثيناك) ⁽²⁷⁰⁾ ton Athéna. غير أن ربات الجحيم ستلاحقنا كلانا. فهل تتمنى ذلك؟ فلم يكن بإمكانه إلا أن يكرّر طلبه قائلاً:

(270) أثينا: هي إلهة الحق والفضن والعلوم في الأساطير اليونانية القديمة كما سبق أن أشرنا من قبل (الترجم).

- الوقت، أرجوك، امنحيني وقتاً، وعماً قريب، وليس بعد ألف سنة، سوف أحرر روحك من تساؤلاتها. ولكن قبل..

تردد، ثم قال:

- أودُّ أن أحاول تحرير جسدك.

فقطبتُ حاجبيها، وقالت:

- عمّ تتحدّث؟

- على شاطئ (سابسيلا)، قلتُ لك إنني أفكر في مدخل

آخر، في علاج آخر للتخفيف من الآلام المفضلية. بالتأكيد، لن يتطلب هذا العلاج أن نوقف المعالجة التقليدية، ولكنه سيلعب دوراً مكملًا. وسيكون طويلاً، وهو بلا شك مُملٌ، ولكن يمكن في آخر الطريق أن شعري بتحسُّن في حالتك العامة.

وأسرع في تحذيرها قائلاً:

- انتبهي، وأشدّد هنا على أنك لن تستعيدي استعمال

الساقين في أي حال.

- وفي هذه الحالة، أين الفائدة؟

- لقد أشرت للتو إلى ذلك: إنه تحسُّن الحالة العامة. وعودة

الثقة. والسكينة. وإن كنت ترغبين، يمكننا أن نبدأ غداً صباحاً.

وبعد لحظة من التردد، أجابت بقولها:

- لم لا؟ ولكني أحب، مع ذلك، أن تشرح لي ما تفكر فيه.

- أفكر في أن أقدم لك صديقاً. صديقاً عزيزاً جداً.

ها هي روحها تخوض معركة منذ عدة أيام. هل يمكن

للمشروع أن ينجح؟ ألم يكن قد التزم أكثر من اللازم حينما وعد

(انطونيا) بأن تكون أفضل؟ لقد أخذ على نفسه عهداً مجنوناً.

وغير منطقي. وهو يشبه إلى حد ما الذي حاوله قبل ثلاث

سنوات، خلال المداخلة الجراحية المميتة. وهذه المرة تزن المجازفة وزناً ثقيلاً. وإذا ما خسِرَ (تيوفان)، فلسوف يخسر الكائن الوحيد الذي أصبح يهمله في حياته.

* * *

كان هنالك صوت أقدام، لا يكاد يُسْمَع، صوتٌ في ظلمات الليل، فجعله ذلك ينتفض. هنالك طيفٌ يقترب ببطء. وكأنه كان يطفو فوق الأرض. فقال:

- (تيمور)؟

- نعم، يا أبتى.

- ألسنت نائماً في هذه الساعة؟

- كنتُ نائماً. وأنت أيقظتني.

- آه.. متأسفٌ.

قبع الفتى المراهق بجانب أبيه (تيوفان)، وقال:

- توقّف عن الشرب، يا أبتى. فيم يفيدك هذا؟ اخرج مرة واحدة من السُّكْر، فلا واحدة من مشكلاتك حُلَّت. من فضلك.

ألقي الطبيب بالزجاجة في الفراغ، وقال:

- ها هي. عدْ إلى النوم.

التصق (تيمور) أكثر أيضاً بأبيه، وقال:

- عليك أن تبوح بأسراركَ، يا أبتى. (أنطونيا) عندها حق.

- فعلاً، لا يستطيع المرء أن يخفي عنك شيئاً. وأنت تدكّرني

برواية (1984) (271). أنت لم تقرأها بالتأكيد، نظراً لأنك لا تقرأ.

(271) انظر الهامش التالي (المترجم).

- لا تكن عدوانياً. إنني لا أحب القراءة، ولكن هذا لا يمنعني من أن أكون ذكياً، أليس كذلك؟

- إن الذكاء بلا معارف يشبه سريراً بلا وسائد. فإن كنت تريد أن تواصل النوم منبطحاً..

- عمّ يتحدث، كتابك؟

- إن مؤلفه (جورج أورويل)⁽²⁷²⁾ George Orwell يتصور (إنكلترا) خاضعة لنظام شمولي يكون أي فعل أو حركة من السكان فيه مراقباً بشبكة من الكاميرات المسماة (الأخ الأكبر) Big Brother.

ضحك (تيمور) بهدوء، وقال:

- أنا إذن (أخوك الأكبر).

- بشكل ما، نعم.

- ولم تضق به ذرعاً؟

- ليس هنالك مساءات كهذا المساء الذي تبدو فيه وديعاً.

- هذا استثناء. لا توهم نفسك. فأنت تعلم أن بإمكانني

أن أظهر نفسي صعب المراس، أليس كذلك؟ ويمكنني أيضاً أن أرهبك لو أنني قررت ذلك.

وعلى الفور، استنتج من وجه (تيمور) شيئاً من الخداع، وقال:

- حسناً جداً، ماذا عليّ أن أفعل؟

(272) (2) جورج أورويل: هو (إيريك آرثر بلير) Eric Arther Blair، كاتب إنكليزي (1903 - 1950)، كانت روايته هذه التي تحمل عنوان (1984)، ونُشرت سنة 1949، قدحا لادعاً وقويًا في الأنظمة الشمولية، وتابع هذا القدر في أمثولته الخرافية (مزرعة الحيوانات) التي انتقد فيها الشيوعية، ومن كلماته الماثورة المخترعة (الأخ الأكبر) والد (novlangue) أي: الكليشيات الجاهزة التي توضع الحقيقة بواسطتها جانباً، أو بمعنى اللغة الخشبية الجاهزة المحفوظة عن ظهر قلب وتكرر كما هي حسب الظرف أو المناسبة، منفصلة عن الواقع الحقيقي، وهذه من أبرز ميزات تلك الأنظمة، وهي لغة تجمّد الفكر وتقتل الإبداع عند الناس (المترجم).

- تَكَلَّمْ مَع (أَنْطُونِيَا). مَن غَيْرَ أَنْ تَخْفِيَ عَنْهَا شَيْئاً.
 - وَتُدْرِكُ، مَع ذَلِكَ، أَنْ عَلَيَّ عِنْدِي أَنْ أَكْشِفَ لَهَا عَنْ حَيَاتِكَ.
 - آ.. لَآ لَآ شَيْءٌ يَجْبِرُكَ عَلَى ذَلِكَ. أَنْتِ وَأَنَا شَيْئَانِ مُخْتَلِفَانِ.
 وَأَفْضَلُ أَنْ أَبْقَى مَجْهُولاً مَدَّةً طَوِيلَةً جَدّاً بِالقَدْرِ الَّذِي أَرَاهُ
 ضَرُورِيّاً. وَلَكِنْ لَا تَخْشِ شَيْئاً، فَسَيَأْتِي ذَلِكَ ذَاتَ يَوْمٍ..

ابْتَعَدَ (تِيوفَان) عَنِ الصَّبِيِّ، وَقَالَ:

- لَسَوْفَ أَفَكِّرُ. وَلَكِنْ اعْلَمْ أَنَّي قَبْلَ أَنْ أَكَلِّمَهَا، أَرِيدُ أَنْ أُجْرِيَ
 تَجْرِبَةً. وَهَذَا رِهَانٌ.

- نَعَمْ. إِنِّي أَعْرِفُ مَا هِيَ. وَأَعْتَقِدُ أَنَّكَ تَصْنَعُ خَيْراً. بَقِيَ أَنْ
 تَعْرِفَ إِنْ كُنْتَ سَتَنْجَحُ.

- إِنْ لَمْ أَحْوُلْ، فَإِنَّا لَنْ نَعْرِفَهُ أَبَداً. وَالآنَ، اذْهَبِ إِلَى النُّومِ..
 هَبَّتْ رِيحٌ دَافِئَةٌ، فَحَرَّكَتْ قَمَمَ أَشْجَارِ الزَّيْتُونِ الَّتِي كَانَتْ
 تَحِيطُ بِالمَنْزَلِ. وَانْسَحَبَ (تِيَمُور).

* * *

رَفَعَ (تِيوفَان) رَأْسَهُ نَحْوَ اللَّيْلِ. كَمْ هُنَاكَ مِنْ نَجُومٍ؟ وَكَمْ بَيْنَهَا
 مَا لَا يَزَالُ حَيّاً؟ وَكَمْ مِنْ بَيْنَهَا مَا لَا يَمُتُّ سِوَى صُورَةٍ خَادِعَةٍ؟
 تَنَاقُضُ ظَاهِرِي مُطْلَقٌ يَضَعُنَا أَمَامَ حَقَائِقٍ مَزِيْفَةٍ. أَوَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ
 نَجُومٌ بَعِيدَةٌ جَدّاً عَنَّا وَلَا يَزَالُ نُورُهَا يَتَابَعُ طَرِيقَهُ لِيَصِلَ إِلَيْنَا، فِي
 حِينِ إِثْنِهَا مَاتَتْ مِنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ؟ ضَوْءٌ حَقِيقِيٌّ يَنْبَعُثُ مِنْ مَصْدَرٍ
 اخْتَفَى. هَذِهِ هِيَ، فِي الحَقِيقَةِ، خِلاصَةُ الوجودِ. كَائِنٌ عَزِيزٌ يَفَادِرُنَا،
 وَلَكِنَّهُ لَا يَكْفُ عَنْ أَنْ يَشِيعَ عَلَيْنَا. حَبِيبٌ يَمُوتُ، وَلَكِنَّهُ يَغُوصُ فِي
 ذَاكِرَتِنَا. إِنَّهَا البَصْمَاتُ الشَّهِيرَةُ الَّتِي لَا تَمُحِي لَ (تِيوفَان).

هُنَاكَ حَقِيقَةٌ مَع ذَلِكَ فِي تَشَابُكِ ارْتِدَادَاتِهَا هِيَ: تَكَلُّفُ
 المَسَافَةِ الغَرِيبَةِ الَّتِي ظَهَرَتْ بَيْنَ (أَنْطُونِيَا) وَبَيْنَهُ فِي وَقْتِ هِجَاغِ

مشاعرهما في مياه (سابسيلا). وفجأة، ها هي الظروف تقدّم
لهما فرصة ثانية لإعادة البناء بينهما. هذا السيلُ الداخلي
الذي تفجّر، ألا يجرف الوعد بفجر جديد؟
إنني سأبحث عن سرِّك، وسأجده، وأستولي عليه.

من زمان بعيد، حتى وهو شاب، كان لديه حياء غريب يمنعه
من أن يكشف لأي كان أفكاره الحميمة. فلقد كان يفترق
دوماً إلى هذا الإيمان النقي، إيمان الأشخاص الأتقياء الذين
يتوجّهون إلى ربّ ويعترفون له بأسرارهم الأكثر خفاءً. وربما كان
هذا يفسّر لماذا لم يكن الأثم والاكْتئاب يغادران روحه حتى يعودا
إليها. وأخيراً، وبسبب عدم ثقته إلا بنفسه، ويفحصها، انتهى به
الأمر إلى أن يفرق في بحر القنوط، غير ساعٍ أكثر إلى الكفاح
ضد المصير وقدراته الغامضة.

إنني سأبحث عن سرِّك، وسأجده، وأستولي عليه.
ولو أنه جنّب نفسه هذا المسلك.. لاحتفظ بسلطته عليها.
نهض فجأة. كان يختنق. كان عليه أن يبوح لأحدٍ ما. أن يُفرغ
روحَه. وأن يرتفع لآخر مرة خارج الجحيم.

(17)

اجتاز (تيوفان) المسافة التي كانت تفصله عن منزل (ديمتري) في نحو عشرين دقيقة كما لو كانت ربات الانتقام في أعقابه. ونزل عن دراجته النارية وطرق الباب. مرةً، مرتين. كانت الساعة الرابعة صباحاً. يبدو أن (ديمتري) كان ينام مثل جذع شجرة. فضاغف الضربات وهو ينادي بالاسم الأول لصديقه. وأخيراً، فُتِحَ مصراع الباب قليلاً، فأتاح رؤيةً وجهٍ كثيف الشعر.

- (تيو)، ماذا تفعل هنا؟

- هنالك أمر عاجل.

سَدُّ اليوناني عليه الطريق، وقال:

- قضا، قُلْ لي ما الذي يجري. فأنا..

- ألا تعتقد أننا سنكون مرتاحين أكثر في الداخل؟

- الأفضل.. الأفضل أن نتناقش هنا. فأنا..

- أنت تمزح؟

حاول (تيوفان) مرةً أخرى أن يجتاز العتبة، غير أن صديقه

واصل مقاومته لذلك.

- تبالاً بأي شيء تلعب؟

فهمس اليوناني بقوله:

- لستُ وحدي.

- وماذا بعد؟ لقد سبق أن رأيتُ عندك سائحاتٍ ولن نزعجهنَّ.

ومن غير أن ينتظر، دفع (تيوفانُ) اليونانيَّ، وتقدَّم خطوة إلى الأمام وهزمه بجلاء. فرأى أمامه (بيبا فاسيلي) متلفعة بملاءة. شعرها مسترسلٌ على كتفيها، ولا يكاد جسدها يستتر.

اعتذر الطبيب قائلاً:

- أنا خجلٌ، لم أكن أعلم.

- لا، يا (تيو). لا بأس.

وأضافت تقول مع ابتسامة بريئة:

- ليس لدي ما أخفيه.

فتظاهر بالذهاب، قائلاً:

- أدعكما.

احتجَّت (بيبا) وقالت:

- ابق، ابق. لسوف أعود للنوم.

والح (ديمتري) بدوره، قائلاً:

- عندها حق، ابق، بما أنك دخلت الآن الماخور..

نظر الطبيب إليه، ثم إلى (بيبا)، وارتدى على كرسي موسى.

اقترح عليه اليوناني قائلاً:

- سأصنع قهوة، فهل ترغب فيها؟

فأجاب برأسه: لا.

ولما ذهب (ديمتري) نحو المطبخ، اقتربتُ (بيبا) من (تيوفان)

جداً. كانت رائحة الحب تفوح من جسدها. وقالت:

- كل شيء سيكون على ما يُرام. لقد قرأت ما يرهق روحك.
وأنت لست الوحيد في العالم.

لقد خاطبته بضمير المفرد⁽²⁷³⁾. فهل كان يفهمها؟

وتابعت تقول:

- إنني أعلم أن تعاسة الآخرين لا تُعزينا عن تعاستنا، ولكنها
تسمح لنا بجعلها نسبية. هل تتذكّر؟ كنت تحاول أن تعرف لماذا
كانت صديقاتي يلقبُنني باسم البطلة اليونانية (ببولينا).
وأرغب في أن أقول لك ذلك الآن.

رفعتُ (بيبا) الملاءة التي كانت قد انزلتُ وجلستُ قبالة
(تيو). وقالت:

- منذ أن استولت اللجنة العسكرية على السلطة سنة
1967، انخرط والد (أنطونيا) في المقاومة. وكان يُدعى
(بافلوس) Pavlos. إنه كائن قوي ومقدامٌ كما كان اليونانيون
الحقيقيون. وحاولتُ عبثاً أن أفهمه أنه يعرض نفسه للمخاطر،
وأن عليه أن يفكر فيّ، وفينا، وفي ابنته أكثر من وطنه (وكان
عمر أنطونيا آنذاك سبع سنوات)، فلم يُصغ إليّ. لقد كانت
أذناه تطربان لكلمات (حرية)، (عدالة)، (استقلال). وعندما
حملوا جثمانه إليّ بعد سنة، ذات صباح من صيف 1968، مثقّباً
بالرصاصة، وأطرافه محطّمة، وعيناه مفقوءتان، شعرتُ بأنني قد
انتهيتُ، وأن روحي وقلبي تحطما إلى الأبد. وخرجتُ إلى الشارع
وصحّتُ من ألمي كذئبة أمام جثة صغيرها. وبعد أيام وليالٍ مليئة
بالدموع مضتُ ساعة الغضب، وجاءت الرغبة في الانتقام.

(273) يعني بالضمير (أنت = tu) الذي يخاطب به الأصدقاء والمعارف عند الفرنسيين، بدلاً من الضمير (أنتم = vous) الذي يكون الخطاب به للغرباء وفي الرسميات وللإحترام (الترجم).

سَدَّتْ (بِيبَا) نَفْسَهَا فِي أَرِيكْتَهَا، وَأَدخَلَتْ أَصَابِعَهَا فِي شَعْرَهَا
المَشَعَّتْ، وَقَالَتْ:

- لقد رويْتُ لك أننا كنا نتعرَّضُ، عندما كنتُ أعملُ في
(إيبيفانيا)، لزيارة هؤلاء السَّفَلَةِ من (الكولونيات). واحدٌ منهم
كان يتردَّدُ علينا بانتظام. في كل يومٍ إثنين. في الساعة الثانية عشرة
تماماً. فأحزرتُ لماذا! هذا الشخص كان قريباً لـ (ستيليانوس بَنَّاكوس)
(274) Stylianós Pattakós، أحد المحرِّضين على الانقلاب. وكانت
الفتياتُ يكرهنَّه. وكُنَّ يسمينَّه (موسُوليني) (275) Mussolini، لأنه
كان يحمِلُ الرأسَ نفسه لمتخلفٍ عقلياً مثل قَرَم (إيطاليا). وقد
رقتُ في عينيه. وعلى الرغم من مرادوته لي، ومئات الدولارات
التي صَفَّها أمام ناظري، رفضتُ دوماً أن أنام معه. فقد كان يبعثُ
الغثيانَ في نفسي. وبالفعل، أصابه هذا بالهستيريا. وانتقل من
الغضب إلى التوسُّل. وهذا ما جعل منه شخصاً محتقراً. أنت
تعرف كيف يكون بعض الناس: يكفي أن يُرْفَضُوا حتى يتذلُّلوا.
لَوْتُ (بِيبَا) شَفْتِيهَا، كما لو أن شيئاً من الدُّنْسِ لأمسهما،
وقالت:

(274) ستيليانوس بَنَّاكوس (1912 - 2014): أحد أعضاء اللجنة العسكرية المعروفة بلجنة
(الكولونيات)، عينٌ بعد انقلاب 1967 وزيراً للدخالية، اعتقل سنة 1974، بعد إسقاط
الديكتاتورية. وحكم عليه بالإعدام، ثم خفف إلى السجن المؤبد، ومن ثم أخرج من السجن لأسباب
صحية (المترجم).

(275) موسُوليني: هو (بينيتو - Beneto)، رجل دولة إيطالي (1883 - 1945)، أسس
(الحركة الفاشية) fascisme. وتولَّى السلطة سنة 1922، وتحالف الـ (دوتشيه) duce، وهو
اللقب الذي كان يحمله (بمعنى: الزعيم)، مع (هتلر) Hitler في الحرب العالمية الثانية. هرب
من روما عند دخول الحلفاء إلى إيطاليا، فخلعه (المجلس الفاشيستي الأعلى) من منصبه، سنة
1943، واعتقله ملك إيطاليا في اليوم التالي وسجنه، لكنه هرب من السجن، وحاول الالتحاق
بـ (هتلر) ولكن بعض رجال المقاومة الشيوعية واليسارية ألقوا القبض عليه في شمال إيطاليا
وأعدموه فوراً سنة 1945، ونقلوا جثته إلى (ميلانو)، وعُلِّقَ من رجليه مع آخرين في محطة
قطار ليراه الجمهور (المترجم).

الرجل الذي كان ينظر إلى الليل

- وبعد شهر من اغتيال (بافلوس)، دخلتُ في علاقة مع أحد أصدقائه المقاومين. لم أكن أريد مسدساً، لأنه يحدث ضجيجاً وغيرُ فعال بما فيه الكفاية بالنسبة لما كنتُ أنوي أن أفعله. توقفتُ حتى تتقصّى، وقالت:

- هل سبق لك أن امتلكتُ أيكورن يو.إس.م.7⁽²⁷⁶⁾ (Eickhorn US M7)؟ والأمر هنا لا يتعلق بسكين صغيرة، ويمكنك تصديقي. إنها سكين لحام حقيقية. وفي يوم الإثنين، وصل الكولونيل العزيز. وكعادته طلبني. وكنت قد أبلغتُ (مدام داليا) وصُويحباتي. وقبلتُ هذه المرة أن أتبعه. وقطعتُ الحديد مرة أخرى، لأن (ديمتري) عاد، ويده القهوة، وقال:

- أزعجكما؟

قالت (بيبا):

- لا، ويمكنك أن تنضمَّ إلينا. أنت تعرف القصة.

وأوضحتُ قائلة:

- لقد رويتُ كلَّ شيء لـ (ديمتري).

ثم كررتُ بصوتٍ مشدّد:

- كلَّ شيء.

وإذا كان (تيوفان) تلقى الرسالة، فلم يُبدِ أي ردة فعل. من

قَبيل:

(276) نوع من السكاكين أو الحِراب (السُنكات) التي تستعمل مستقلة أو تُثبَّت على رأس بندقية حربية للقتال القريب بما يسمى السلاح الأبيض، ويكون بعد استفاد طرفي القتال ما لديهما من ذخيرة لسلاحهما الناري، و(أيكورن) شركة أمريكية متخصصة بصناعة أجيال من هذه السكاكين أو الحِراب ومن كل الأنواع وتطويرها ونشرها في كل أنحاء العالم منذ مئة وأربعين عاماً (المترجم).

ماذا تفعلين هنا؟ ماذا تأملين؟ عمَّ جئتِ تبحثين هنا؟
الشَّفَقَة؟ المغفِرَة؟

حاول الطبيبُ أن يركِّز على الحوار الداخلي لدى (بيبا) التي
استأنفت تقول:

- إذن، هذا الكولونيل الشجاع تقدَّمَنِي إلى الغرفة، وكان
يهتَزُّ مثل راقصة تستعدُّ لتلقي عبارات التشجيع. وما كاد
يدخل، ابنُ الخنزير هذا، حتى انقضَّ عليَّ، وأراد أن يلمسني،
وأن يخلع ثيابي. وكان يُهذِّم بكلمات شهوانية. إنه داعرٌ حقيقي.
فكَبَحْتُهُ على الفور. كان بإمكانه أن يكتشف السلاح الذي كنتُ
قد دسَّنتُهُ في واحدة من جواربي. فطلبتُ إليه أن يخلع ثيابه
أولاً، بحجة رغبتني في رؤية الرجل الذي ينهمك في (التعري
التدرجي) strip - tease. وطلبي له تأثير يجعله أيضاً أكثر
جنوناً. ومن ثم، أصررتُ على أن يأتي قربي وأن يُلصق ردفِيه
بأسفل بطني. وهذا ما سارع إلى فعله. وعندما قطعتُ حلقة، لم
يصدر أي صرخة. لا شيء. فقط أصدر نوعاً من القرقرة المقرفة.
وسقط على الأرض. فجتوتُ قربه. ونظرتُ إليه يلفظ أنفاسه
الأخيرة، ولكن قبل أن يلفظ نفسَه الأخير، تمتمتُ في أذنه: «أنت
(صباح الخير) ل (بافلوس)». ثم قطعتُ له متاعه.
قال (ديمتري):

- لقد صنعتُ صنيعاً حسناً. ولكن كان عليك فقط أن
تقطعني سوءته أيضاً.

- لقد فكَّرتُ في ذلك، تصوِّز. لكن رائحة الدماء كانت
لا تُطاق. واعتقد أنني لم أتقياً قط إلا في ذلك اليوم. أنت ترى،
يا (تيو)، أنه في مسيرة حياتنا، قد يقع حدثٌ فجأةً فيجعلنا

الرجل الذي كان ينظر إلى الليل

ننُفِّدُ أعمالاً وخيمَةً كنا نحن أنفسنا نعتقد دوماً أننا عاجزون
عن ارتكابها. والمهم هو أن نفتدي حتى الخلاص. فبلا فداء ليس
هنالك خلاص. إننا منذورون للعيش في جحيم. في هذه الحياة،
وفي الحياة الآخرة.

وختمت تقول:

- أنت لا تملك الإيمان. ولا تعتقد إلا بما هو موافق للعقل.
فأنت علماني. وأعلم، مع ذلك، أن الخلاص يأتي من الأمر غير
المتوقع. ورسولُ الفرص يظهر في يوم ما، أو في ساعة ما. فإما
تعترضه وتقرأ ما يقترحه عليك أو تمر بجانب الخلاص.

كان (تيوفان) يلاحظها بصمت، ثم قال:

- ابق، يا (بيبا) مقتنعة برسول الفرص، فلقد التقيته.
وعقدنا أنا وهو اتفاقاً.

ثم ذهب إليها، وقبّلها على الجبين. وقال:

- هل أستطيع استعارة سيارتك هذا الصباح؟

- سيارتي؟ بالتأكيد.

وتوجّه إلى (ديمتري) قائلاً:

- سأمر بك لأخذك نحو الساعة العاشرة.

- في الفجر! (277) لماذا؟

- بقي لديك نحو خمس ساعات كي تجد الجواب.

(277) من الغريب أن يقول (ديمتري): (في الفجر! à l'aube) عندما تكون الساعة العاشرة صباحاً، لأن الفجر يكون قبيل انبلاج النور الأول للنهار، ويبدو أنه ممن يتضاخون في النوم، ويشمرون أن الضحى فجرهم (المترجم).

(18)

كانت الشمس تغمر التلال بأشعتها المائلة. هناك حيث تُكسّر الكرومُنورَها، فكانت قطاعات عريضة منيرة تشكل على الأرض ما يشبه جلد حمار الوحش. وهناك نوع من الوقار كان يخيم على الأرض، وكأنها في حالة انتظار.

هزّت (أنطونيا) رأسها من اليسار إلى اليمين، في تعبير مرير، وهي جالسة على الأرض، ومسندة ظهرها إلى حائط صغير، وعكازها ممدّدان قربها، وقالت:

- أتيت بنا إلى هنا من أجل حصان؟

وأشارت إلى (جيهول)، الذي كان على بعد بضعة أمتار، وزوّده معرّض للشمس، وينتظر بطواعية في وسط شُجيرات العنب. كان شعر عُرْفه الناعم يتيح لبعض الخصلات أن تمرّ بين الأذنين، وكان جلده مستعداً لأن يرتعش لدى أقل لمسة.

فرد (تيوفان) بهدوء:

- نعم من أجل حصان، إنه حيوان رائع لا يطلب سوى أن

يُعْتَنِي بِكَ.

- يعْتَنِي بي؟ هذا الحيوان..

- هذا الحيوان..

- هل أنت في كامل عقلك حقاً، يا دكتور (دِبَانِه)؟

- نعم، يا آنسة (فاسُيلي)، لم أكن في يوم من الأيام أكثر صفاءً ذهنٍ من الآن. أمس، سألتني مَنْ أكون. بعيداً عما تتمنَّين معرفته عن ماضِي، هل يمكنني أن أذكرك بأنني طبيبٌ؟ أعني طبيبك، يا (أنطونيا)؟ وواجبي الأول هو أن أسعى إلى تخفيف آلامك، وإعطائك وسائل إعادة بناء الدفاعات الفيزيائية والنفسية التي أضعفها مرضك.

- بتعليمي ركوب الخيل؟ في حالتي؟

- الأمر لا يتعلَّق بركوب الخيل. وما اقترحه عليك إنما هو تجربة علاج مختلف لا أكثر ولا أقل، من غير أدوية، ولا منتجات كيميائية. والشروع في شكل آخر من المعالجة. إن المسكّنات والمواد الأخرى التي تتناولينها منذ سنوات لتهدئة آلامك لا تفيدك فقط.

- فسّر لي.

- لنتصوّر أنه ذات صباح ظهر على ذراعك طفحٌ جلديّ نتج عن احتكاكٍ بنبتةٍ أو حشرة. فستشعرين بالحاجة إلى حكّه. لماذا؟ لأن جسمك كان له رد فعل بإنتاج جزيءٍ يثير الحساسية هو الـ (هستامين) l'histamine. وكما يعلم جسمك أنه سيكون من غير المعقول ومن المضر أن يُطلق ردة الفعل الدفاعية هذه في مجمل الجسم، فإنه ينشره فقط في المكان الضروري وبالزمن المتوجّب. هل أنا واضح؟

فوافقت على ما قال. وتابع هو يقول:

- إن أغلبية المنتجات الصيدلانية لا تفيد للأسف بهذه النوعية. فعندما تُدخلين إلى المعدة مضاداً للهستامين من

اجل تهدئة الحُكَاك، فإن المنتَج ينطلق عبر مجمل جهازك ويرصد جميع مستقبلتي الـ (هستامين)، في كل مكان يكونون فيه. وعندما تصل المادة الكيميائية إلى مخك، فإنها تفسد السَّيَالَةَ العصبية والوظيفة العصبية. ومن هنا تأتي حقيقة أن المرضى الذين يتناولون مضاد الـ (هستامين) يرون تخفيف الألم مصحوباً بتأثيرات ثانوية: كالخمول مثلاً.

وسكَّت ليقدِّر تأثير عرضه قبل أن يتابع قائلاً:

- أنت سمعت بالتأكيد حديثاً عن الـ (أوستروجين) oestrogène. لقد أثبتت الدراسات أنه يلعب دوراً أساسياً في عمل الأوعية الدموية، والقلب والمخ. واليوم، يصفونه بانتظام بشكل اصطناعي لتخفيف أعراض سن اليأس. وإذا بالـ (أوستروجين) الكيميائي، على غرار مضاد الـ (هستامين)، يتصرَّف تصرفاً بوليسياً أعمى ويشوِّش مجمل المستقبلين، وعلى وجه الخصوص كل ما ذكرته للتو، مسبباً، ودفعةً واحدة، أمراضاً قلبية - وعائية وعصبية. فعند السعي إلى شفاء الألم، يظهر منه أحياناً ألم آخر مخيف جداً أيضاً.

أخذ الطبيب استراحة جديدة، ثم قال:

- ولهذا أحب أن أجرب علاجاً مكماً. وبإمكان الحصان أن يساعد في العثور على الحياة الغافية في كل منا. وتوجد بيننا وبينه روابط صُحبة. فتصبح قوَّته قوتنا، وسرعته سرعتنا، وإحساسه بالمنظر إحساسنا.

- أنت تتكلم الصينية.

- تصوِّري أنني لا أتكلم قط اليونانية بوضوح تام. إن كل ما قد رويته لك للتو يستمد أصله من أرض وطنك. نعم،

يا (أنطونيا)، من أرضك. إن الاحتكاك بالخيل تَمَّت الإشادة به منذ زمن بعيد هنا، في بلادك. وقد كان اليونانيون القدماء يعلمون أن الاحتكاك بالحصان يمكن أن يخفّف بعض الأمراض البدنية، بتقوية عضلات الجسم. وأنه كان يتيح أيضاً تسكين ردود الفعل المفرطة لدى الأشخاص الذين يعانون من اضطرابات عقلية ..

- قُلْ على الفور إنني مختلّة العقل!

وللمرة الأولى، يرفع (تيو) صوته، قائلاً:

- توقّفِي، يا (طونيا)!

وأمسك يديها بحماسة، وقال:

- أتشكّين فيّ؟ موافق.. هذا حقك. ولكن ألا ترغبين على

الأقل في الثقة بأجدادك؟ وبالطاقة التي انتشرت من كل قطعة صغيرة من هذه الأرض؟

قَطَبْتُ (أنطونيا) جبينها وأشارت بإصبعها إلى (جيهول)،

وقالت:

- كيف تريد أن امتطي هذا الوحش؟ وأنت تعلم أن دمية من

الخِرْق أقوى مني؟

- أنت لست بحاجة إلى ساقيك. ومن جهة أخرى، وكبداية،

لن تجلسي عليه، بل ستمتددين. وسنرفعك أنا و(ديمتري) على مرّقة صنّعتها خصيصاً لدى نجار (شورا).

- لقد هيأت هذه التجربة إذا من قبل.

- نعم. منذ بعض الوقت.

وتابع شرحه قائلاً:

- وبمجرد أن تجلسي، سوف تميلين إلى الأمام حتى البطن،

وستضعين رأسك بلطف على عنق الحصان. وهذا كل شيء.

- وهل سيدعني حصانك أفعلاً ذلك بلا ردة فعل، نظراً لأنه

لا يعرفني؟

- إنه يعرفني، وهذا يكفي. وسوف يعرفك.

- وهل سيقبلني؟

- بالتأكيد، لأن ذلك سيكون فكرته.

ثم سارع (تيوفان) إلى تصحيح ذلك قائلاً:

- هذه الفكرة صدرت، في البدء، مني، ولكني رتبتُ الأمر

لجعلها فكرته. أو لا ينفذ المرءُ دوماً ما يختاره، أو ما يعتقد أنه

اختاره بحرية، بشكل أفضل مما لو أكره عليه؟

نظرتُ (أنطونيا) بمؤخرة عينيها إلى المطية بارتياح، قائلة:

- ليس عليه سُرْح؟

- أنا أردتُ ذلك. لسوف تركيبه عارياً. لا أريد لشيء أن

يفصل بينكما.

بدأت (أنطونيا) مستجمعةً أفكارها قبل أن تعلن قولها:

- لا أكثر من عشر دقائق.

صاح (تيوفان):

- (ديمتري)، أحضِرِ المِرْقَاة!

قامت (أنطونيا) على عكازيها، واجتازت ببطء المسافة التي

كانت تفصلها عن (جيهول)، بصُحبة (تيوفان). وأمام الحصان،

سألت الفتاة الشابة دفعة واحدة وبصوتٍ ينمُّ على الفزع:

- والآن؟

- الآن، سوف تعرفين بنفسك. اقتربي ودعيه يشعرك.

لا تخافين. إنه لا يأكل غير التفاح، والجزر، والتبن. تأكدي على

وجه الخصوص أن الحصان هو الأكثر هلعاً من بين جميع

الحيوانات على البسيطة. وهو ليس مفترساً بل فريسة. ويكفي أن ينبح كلب، وأن تمر ذبابة، وأن يبكي طفل، أو شيء ما، حتى يجفّل. والحاصل هو أن دور الفارس قبل أي شيء أن يُطمئنّه، وأن يُؤمّنّه. وإذا توقع خوفك، فإنه يخاف. وإذا شعر بأنك سيّدة الموقف، فإنك تصبحين أيضاً سيّدة.

قالت (أنطونيا):

- الكلام سهل.. ألا ترى قامته وقامتي؟

وتقدمت على استحياء خطوة إلى الأمام.

وعلى الفور، مدّ (جيهول) أنفه نحو خدّ الفتاة الشابة، وفتح منخريه وشرع بشمّه كما يشمّ المرءُ فاكهةً مجهولة لديه. وعندما رفعت يدها، كردة فعل، لحماية نفسها، لعقّها، وحكّ رأسه بها، وهو يحممم بهدوء.

فأبدى الطبيب ملاحظة بالقول:

- أنت ترين، ليس فيه شيء من غول شقيّ.

وبعد بضع دقائق، قال لها:

- تعالِي.

وكما كان قد حملها بين ذراعيه على شاطئ (سابسيلا)، قام برفعها، ولكن هذه المرة بمساعدة (فالستاف)، وأجلسها بحذر على ظهر (جيهول). وفي الوقت الذي انحنّت فيه نحو عنق الحيوان، وساقها مرتختان على جانبيه، اجتاحت جسم (أنطونيا) ارتعاشات. هل كان ذلك نتيجة الخوف، أو الاحتكاك بجلد الحصان، أو دفء شعر عنق الحصان الذي لامس خدها؟

صاحت:

- إنني.. إنني سأسقط، يا (تيو).

- لا. لا يمكن أن تسقطي. فنحن هنا. طوقني عنق الحصان جيداً بذراعيك. ويحنان ومحبة أيضاً. واجعلي (جيهول) يدرك أنك تحبينه.

- أتريد أن تضحك؟

وبينما كان (ديمتري) يحتفظ بيدٍ على وسط الفتاة الشابة لحمايتها، وهو مستعدٌ لإساکها في حالة ما إذا انزلقت، كان (تيو) يمسك العنان المرتبط برأس الحصان ومن غير أن يتلفظ بكلمة واحدة، تحرّك (جيهول) بخطى متسارعة. صاحت (أنطونيا) مرتعبة:

- ليس بسرعة كبيرة!

واصل الحصان تقدّمه والطبيب يقوده. وتابع (ديمتري) بذات الإيقاع وهو يفكر: إلام يهدف هذا المشهد؟ وماذا يرجو (تيو)؟ أن تنتصب الفتاة الشابة كما بفعل السحر وتنتقل عدواً؟ لقد كان يكره الخيول، متسائلاً غالباً عن متعة ركوب كتلة عضلية من خمسمئة كيلو يمكنها، في لحظة جنون، أن تعامل فارسها بقسوة كما لو كان الأمر يتعلق بحزمة قش!

بدأ (جيهول)، وهو ما يزال تحت رقابة الطبيب، يشرع بدائرة واسعة.

أبدت الفتاة الشابة قلقها، قائلة:

- إلى أين نذهب؟

ردّ (تيوفان):

- لا إلى أي مكان. لا تفكري فينا. استرخي. وتنفّسي بهدوء. صوت (تيو) كان يدوي بطريقة أحادية الوتر تقريباً، مليئة بصفاء عذب. ولكنه، في الوقت نفسه الذي كان يتوجه به إلى

(انطونيا)، كان يتكلم إلى (جيهول)، ولكن بصوتٍ داخلي، وكان (جيهول) يجيبه. وعندما يسكت (تيوفان)، لا يكون هنالك سوى الصمت تهدهده نسمةٌ خفيفة، وصوتُ سنابك (جيهول) التي تلامس الأرض، وأنشودة الشمس التي يستحيل وصفها.

مضت عشر دقائق. وربما أكثر. وعندئذ قال (تيوفان):

- (انطونيا). ما أجملُ آخرَ ذكري لك؟

تمتّت وخدها ما يزال على عُرف الحصان:

- إنها ذكري شاطئ (سابسيلا). عندما كنا داخل البحر وضممتني بين ذراعيك.

- إذن، أغلقتني عينيك واجعلي هذه الصورة نُصبَ عينيك. لا تفقديها. اجعليها نصب عينيك. لا تنظري غيرها. وانظري إليها وكأنها منيرة. وبقية العالم مظلمة، ولا يوجد هنالك سوى هذا النور.

ثم مرت خمس دقائق أخرى. ثم عشر.

أوقف (تيوفان) الحصان على مستوى المرقاة واقترب من الفتاة الشابة، وقال:

- انتهى الأمر، يا آنسة (فاسيلي).

وقالت مندهشة:

- عشر دقائق؟ بهذه السرعة؟

- لا. إنها أقل بقليل من عشرين. لا بأس، لا، بالنسبة للنزهة الأولى.

قالت لـ (ديمتري):

- إنه يكذب. إنه يكذب، أليس كذلك؟

أكد اليوناني قائلاً:

- من المؤكَّد أنه يكذب. فحسب ساعتي، أمضينا بالضبط ثمانِي عشرة دقيقة.

رفعها الرجلان بهدوء لحملها إلى الأرض، وبينما كان (ديمتري) يحضِر العُكَّازين، واصل (تيوفان) الاحتفاظ بـ (انطونيا) مشدودة إليه. وسألها:

- والآن؟ ما التأثير؟

- جميل.

- هذا كلُّ شيء؟

- جميل جداً. في الحقيقة، لقد تألَّت لإرخاء قبضتي. بسبب الخوف بلا شك.

- إنه لأمر عادي. في المرة القادمة، سيكون عدمُ الاستسلام أكثر من كلي. ولا تنسِي أن هلعَه منكما سيكون أكثر.

- هل سمعتُ جيداً؟ المرة القادمة؟

ووضَّح بجديّة كاذبة، فقال:

- إن الدكتور (دبَّانِه) يَصِفُ لك أربع جلسات في الأسبوع.

فقالت:

- ما أجراًك! من الذي أوحى إليك أنني مستعدةٌ لإعادة

الكرَّة؟

تبسَّم (تيوفان)، وقال:

- (جيهول)، (جيهول) أوحى إليّ.

* * *

التهم (ديمتري) قطعتي (قطايف) الواحدة بعد الأخرى ولعَّقَ بنهم بقايا العسل التي التصقت بأصابعه.

ثم تمتم قائلاً وهو يلتقط قطعة ثالثة من الحلوى:

- لا أدرك شيئاً مما تصنعه. وأي هدف ترمي إليه؟ وماذا يعني هذا الدرس في ركوب الخيل؟

(تيوفان) كان يركز، وهو مشغول البال، على المرسى حيث كانت سفينة (النجمة الزرقاء) قد أُلقت للتو مرساتها. قبل بضعة أسابيع، كانت هذه السفينة نفسها قد أوصلت أسرة (فاسيلي) إلى المرسى. واليوم مَنْ؟ أي مسافرين جدد بإمكانهم أن يفسدوا برنامج (تيوفان) اليومي، وينبثقوا من أعماق الأرض؟ وفكّر في أن ذلك مثير للفضول، كما ستجد حيواتنا نفسها يوماً ما منقلبة رأساً على عقب بسلسلة من الأحداث التي تكون عاجزين عن السيطرة عليها، وكذلك عن التنبؤ بها. (القاهرة)، (باريس)، (باريس)، (باتموس)، عدد كبير من مفترقات الطرق المستبعدة للوصول إلى كائن وحيد: (أنطونيا). أهي المصادفة؟

لقد كان يقترب من سنته الثامنة عشرة، يوم وقع على مؤلّف في مكتبة والده عنوانه: (كتاب المصادفات الكبير)⁽²⁷⁸⁾

.Le Grand Livre des coïncidences

كانت قراءته مسلية جداً. وبعد ثلاثين سنة، جعلته بعض الحكايات المحفوظة في ذهنه يضحك منها أقل. وكانت قصة

(278) لم يذكر (تيوفان)، أعني مؤلّف الرواية، اسم مؤلّف الكتاب المذكور، ويبدو أن إعجابه به ظل طيلة حياته، حتى ألف كتاباً مستوحى منه ظهر في 25 حزيران/يونيو سنة 2015 في دار (تيليماك) Télémaque بباريس (في 224ص). قال (سينويه) في تقديمه له: (ليس الكتاب رواية، وإنما كانت هذه الصفحات تعيش بداخلي منذ ما يقرب من 15 سنة، ولم تكن تتطلب سوى النقل. وبدا كل شيء سنة 1996 بسعادة كبيرة جداً بأولئك الذين التقيتهم مرة أو مرتين خلال الحياة وأثروا فيّ إلى الأبد). وكتبت الناقدة الصحافية (أوليفيا دو لامبيرتري) Olivia de Lamberterie تقول: «هذا (الكتاب الصغير للمصادفات الكبيرة) يلمح إلى دعوتنا إلى أن نفتح عيوننا وأن نوقظ انتباهنا لهذه الحوادث غير المرئية التي تغيب عن مراقبتنا، ولكنها ربما تصنع منا ما نحن عليه الآن» (المترجم).

(لينكولن)⁽²⁷⁹⁾ Lincoln و(كينيدي)⁽²⁸⁰⁾ Kennedy من بينها.

كان (لينكولن) قد انتُخب في (الكونغرس) سنة 1846، وانتُخب (كينيدي) فيه بعد مئة عام⁽²⁸¹⁾. كان (لينكولن) يكافح من أجل تحرير الرق، وكان (كينيدي) يكافح من أجل حقوق السود. وكلاهما تم اغتياله في يوم جمعة، وبرصاصة في الرأس، وبوجود زوجتيهما. وقاتلاهما تمت تصفيتهما قبل أن يُحكَم عليهما. وكان خليفة (لينكولن) يدعى (أندرو جونسون)⁽²⁸²⁾ Andrew Johnson، وخليفة (كينيدي) يدعى (ليندون جونسون)⁽²⁸³⁾ Lyndon Johnson. وكان كلاهما من الحزب الديمقراطي في الجنوب⁽²⁸⁴⁾. فهل هذه مصادفات؟

وهناك قضية الخنفساء. فقد رَوَتْ إحدى مريضات (كارل يونغ)⁽²⁸⁵⁾ Carl Jung، له، أثناء معالجتها، أنها رأت حلماً تلقَّت فيه خنفساء من ذهب. وفي الوقت نفسه، سمع

(279) لينكولن: هو (ابراهام - 1865 - 1809) (Abraham)، رئيسَ جمهوري للولايات المتحدة من 1861 إلى اغتياله. حرَّم الرق سنة 1863 (المترجم).

(280) كينيدي: هو (جون فيتزجيرالد - John Fitzgerald)، رئيس ديمقراطي للولايات المتحدة من سنة 1961 إلى اغتياله (المترجم).

(281) كان (كينيدي) قد أصبح فعلاً، سنة 1946، عضواً في الكونغرس (المترجم).

(282) أندرو جونسون (1808 - 1875)، رئيس ديمقراطي للولايات المتحدة من سنة 1865 إلى سنة 1869 (المترجم).

(283) ليندون جونسون (1908 - 1973)، رئيس ديمقراطي للولايات المتحدة من سنة 1963 إلى سنة 1969 (المترجم).

(284) يضاف إلى التشابه بين الخليفين أن الثاني ولد بعد مئة عام من الأول وولد الاثنان في السنة الثامنة من القرنين 19 و20، وأن نهاية رئاستيهما كانت بفارق مئة عام أيضاً، أي في عام 69 من القرنين 19 و20، وأن كلا منهما تولى بعد اغتيال رئيسه (المترجم).

(285) كارل يونغ: عالم نفسي وطبيب نفساني ومؤسس مدرسة خاصة به في (علم النفس التحليلي)، ألماني سويسري (1875 - 1961)، كان لنظرياته تأثير في الفلسفة، والأنثروبولوجيا، وعلم الآثار، والأدب، والدراسات الدينية الغربية (المترجم).

الطبيب النفساني، خبطة على زجاج النافذة سببته حشرة. فلما أمسكها وتحقق منها، فإذا هي.. خنفساء. فهل هذه مصادفات؟

وفي سنة 1898، نشر الكاتب (مورغان روبرتسون)⁽²⁸⁶⁾ Morgan Robertson رواية بعنوان: (إس.إس. تايان) S.S.Titan. تصفُ الرواية انطلاقَ سفينة ركاب ضخمة جداً، عابرة للمحيط الأطلسي، من (ساوثمبتون)⁽²⁸⁷⁾ Southampton في يوم تدشينها. وبعد بضعة فصول تصف الرواية اصطدام السفينة الضخمة بجبل جليدي وغرقها. وقد كان وصف (روبرتسون) لسفينة (إس.إس. تايان) يكاد يكون صورة طبق الأصل تقريباً لوصف الـ (تايانيك)⁽²⁸⁸⁾. فهل هذه مصادفات؟

ماذا نستخلص من كل ذلك؟ نستخلص القول: إمّا أن هذه المصادفات لم تكن شيئاً أكثر من فعل مصادفة، وكلّ فائدتها تقوم على تغذية الأحاديث في الصالونات، وإمّا أنها جزء من آلية (ميكانيكية) ذات مستوى عالٍ أكثر تعقيداً تخفى علينا فحوها الحقيقية إلى هذا اليوم.

آلية. ما هي؟ هل كل شيء إذن mektoub⁽²⁸⁹⁾، منذ الولادة؟

(286) عنوان هذه الرواية كما وجدته هو (The Wreck of the Titan . or Futility)، أي: (تحطم التايان أو العبث)، نُشرت طبعته الأولى في التاريخ المذكور، والثانية في سنة الكارثة الحقيقية 1912 نفسها، ربما على إثر وقوعها (المترجم).

(287) ساوثمبتون: ميناء شهير يقع وسط الساحل الجنوبي لبريطانيا ويطل على بحر المانش (المترجم).

(288) ومن التوافقات أن سفينة الـ (تايانيك) انطلقت في رحلتها من ميناء (ساوثمبتون) نفسه أيضاً في أول رحلة لها بعد تدشينها (المترجم).

(289) كتب المؤلف كلمة (مكتوب) العربية هذه في المتن بالحروف اللاتينية، ويعني بها أنه (مقدور)، وكتب معناها الفرنسي إلى جانبها بالفرنسية (écrit) (المترجم).

وحرية الإرادة الشهيرة⁽²⁹⁰⁾؟ هل هي وسيلة لطمأنة الإنسان؟

نبه (ديمتري) ثانية فقال:

- (تيو)، إنني أكلّمك. فهل عليّ أن أكرّر السؤال؟

- لا. هل ركبت حصاناً قط؟

- يحفظني الله من ذلك!

- إذا، لن تستطيع الفهم.

انتهر (ديمتري) الخادم، قائلاً:

- هيه، أنت، هناك، يا (نيكوس)! احضر لنا بعض الـ

(لوكومات)⁽²⁹¹⁾.

ثم انحنى نحو (تيوفان)، وسأله:

- ومن أجل الدكتور؟

فقال (تيوفان):

- زجاجة من كرم صديقي، لأنني ساعدته في البقاء على

(290) في الإسلام وأديان أخرى معتقدان مختلفان في ظاهرهما: الأول ما يعرف بـ (الجبرية) أي أن الإنسان مسير لا اختيار له في أقواله وأفعاله، وكل شيء يأتي أو يحدث من الخالق وبارادته، وهذا هو المبدأ التسليمي بكل شيء، وهو يبعث حقاً على طمأنينة الإنسان. والمعتقد الثاني هو ما يُعرف بـ (القدرية) أي أن الإنسان مخلوق مخير في أقواله وأفعاله، وهو ذو إرادة حرّة فعلاً، وهذا المعتقد يفسّر لماذا يحاسب الناس على أقوالهم وأفعالهم يوم الحساب فيثابون أو يعاقبون بها. والحقيقة أن الإنسان مسير حقاً في أشياء فرضت عليه وليست من اختياره فيسلم بها، وهو مخير في أشياء أخرى: فلا يعاقب الإنسان لأنه طويل أو قصير، عربي أو عجمي، أبيض أو أسود، جميل أو قبيح. وأما أن يقتل أو يزني أو يسرق فإنه يعاقب على ذلك، لأن الله أعطاه وسيلة للتمييز بين الخير والشر، وهو (العقل)، الذي هو مناط الحساب. وأما أن يبني مسجداً، أو يرضى الأيتام، ويعطف على المساكين، فهذا أيضاً من اختياره ويثاب عليه لأنه داخل في باب الخيرات. وهذان المعتقدان متكاملان تماماً، ولا تناقض بينهما. وقد عنى المؤلف بسؤاله عن حرية الإرادة الباعثة على الطمأنينة (القدرية) خطأ، وهو يقصد (الجبرية)، لأنها هي مبعث الطمأنينة (المترجم).

(291) مر سابقاً أنها نوع من الحلوى تدعى في الشام (العوامية) وهي كرات صغيرة من المعجن المقلّي بالزيت، وتحلى بغمرها بقطر السكر، أما في اليونان فتحلى بالمسل. ويبدو لي أن التسمية المصرية (لقمة القاضي) مأخوذة من ظاهر اللفظ اليوناني (لوكوم أدني)، أو أن الكلمة اليونانية مأخوذة من التسمية المصرية (المترجم).

قيد الحياة. هل ستأكل حقاً أيضاً فطيرة بالعسل؟

- هل تريد أن تجيبني؟

قام (تيوفان) بحركة وقحة من يده، وقال:

- ما أبحث عنه؟ إنه تحسين حالتها الصحية.

- يجعلها تركب حصاناً؟

- تماماً.

خَطَفَ الطَّيِّبُ فطيرة من الطبق الذي كان الخادم قد أعده

للتو.

- إن الركوب على حصان لا يمثل عملاً تافهاً، على الأقل

بسبب الجهد الفيزيائي الذي يتطلبه. فالحصان يحرك لدى

الفرس أكثر من ثلاثمئة عضلة، سواء أكان الفارس سليماً أم

يعاني إعاقة، كما هو الشأن في حالة (أنطونيا). وفيما يخص

الفوائد النفسية، فهي موجودة أيضاً، على الرغم من صعوبة

قياسها.

- والخلاصة؟

- لا شيء. إنني أجري تجربة. هذا كل شيء.

- وأنت مع ذلك تدرك أن (أنطونيا) لن تتمكن من الجلوس

على سرج.

هزَّ (تيوفان) رأسه، وقال:

- خطأ. ستتمكن من ذلك على سرج مناسب. امنحني فقط

أسبوعين.

عَقَدَ (ديمتري) ذراعيه فوق كُرْشِه وتأمَّلَ صديقه بتعبير

ارتياحي، وقال:

- أليس هذا من باب الغرور مثلاً؟

الرجلُ الذي كان يَنْظُرُ إلى الليل

- هذا الأمر أكثر تعقيداً. فأنا مرعوبٌ ومنبهَرٌ في الوقت نفسه: مرعوبٌ لأنها أصغر سنّاً مني بعشرين سنة. ومنبهَرٌ من اكتشافي بأنني لم أكن ميّناً تماماً.

- إذا أنت مغرور. وهناك سؤال لم يكن لديّ الوقتُ لطرحه عليك: عندما دخلتَ إلى بيتي في الساعة الرابعة صباحاً، لا بد من أن يكون لأمرهمُ للغاية. فماذا كنتَ تريد؟

- فقط الحاجة إلى الكلام.

- إذا تكلم.

- الوقتُ متأخّر، ومن غير المفيد الآن.

قال اليوناني:

- لقد أرهقتني، أيها الـ giatros (الطبيب)! وأنت تُغيظني. ليس الوقت متأخراً أكثر من ليلة أمس، وكنتُ أقول لنفسي إننا قد تعارفنا منذ ثلاث سنوات، وكنت ما زلت لا أعرف شيئاً عنك. إنك الرجل الأكثر غموضاً بين الناس. أسوأ من محاربة. ولم تكن هنالك وسيلة لانتزاع كلمة أكثر مما قررتَ أنت أن تلتفظ به. وأذكرُك بأنني صديقُك. إذن لماذا لم تقرّر البوح لي؟

- هنالك مثل عربي يقول: إن كان حبيبُك عسلاً فلا تلحسُه كله⁽²⁹²⁾. وأنا أحاول الاحتفاظ بك مدة طويلة.

ثم أعلن معتمداً نعمة أخف:

- بخصوص الصداقة، لسوف أقوم بزيارة لجارك.

- (سيفاكيس)؟ متى؟

(292) ترجمة المثل إلى العربية حرفياً كما ورد في المتن: (إن كان صديقك من عسل فلا تأكله كله تماماً)، ولذا راعينا الأصل العربي لهذا المثل كما هو (المترجم).

- فقد اقترحتُ عليه قبل بضعة أيام أن اشتري الأرض التي تطمع فيها.

قال (ديمتري) وكاد نفسُه ينقطع:

- وماذا بعد؟

- لقد رفض بذريعة أنه يعرف العلاقة بيننا، وبأنني سأبيعك ما اشتريته بمجرد حصولي عليه. وقد شرحتُ له عبثاً أن صداقتنا لا تدخل في الحساب، وأنني كنتُ أريد هذه الأرض لي، ولم يفلح الأمر.

- أولم أعلمك أنه كان مخبولاً؟ آ.. يا له من (mallakass)⁽²⁹³⁾ وأشكر لك محاولتك.

- أنت تعرف (سيفاكيس) أفضل مني. ولا توجد أي وسيلة للضغط عليه. العمدة، والرهبان، وماذا أعرف!

- أتشك في أنني قد حاولت. لا. لا شيء. فهو لا يخاف إلا الله. وهذا على الأقل ما أكدّه. إنه يذهب إلى الكنيسة في كل صباح، ويعترف في كل الأحاد، ويكون على رأس جميع الاحتفالات الدينية. وأخشى، للأسف، أن يكون ذلك بلا نتيجة. فبئس الأمر! وليختنق بأرضه. ومن الآن، أكد لي أنه إن قبل، فإنك ستبيع لي⁽²⁹⁴⁾، أليس كذلك؟

ابتسم (تيوفان)، وقال:

- بالتأكيد، بمضاعفة السعر.

(293) هذه كلمة يونانية بحروف لاتينية تعني (غبي) أو (أحمق)، وهي بالحروف اليونانية (χακλαμα) المترجم).

(294) كلمة (illico) من اصل لاتيني تقابل في الفرنسية كلمة (immédiatement) بمعنى (مباشرة). أو (aussitôt) بمعنى (فوراً) (المترجم).

مال اليوناني برأسه إلى الجانب، وقال:

- بالتأكيد.

وتابع يقول:

- وأنت أيضاً شخص غريب جداً، أيها الـ giatros (الطبيب)!

فأنت غريب، متقلب، وغير متوقع.

- ليس أكثر منك. وكفي أن يرى المرء بأي سرعة تم إبعاد

معاييرك في اختيار المرأة إلى غياهب النسيان. فكيف حال

السيدة الجميلة (فاسيلي)؟

- آه.. (بيبا) لا (بيبا)، إنها شيء آخر. (بيبا فاسيلي)، إنها طبقٌ

سلطاني. أغلق عينيك وتصور. تصور: باذنجانات، ويصلاً مشرّحاً،

وطماطم مقطّعة مكعبات وشرائح رقيقة، وجزرة صغيرة مبشورة،

وفليفلة حمراء هنغارية، وبقدونسا مفروماً، والكُلُّ موشىً بخبز

محمّص مفتت ومذهّب بالفرن. وفي النهاية، تحصل على

الطبق الأكثر لذة ممكنة، ويدعى: (الإمام بايلدي) l'imam

baildi، ويعني: (الإمام الذي أُغمي عليه)، وذلك لأن إماماً،

حسب أسطورة قديمة، قد أُغمي عليه من السعادة بعد تناوله

هذا الطبق. وأنا هذا الإمام!

- توقّف! إن (بيبا فاسيلي) ليست امرأة. إن (اليونان) كلّها

فيها هي وحدها!

(19)

صعد (اليكسيس) إلى سطح الماء وأخذ يحمجهم محدثاً
سحابة من الزبد، وقال:

– كم؟

أعلن (تيوفان) قائلاً:

– اعتقد تماماً أنك قد ضربت رقماً قياسياً جديداً: دقيقة
واثنتين وخمسين ثانية. فتحية لك!
– رائع!

كان الصبي يلهث، ويغص، لكن من غير أن يقلع عن ابتسامة
مشرقة.

– لسوف أصل إليه! وسترى أنني سأصل إلى أكثر من
دقيقتين.

– مهلاً! ليس بسرعة. إنني أجد أن لا بأس أن تلهث. فالمرء لا
يجبر الآلة. اتفقنا؟

قال (اليكسيس):

– اتفقنا، اتفقنا.

ثم وضع يديه حول فمه بشكل مكبر صوت وصاح لـ (أنطونيا)
بقوله:

– دقيقة واثنان وخمسون ثانية!

فحيتّ العملَ الباهر برفع إبهامها نحو السماء.

قال الطبيب:

- هيا، سنعود إلى النُّزُل.

قال الصبي:

- نعم.. لسوف أبحث عن (ميخاليس) وأنضم إليكم.

- لقد تأخر الوقت. لا تتلكأ كثيراً!

خرج (تيوفان) من الماء وسار نحو (أنطونيا). لم يكن من قبل قد رآها قط أكثر تألقاً. لقد كانت الفتاة الشابة قد تحوّلت، وهي تعزف بحزن على الـ (باغلمأ)، إلى شخصية مضيئة. وجليلة أيضاً. لقد مرّ نحو عشرين يوماً منذ المواجهة الأولى مع (جيهول) ولم يكن يتصوّر قط أن تأثيراً متبادلاً يمكن أن ينشأ في مدة من الزمن قصيرة جداً. فقد جعلت (أنطونيا) المطية مطيتها. وكان (جيهول) قد سحرها.

وفي آخر اليوم الثالث، ركبا دراجةً بمقعدين مترادفين، بسرعة. لحظات سحرية، غنية بالاهتزازات، والاثنان متحدان في الحركة نفسها، مرتفعان بذات الإيقاع، القلبان والجسمان يأخذان النفس ذاته. المرحلة الجديدة سوف تبدأ بعد أن يعدّل (ليونيداس) Léonidas، النجار العجوز في (شورا)، السُرَج الـ (كامارغي)⁽²⁹⁵⁾ camarguaise الذي كان (تيوفان) قد طلبه خصيصاً من (فرنسا). لم يكن المسكين (ليونيداس) يصدّق عينيه. فهذه تماماً هي المرة الأولى التي يُطلب إليه أن يعدّل في سُرَج، وهو الذي لم يكن سُرَاجاً. وإذا ما كان (تيوفان) قد اختار السرج

(295) السرج الكامارغي: نسبة إلى منطقة (كامارغ) Camargue الواقعة على الساحل الجنوبي لفرنسا غربي مصب نهر الرون الكبير، وتوجد فيها محمية طبيعية وطنية (المترجم).

الـ (كامارغي)، فذلك لأنه يملك قَرَبُوسَيْنِ⁽²⁹⁶⁾ من الأمام ومن الخلف، ومَقْعَدَةٌ واسعة على شكل حوض حَمَامٍ صغير، وفي تجويفها ستمكُن (أنطونيا) من أن تتخذ بلا خطر وضع الجالس. ويبقى أن يضاف إليه مَقْبِضٌ على القربوس الأمامي ومَسْنَدٌ على الخلفي.

قال (تيوفان) ساخرًا، وهو يتمدد قريبا:

- أولم تشتاقي إليّ كثيراً؟

- مطلقاً. كنتُ أخاف من عودتك.

- أشك في ذلك.

فوضع رأسه على كتف الفتاة الشابة وأغلق عينيه.

في العشية، اجتمعوا وكان لا يجرؤ أن يأخذها بين ذراعيه، يتأمل كل جزء من وجهها، والعروق الزرقاء التي كانت تنبض في صدغيها. كانت تشعر بعودة الحياة إليها. انفجرت بالنعيب، فرفعها إليه، وقد احتفظ هو نفسه بدموعه.

وقد سمعها وهي تهمس تقريباً بقولها:

- أنت تعلم يا (تيو)، كنتُ أظن أنني لا أزال أهلاً للحب، في

حين إنني كنت مقتنعة تماماً أن أحداً لا يرغب في هذا الحب

أبدأ. ولا يمكنك أن تدرك أي ألم كانت تثيره نظرة الآخرين

عندما كانت تقع على كائنات مثلي، سلبتهم الطبيعة: إنها قشرة

تفضل، وإصبع من شفقة، وآخر من رحمة.

اتكأ على كوعه، وقال:

- لا يمكنني في الحقيقة أن أدركه. ومن الآن، يجب أن تعلمي

أنني لا أنظر إليك هكذا: لا شفقة ولا تفضلاً.

(296) قَرَبُوسَا السُّرْحُ هما المقبض الأمامي ليمسكه بيده أو كلتا يديه مع الغنان، والمسند الخلفي للفارس ليمسده ظهره عليه (الترجم).

فَقَطَّبْتُ جَبِينَهَا وَقَالَتْ:

- لا شيء؟ ولا أي انفعال أمام شقاء الآخر؟

- إن الحرمان من اكتشاف المرض، في كثير من الأحيان،
ويا للأسف! يجعله أقوى من العلم. فلو كان على الطبيب أن
يجعل من شقاء كل مرضاه شقاء له، فسينتهي به الأمر إلى
الهلاك. لا، يا (أنطونيا)، ليس هنالك رحمة. هنالك فقط
الرغبة الشديدة في قتالي بالنيابة والأمل في الانتصار.
فقالت ساخرة:

- وهذا ما أباح لك أن توبُّخني في اليوم الذي كنا فيه في
(غريكوس). إن جسمي هو الملتبس، لا ذاكرتي. لقد كنتُ سأقتلك
في ذلك اليوم!

- ولكنك لم تفعلي، والشكر لله!
وقال فجأة:

- قولتي لي، يا (أنطونيا)، هل ترافقينني إلى (مصر)؟
وفتحت عينيها الواسعتين قائلة:

- هل أنت جاد؟

- جادٌ جداً. عودة قصيرة إلى الجذور.

أمعنت النظر فيه حائرة، وقالت:

- يبدو لي أنني أتذكّر اقتراحاتك في المساء الأول الذي
تعشيت فيه في منزلنا. فقد تحدّثت عن البصمات التالفة.
وكنّت تقول إن إعادة رؤيتها تتضح أسوأ بكثير من مواجهة العدم.
وتكلمت عن أطلال وقبورٍ مغبّرة. فهل نحو هذا الديكور ترغب
في اصطحابي إليه؟

- نعم. بفارقٍ هو أنني سأراه عبر نظرتك أنت. ومن ثم،

لن نأخذ سوى تذكرة للذهاب. وألح على ذلك.

أبدت مفاجأتها قائلة:

- بطاقة للذهاب؟

أمسك قبضة رملٍ وتركها تنساب ببطء من بين أصابعه، وقال:

- نعم، يا (طونيا). لأنني «أنا»، هذه المرة، أنا وحدي من

سيقرر متى سنعود. وإن أحداً لن يفرض عليّ سفري.

قبضت، وهي متأثرة، يدَ (تيوفان)، وقالت:

- كما تشاء. سأرافقك. نعم. كما تشاء.

ثم قالت بغتة:

- لماذا هذه الرغبة المفاجئة في مساعدتي؟ بدافع الحب؟

- لا. بدافع الأنانية. فللمرة الأولى منذ زمن بعيد، شعرت

بالرغبة في أن أساعد نفسي. ولكي أعب دوراً لطيفاً معك، عليّ

أن أتعلم كيف أعاني اللطف بحقي أنا. ومن أجل أن أمنحك

قليلاً من القوة، عليّ أن أعالج نقاط ضعفي، ولأعرف كيف

أكلمك، عليّ أن أسترّد صوتي. ربّما أخيب أملك، ولكن الحب

لا يدخل في تفكيري.

- أفضل ذلك. وهكذا سأشعر أنني أقل أنانية. وإذا ما كان

بإمكان إعاقتي أن تعالجك نهائياً من إعاقتك، فسوف تراني

مُلبّية. ولكن لا تنس وعدك، يا (تيو): عليك ذات يوم أن تقول لي

كلّ شيء. هل نسيت؟

بدأت كرة الشمس، في الأفق، بالنزول خلف حدود البحر.

ردّ (تيوفان) عوضاً عن الجواب بالقول:

- ألا تعتقدين أن وقت الانصراف قد أزف؟ فقد بدأت أشعر

بالبرد.

ثم صاح:

- (أليكسيس)، حان الوقت!

سار الثلاثة نحو سيارة الـ (فيات). كالعادة، كان (تيوفان) يحمل (أنطونيا) بين ذراعيه. في الوقت الذي كانا فيه على بعد بضعة أمتار منها. وعندها ظهر رجل في الاتجاه المعاكس. وبومضة واحدة، رفع (تيوفان) (أنطونيا) عالياً جداً كي يحجب ملامحه جزئياً بجسم الفتاة الشابة، ووسّع خطوته.

احتجّت (أنطونيا) بقولها:

- ما الذي جرى لك؟

- لا شيء. إني بردان.

- هذا هو الرجل الذي سبق أن التقيناه، رجل الكهف، أليس كذلك؟

كذلك؟

- ربما.

- هل تمزح، يا (تيو)؟ ألم تر الطريقة التي كان ينظر بها

إليك؟

- أثار فضوله بلا شك رؤيتي وأنا أحملك.

ثم تصنّع الطبيب ابتسامة، وقال:

- أو أنه مُعجَب.

جلس خلف المقود، وصفق الباب، وأدار السيارة.

كررت (أنطونيا)، وهي تفكّر:

- مُعجَب؟

انطلقت السيارة وسط سحابة من الغبار.

* * *

الرجل الذي كان يُنظر إلى الليل

سَحَبْتُ (بيبا) نَفْسَيْنِ من سيكارها، ووضعت ساقاً على أخرى، وراقبت ردة فعل (أخيل). وهو غائص في كرسيه، والهيئة غائبة، وهو يلعب بحبات مسبحته الكهرمانية.

أَلَحَّتِ اليونانية في الطلب، قائلة:

- هل سمعت كل ما قلت لك؟

- طبعاً.

- وماذا بعد؟ بم تفكر؟

قام (أخيل) بتدوير مسبحته مرةً أخيرة قبل أن يجيب، بقوله:
- لقد تحدثنا عن ذلك سابقاً. وأعتقد أن التنصت على

الأبواب أمرٌ بشع.

- ماذا تقول؟ إنني موجودة هنا في الصالون، وكانا هما على الشرفة. ولم يكن بإمكانني أن أفعل شيئاً غير أن أستمع إليهما. وها قد مضى أكثر من أسبوعين وأنا أدير وأعيد إدارة هذه المسألة في رأسي. ولعلي أصبح مجنونة منها.

وسحبت المرأة بعصبية نَفْساً من سيكارها، وقالت:

- (تيوفان) شخص غامض. والورق لم يكن ليكذب. هذا الرجل يحمل في نفسه سرّاً. وعندما توَسَّلْتُ إليه (أنطونيا) لبيوح لها، كان جوابه..

تابع (أخيل) الجواب عنها بملل:

- «أعطيني وقتاً. فالوقت مبكّر الآن». أعلم. لقد رويت لي سابقاً كل شيء.

- حتّى إنه حدّد قائلًا: «إن ما أحمله ثقيل جداً،

رفع (الباشا) ذراعيه إلى السماء، وقال:

- (بيبا)، يا عزيزتي، إلام تريدان الوصول؟

- أنت إذا لم تفهم؟ أليست (انطونيا) ابنتي؟ أوليس من المنطقي أن أقلق لأجلها؟ هل تتصورها عاشقةً لرجل أكبر منها بعشرين سنة؟ رجل من المحتمل أنه لا يبادلها أبداً هذا الحب؟ دس (آخيل) مسبحته في جيبه، وقال:

- أهذه أنت؟ أنت التي تكتشفين فارق السن؟ mech ma'aoul⁽²⁹⁷⁾ هل نسيت أن ثلاثين سنة تفصل بيننا؟ إنها ثلاثون سنة! لا عشرون! فهل كانت حياتك جحيماً؟ ومن نحو آخر، أنت تفضلين جزئية هي: أن عمر (انطونيا) ألفاً عام، لا ستة وعشرون عاماً. (انطونيا) روح قديمة، وصدقيني، أنا أعلم أنني عرفت فيها واحدة عندما التقيتها. إضافة إلى ذلك، أجد أنه لا حق لك أن تتحدثي عنها كما لو كانت ابنتك. لا، يا (مدام فاسيلي)، إنها أيضاً ابنتي. لقد حملتها بين ذراعي، وهددهتها، وقد أعطيتها نصيبي من الحب وهي تستحق تماماً نصيباً من أم. فإن كان هذا الرجل يشكّل تهديداً أياً ما كان لها، فإنني أؤكد لك أنني، على الرغم من سني الكبيرة، سأجد القوة لإمساكه من تلابيبه وطرده.

- لكن.. لكن..

- دعيني أنهي كلامي! أنت تتكلمين، دائماً تتكلمين. إن (تيوفان) رجل جيد. وأجزم بذلك. إنه رجل عمل كل ما يستطيع من أجل خير (انطونيا)، ولا يمكن أن يكون هذا الوحش الذي يصوره لك مخ العصفور الذي هو مخك. أولم تري ابنتنا كم تغير؟ وكيف توصل (تيوفان) إلى إخراج (طونيا) من السجن

(297) كتبت العبارة العربية من اللهجة العامية بمصر (مش معقول!) بالحروف اللاتينية، وتلامها المؤلف بترجمتها الفرنسية (C'est insensé) (المترجم).

الرجلُ الذي كان يَنْظُرُ إلى الليل

الذي كانت تعيش فيه بخمول حتى الآن؟ لقد حقّق معجزةً وكلُّ شيءٍ يحمل على الاعتقاد بأننا لسنا إلا في بداية الأمر.

- وسرّه..

- كُفّي عن إثقال سمعي بحكاية السرّ هذه. فنحن جميعاً لدينا أسرارٌ صغيرة بائسة مكتومة في قلوبنا الصغيرة البائسة. ثم رفع سبّابته نحو (بيبا) قائلاً:

- وأنت أليس لديك أسرار؟ أو لا تُخفين عني أموراً في رأسك الصغير، وهل أنت مقتنعة بأنني عاجز عن استشفافها؟ لا بأس! وفي اليوم الذي يقدر فيه (تيوفان) أن الوقت حان لبيع بسرّه، فليسوف يفعل. ويانتظار ذلك، وإذا كنتُ أسمح لنفسني أن أقدم إليك نصيحة..

- نعم.

- سألِيهما!

- (أخيل) كيف تكلمني؟

اتّخذ (الباشا) هيئة متسامحة، وقال:

- كيف؟

(20)

كانت (أنطونيا) تعطي، وهي جالسة باستقامة على السُرَج الكامارغي، صورةً فارسيةً ماهرة. وعلى بعد خطوات، في مركز دائرة افتراضية، كان (تيوفان) يقود الحصان برسْنِه ويجعله يطوف الهوينى.

وكان (ديمتري)، وقد تراجع، وجلس تحت شجيرات العنب، يراقب المشهد باهتمام جديد. وكان أكثرُ ما فاجأه هو ارتياح الفتاة الشابة. فمخاوف الأيام الأولى غادرت المكان ليحل محلها اقترابٌ من السعادة، ولأسباب وجيهة، لم «تكن تمشي»، ولم تستردَّ بطريقة غير مباشرة قُوَّة محرَّكة كانت تعتقد أنها قد فقدتها إلى الأبد؟ قال (ديمتري) لنفسه إن شيطان (تيوفان)، في نهاية الأمر، كان بارعاً.

سألت الفتاة الشابة:

- ماذا تفعل ليطيعك من غير أن تنطق بكلمة واحدة؟ لستُ

أفهم.

- ولغة الإشارات؟ هل نسيتهما؟ إنها مع ذلك موجودة. يوماً

ما، سأصحبك لرؤية خيل حرة. ويكفي أن تراقبها لتكتشفي

أنها تتحاور، بالمعنى المجازي طبعاً. إنها رسائل محددة، تُستأنف

بلا انقطاع. إن أقل حركة تحصل لها سبب ولها مغزى. ومثال ذلك، أن الطريقة التي تضع فيها الفرس جسمها، وأذنيها بالنسبة إلى مَهْرها الذي تريد أن تروّضه، غنيّة بالدروس. وأنا متأكد أنك، بقليل من الصبر، يمكن أن تكوني قادرة على أن تحفظي عن ظهر قلب مفردات الصمت هذه.

وأمام ارتياب الفتاة الشابة، تابع الطبيب يقول:

- هنود (أمريكا)⁽²⁹⁸⁾، أنفُسهم، كانوا قد استوعبوا ذلك، خلافاً لك (كاو - بويات)⁽²⁹⁹⁾ cow - boys الكريهين الذين لم يكونوا يفكرون إلا في «تحطيم» الحيوان للسيطرة عليه. فهل تعرفين كيف كان الهنود ينظّمون أمورهم لأسر الخيول؟ لقد كانوا يبدوون بتحديد مكان القطيع، وكانوا يتبعونه على الأثر في كل تنقلاته، ويحرصون جيداً على مضايقته. وهذه الملاحقة السلمية يمكن أن تستغرق يومين أو ثلاثة أيام. ثم، عندما يرون أن الوقت مناسب، كانوا يرجعون أدرأجهم ويتعدون عن القطيع.

- والخيول؟

(298) هنود أمريكا: هم المعروفون بـ (الهنود الحمر)، وكانوا سكان القارتين الأمريكتين، ومما يذكر أنهم كانوا في رقعة الولايات المتحدة الحالية نحو أربعين مليوناً في مطلع القرن التاسع عشر، الذي شهد بداية توغل المهاجرين الأوروبيين من مجرّد الشريط الساحلي الشرقي المطل على المحيط الأطلنطي، باتجاه الغرب، مستعملين كل أنواع السلاح المتطور لتطهير البلاد منهم تدريجياً والحلول محلهم والاستيلاء على أراضيهم، حتى بقي منهم اليوم ما يقرب من مليونين أو ثلاثة ملايين فقط، وقد أسهمت صناعة السينما الهوليوودية بشيطنة هذا الشعب المسالم البدائي إلى أبعد الحدود، وصوّرته بأبشع الصور، وكأنه هو الجزار، والمهاجرين البيض المستعمرين هم الضحية، وهذا أمر مؤسف ووصمة عار على جبين الإنسانية (المترجم).

(299) الكاو - بويات: هم رعاة البقر الأمريكيون على الخيل، وعلى وجه الخصوص في القرن التاسع عشر، لانتساع الأراضي الأمريكية، وكانوا بحاجة دوماً لأسر الخيول البرية وترويضها وتطبيخها لاستعمالها في عملهم، وقد أنتجت صناعة السينما الأمريكية في (هوليوود) عدداً لا يحصى من الأفلام التي تروي قصصاً من واقع حياتهم، وتعرف بـ (أفلام الكاو - بوي) (المترجم).

- كانت دائماً تبادر بالقيام بنصف دورة وتتعبب خطاهم.

- بدلاً من أن تفر؟ لماذا؟

- لأن الهنود أدركوا أنهم عندما يُبعدون عنهم حصاناً، فإن

غريزته كانت تأمره بأن يعود إليهم. بالطريقة نفسها عندما

تضعين إصبعاً على جنب حصان وتحاولين دفعه، فإنه يقاوم

ذلك بدلاً من أن يستجيب له.

- شيء مدهش.

أوقف (تيوفان) جولة (جيهول) واقترب من الفتاة الشابة،

وأعلن لها وهو يبتسم قوله:

- اعتقد أن الوقت قد حان الآن لأن تأخذي القيادة.

- القيادة؟

- ألم تتعبي قليلاً من الدوران، متبعة لتوجيهاتي؟ أمسكي

العنان. من غير فظاظلة. وضعي كوعيك على جسمك. ولسوف

ندعو هذه الحركة: عنان الافتتاح، لأنها تشبه ما يفعله المرء

عندما يود فتح باب. وللذهاب يميناً، نفتح الذراع الأيمن بشكل

قوس دائرة نحو اليمين. وللذهاب يساراً، نفتح الذراع الأيسر

راسمين قوساً لدائرة نحو اليسار.

نقذت الفتاة الشابة ذلك بتهيب. فقال:

- تقريباً. نعيد. أديري جيداً المعصم الأيمن، مُبعدة يدك

إلى الأمام وإلى اليمين من غير أن تسحبي العنان، ولكن أرخي

يدك اليسرى لتدعي عنق الحصان تنعطف. وهذا أفضل. والآن

أعيدي الحركة نفسها، ولكن بالعكس. تمام! مرة أخرى.

سألت الفتاة الشابة بعد بضع دقائق من هذا التمرين، قائلة:

- وإن أردت أن أجعله يتقدم إلى الأمام؟

- في هذه الحالة، تلعب الساقان الدور الرئيسي في ذلك. وذلك بنخسِ بطن الحيوان نخساً خفيفاً، مع إرجاع الساقين من غير ضغطهما عليه، كما لو أنهما تبحثان عن رجلي الحصان الخلفيتين، وسيبدأ الحصان عندئذٍ بالجري. ومن أجل إيقافه..
صاحت (أنطونيا) مرتبكة:

- ساهي؟

- ليس هنالك ما يدعو للذعر.

حصّل (تيوفان) خيزرانةً لينة، وناعمة جداً، بطول متر تقريباً، وناولها للمرأة الشابة، وقال:
- هذه هي سيقانك، يا آنسة.

- فسُرّ لي، يا دكتور.

- ليس عليك إلا أن تعطي (جيهول) ضربةً خفيفة جداً من هذا القضيب، أشبه بالمداعبة، فقط خلف بطة ساقك اليمنى. واحذري ضربه على البطن، ولا على ردفه، وإلا سينطلق بسرعة!
فتحت (أنطونيا) عينيها الكبيرتين، وقالت:

- بسرعة؟

- يعني أنه سيرفع ردفه ويحاول أن يقذف بك. إذن، ضربةً صغيرة لطيفة ستمكّنك بصحبة طُرْطقةٍ باللسان أو ببساطة تأمره بالقول: «هَرُول»، Trotte.

- ولإيقافه؟

- سوف تميلين إلى الوراء بخفة، وأنتِ تسحبين العنان برفق.

ويلطف.

تفحصت (أنطونيا) الخيزرانةً بفضولٍ كما لو أن أحداً قدّم لها للتو خاتماً سحرياً.

وقالت:

- هل.. هل أستطيع أن أجربها؟ الن يخاف الخيزرانة؟
- على الإطلاق. لقد استعملتها أكثر من مرة لمداعبته في كل جسمه. ولا يمكن أن يخاف منها.
المرأة الشابة فكرت بعض الوقت بسرعة، وتنفست بعمق، وأمسكت العنان، وكما أوحى إليها (تيوفان)، نقرت نقرة على بطن الحصان وهي تطرطق لسانها.
فحرك (جيهول) الخمسمئة كيلو التي هي وزنه.
نهض (ديمتري) مرتبكاً، مانعاً نفسه من أن ينطق أي كلمة، خوفاً من أن يتحطم الجمال. واستمر الجمال. ووصل إلى آخر الكرم، أرخت (أنطونيا)، تبعاً لرسالة تعليمات الطبيب، يدها للأمام وإلى اليمين. فاستجاب (جيهول) للإشارة وبدأ بنصف دورة.

رسم اليوناني إشارة الصليب عدة مرات وهو مبهور، وهو يقول:
Panaghia (300) هذا مستحيل. لقد نجحت!
وعادت (أنطونيا) إلى نقطة الانطلاق، مطبقة مرة أخرى الإشارات التي تعلمتها، وعاد الحصان للانطلاق بطواعية أيضاً في الاتجاه المعاكس. كان (ديمتري) يرى في هذا الذهاب والإياب مشهداً كان ينتمي إلى ما فوق الطبيعة. فهذا كائن لم يكن يفعل، منذ أكثر من ثلاث عشرة سنة، سوى أن يدرج بشقاء، ويتوازن غير مؤكد، وهو مهدد دوماً بالسقوط، وهو اليوم حُرّ ويتحرك، كسيد.

(300) كلمة يونانية بحروف لاتينية تعني (أيتها المقدسة!)، وتكتب الكلمة بالحروف اليونانية (παναγια) (المترجم).

سألت (أنطونيا) وهي تحرك (جيهول) إلى أمام الطبيب
قائلة:

- هلاً ساعدتني على النزول؟

عندما أصبحت بين ذراعيه، تركت نفسها تذهب إزاء صدره
وبقيت ساكنة من غير أن تنطق بكلمة. ولكن (تيوفان) كان
بإمكانه أن يسمع بوضوح أنها تهمس بقولها: (شكراً).

* * *

رمى (الباشا) زهر الطاولة بعنف وهو ينفجر ضاحكاً ويقول:
- أنت مع ذلك غير معقول! فأنا لم أرَ حظاً كحظك. إنك
تلعب بغباء، ومع ذلك تجد سبيلاً إلى الفوز.

- هذا بالضبط ما قاله لي (ديمتري). فماذا أفعل؟

- هل أنت مدرك بأنك تلعب خلافاً لكل القواعد؟

فردّ (تيوفان) قائلاً:

- وربما أفوز لهذا السبب؟ حتى في تطبيقي الطب، وكان
يحصّل لي أن أستخفّ ببعض المواضع.

صاحت (أنطونيا) قائلة:

- وأنا أشهد بذلك. كيف تقول باللهجة
المصرية Magnoun⁽³⁰¹⁾.

فاكد (الباشا) قائلاً:

- مجنون، نعم.

ومال نحو (تيوفان) وتمتم له بلهجة من ييوج بسرّ، قائلاً:

(301) كتب المؤلف هنا كلمة (مجنون) بالنطق القاهري للجيم وبالحروف اللاتينية، وقد ذكر
(الباشا) بعد هذه الكلمة ترجمتها بالفرنسية وهي (Fou)، ويلاحظ أنها مما بقي عالقا بذهنه
من أيام عيشه في مصر قبل مفارته منها (المترجم).

- نسيتُ أن أقول لك: لقد أنجزتُ القضية مع مَنْ تعلم.
- رائع! لن أستطيع شكرك بما يكفي أبداً. ولم يرتب الرجل
الطيب بشيء كما أتصور؟
- مطلقاً. ولقد قفز من الفرع. لكن هذا اللئيم رفع السعر
أمام اهتمامي.

كم؟

- أزيد بعشرين في المئة.

- ليكن! ستتسلم التحويل المصرفي خلال ثمان وأربعين
ساعة..

- عمّ أو عمّن تتحدثان؟ كنتُ أودّ أن..

كانت (أنطونيا) تهم بمواصلة كلامها عندما دخل فجأة رجلٌ
إلى الصالون. كان له من العمر نحو خمسين سنة وشعره أصهب.
وسأل بلهجة انزعاج:

- أين (مدام فاسيلي)؟

وعندما شاهد (الباشا)، كرّر سؤاله بإنكليزية تقريبية.

قال (آخيل) بإنكليزية أوكسفوردية⁽³⁰²⁾:

- مَنْ أنت، يا سيّد؟

- (جورج ديهيه) Georges Deshaies. وأشغل الغرفة رقم 12.

- تشرفنا. هل أنت فرنسي؟

أكّد الرجل ذلك. فقال له (الباشا):

- إذا، لتتكلّم بلغتك. سيكون هذا أسهل بالنسبة لك. وأقدم

لك نفسي: (آخيل أناغنوستاكييس). ماذا تريد؟

- لا يوجد ماء في حمامي.

(302) يعني بلغة إنكليزية مصفأة أو راقية (المترجم).

- آه.. في هذه الحالة، الأفضل بالفعل أن تتحدث عن ذلك إلى (مدام فاسيلي). وتجدها في الحديقة.

ويغيب ردة فعل لمحدثه، سأل (الباشا) قائلاً:

- الرَّجُل؟

ظل الآخر ساكناً، ويحتفظ بعينه مثبتتين على (تيوفان)، ثم انتهى به الأمر إلى أن ينطق قائلاً:

- (دكتور دبانه)؟

تردد الطبيب قليلاً، ثم قال:

- نعم..

- لقد كنت متأكدًا حينما رأيتك على شاطئ (سابسيلا)، وقد شككت للحظة. وعلى كل حال، كان ذلك قبل نحو ست سنوات. فهل تذكرني؟ أنا (ديهيه).. (جورج ديهيه).

- آسف. هذا الاسم لا يُذكرني بشيء.

- مستحيل! إذا انظروا

كشف الرجل عن صدره، وياعد طرفي قميصه ليظهر قفصه الصدري لعيني الطبيب، وقال:

- انظروا عمل جميل، أليس كذلك؟

كان في وسط صدره ندبة تمتد على طول قفصه الصدري، وقال:

- في 18 شباط/فبراير سنة 1980. في مشفى

(كوشان) Cochin. انقذت حياتي.

أصر (تيوفان) على القول:

- آسف، ربما التبس عليك الأمر مع شخص آخر.

- كان تجسيراً رباعياً ومداخلة من يد معلّم! وبفضلك،

عدت إلى الحياة.

ردّ (تيوفان) بنفاد صبر قائلاً:

- أقول لك إنك مخطئ، ومن نحو آخر، أنا لستُ جراحاً.

قطب الفرنسي جبينه غير مصدق، وسأل:

- أولستَ حقاً الدكتور (دبّانه)؟

- يمكن أن يكون هنالك نحو ألف (دبّانه) في العالم.

- لكن، يا دكتور، هذا مستحيل.

ألح الفرنسي على القول بتضرع تقريباً:

- شباط/فبراير سنة 1980. مشفى (كوشان).

انفجر (تيوفان) قائلاً:

- أكرّر القول إنك مخطئ!

ونفض بسرعة واقترح على (أنطونيا) قوله:

- لنذهب إلى الحديقة. إننا نختق هنا.

وبينما كانا يجتازان عتبة الصالون، كانت الكلمات الأخيرة

التي سمعتها الفتاة الشابة (من الفرنسي موجهة إلى (الباشا)):

- أقسم لك إنه حقاً الدكتور (دبّانه). أكبر جراح قلب في

العالم. وأؤكد لك ذلك، يا سيدي.

فكان ردّ (أخيل):

- ما دام قال لك إنه ليس جراحاً!

* * *

عندما وصل (تيوفان) إلى أمام عريشة تقع قرب مدخل البيت

اقترح قائلاً:

- هل ترغبين في الجلوس؟

فامتثلت له بصمت.

كانت السماء مغطّاة وكان الضوء الذي تصفّيه السحب يفقد

صفاءه.

قال (تيوفان) بغيظ:

- غير معقول، هذا الشخص! يا له من لحوح!
بقيت (أنطونيا) محافظة على صمتها.

واستأنف هو يقول:

- يقال إن الجو سيتحوّل إلى عاصفة. والسماء لم تمطر بعدُ
على (باتموس).

تغيّر اتجاه الريح فجأة مثيراً زوابع حَلَزُونِيَه من الغبار، وأدى
إلى اضطراب أغصان الدالية التي تمتد على طول عوارض
العريشة. وخلال لحظة، أعطى الطبيب انطباعاً بالتحوّل إلى
مكان آخر، للاستماع إلى ما لا يدري. صوت خطوات؟ صوت
الصدى الذي لم يكن، مع ذلك، يقول شيئاً. الذهاب والإياب
للظلال. هل هنالك طيفاً مختبئاً في الظل؟

- ماذا عليّ أن أفعل؟

- تكلم إلى (أنطونيا). من غير أن تخفي عنها شيئاً.

رفع (تيوفان) ذراعيه وتركهما يسقطان، وقال:

- حسناً جداً. هل أنت مستعدة للاستماع إليّ؟

- إنني مستعدة منذ زمن طويل.

ضمّ يديه حتى يخفي اضطرابهما، وقال:

- كان هنالك في يوم من الأيام طالب متألق. وكان ابناً
وحيداً، رياه أهل رائعون وأبٌ يدلُّه، في مِضْرَ سَعِيدَةٍ. إلى يوم
أن ظهر كولونيلٌ يدعى (ناصرًا)⁽³⁰³⁾. وكان ذلك في 23 تموز/
يوليو سنة 1952. كان قومياً، ووطنياً كبيراً، وبطل حرب،

(303) كان عبد الناصر عند انقلابه برتبة (بكباشي) أي (مقدم) لا برتبة (كولونيل) أي عقيد
(المترجم).

وسرعان ما حياه الجميع بحماسة. هل كان شيئاً فوق الطبيعة؟ أكثر من ثلاثة قرون مرت (ومصر) يحكمها متسلطون أجانب. قام الكولونيل بإجلاء المحتل الإنكليزي خارج البلاد، وهذا ما ضاعف إعجاب شعبه به. وفي سنة 1956، قام الغرب، الذي لا يزال متأثراً بالعقلية الاستعمارية، بالهجوم على البلاد. وبعد إخفاق تام ومدوّ، قام هذا الغرب نفسه بالانسحاب وذيله بين ساقيه، غير مدرك للبركان الذي أيقظه. وبين عشية وضحاها، أُشِيرَ بالأصابع إلى طوائف الأقليات، المؤلفة من اليهود⁽³⁰⁴⁾ والنصارى⁽³⁰⁵⁾، من كل الأصول، والذين كانوا يُعدّون مصريين، واتهموا بأنهم كانوا متواطئين مع المعتدين. ووالدي، الذي لم يكن غنياً جداً آنذاك، رأى مستقبله، وبالنتيجة مستقبلي، يتبدّد

(304) إنصافاً للحقيقة، كان اشتراك (إسرائيل) في العدوان الثلاثي على مصر، سبباً في إثارة التمرّة ضد اليهود في مصر، كما أن الصهيونية لعبت دوراً في تعبئة يهود مصر للهجرة إلى فلسطين، وقاموا بأعمال عدوانية على اليهود والمصريين والمصالح الغربية في مصر لتحقيق هذا الهدف، فزرعوا الرعب في قلوب اليهود المصريين، فبادر كثير منهم إلى مغادرة مصر إلى جهات مختلفة (المترجم).

(305) يركز الغرب منذ حملة نابليون على مصر والشام، وطوال القرن السابع عشر في لبنان على حماية النصارى العرب، وركز الاستعمار الإنكليزي لمصر والفرنسي لسورية ولبنان بعد ذلك على تمهيق شعور النصارى العرب بالخوف من أبناء جلدتهم في العروبة، تطبيقاً لمبدأ (فرق تسد) الاستعماري، وإذا كان ذلك انطلى على فئة قليلة جداً منهم، فإن الأغلبية العظمى كانت مع أهلهم المسلمين، والدليل على ذلك أن كل من تعاون مع حملة نابليون وأخلص لها، ترك البلاد وتعلّق بأذيال الفرنسيين عند عودتهم إلى فرنسا، وبقيت الأغلبية المطلقة من نصارى مصر الأقباط في بلادهم وعلى أرضهم آمنين. غير أن الاعتقاد الوارد لدى المؤلف ربما كان يتعلّق بالجالليات اليونانية والإيطالية وغيرها، لأنها كانت مقيمة في مصر لحاجات اقتصادية لا بهدف التوطن، ونتيجة لمبدأ التأميم الذي خرج به عبد الناصر على الناس اندفعوا إلى الرحيل عن مصر خوفاً على مصالحهم الاقتصادية تلك، والذي يؤيد ذلك ويحتج لصحته أن عدداً كبيراً من أثرياء مصر واقطاعها رحلوا عنها أيضاً مع أنهم مواطنون مسلمون أصلاء فيها، وحدث مثل ذلك في سورية أيضاً أيام الوحدة مع مصر وبعدها، ومع ذلك لا يزال الغرب يحمل فكرة حماية الأقليات من الأكثريات، مع أن هذا المبدأ خاطئ أصلاً في ظل مفهوم المواطنة التي تساوي بين كل الناس أمام القانون بغض النظر عن أي فارق بينهم (المترجم).

دخانا. فكان لجوء والدي إلى لبنان، ولجوئي أنا إلى باريس. لماذا (باريس)؟ لأنني كنتُ أحلمُ بها، على غرار جميع أبناء ديني، في (فرنسا) منذ مولدي⁽³⁰⁶⁾، فقد علّمتُ حب هذا البلد الذي لم أعرفه إلا من خلال الكتب المدرسية والسينما. وكنتُ آنذاك أرغب في أن أكون طبيياً.

بعد سنة من وصولي إلى (باريس)، علمتُ بوفاة والدي، نتيجة أزمة قلبية. وقد بينوا لي، فيما بعد، أنه لم يتحمل اللجوء والانحطاط، وفضل العودة إلى (مصر)، مثلما تنزوي الضواري عندما تشعر باقتراب الموت. وخمد وحيداً. بلا أضواء. إن حشدَ الطفيليين الذين كان يطعمهم طوال السنوات الباذخة كان قد تبخر، كما لو كان مصادفة. وفي الحقيقة لم يذهب أبي نتيجة توقف القلب، بل نتيجة الغم. وعلى النقيض، وعوضاً عن أن اتحطم، فإن هذا الفقد نفخ في شجاعة ورغبة في الانتصار الذي كنتُ أظن أنني أهل له. ونظراً لأنني فقدتُ مملكتي، فقد بدأت ببناء مملكة جديدة تماماً. ولن اتوسّع في سنوات الشقاء. فهي مماثلةٌ لجميع السنوات التي يعيشها أغلب اللاجئين. نجحتُ في السنة الأولى في الطب وفي السنوات التالية بتفوق، يحركني سعارٌ أن أكون الأول في كل شيء، وفي كل وقت. ثم بعد قليل كنتُ ذاك الذي يعدُّه الأساتذة مثلاً. وعبقرية في المستقبل. وعندما طُرح موضوع اختيار تخصصي، فقد كان من الطبيعي جداً أن التفتُ نحو قاتل أبي، وهو: القلب. وهذا القلب رمز أيضاً للحياة، فهو يحتوي على مشاعرنا وأحلامنا. لقد كانت

(306) لا شك في أن هذا الحكم حكمٌ تعميميٌّ خاطئٌ وغير منطقي على المواطنين العرب النصارى في البلدان العربية، مع الإقرار بأن لكل قاعدة شواذٌ (المترجم).

لديّ دوماً موهبةً في يديّ. فحين كنتُ صغيراً جداً كنتُ أجمع نماذج مصغرة، وعلى الخصوص السفن، والشراعية منها، صانعاً اشْرعتها وصواربها بشكل أكثر إتقاناً من أصابع صغيرة لخياطة. وقررتُ أن أضع هذه الموهبة في خدمة الجراحة القلبية.

ولمّسْ جبينه حيث كانت تلمع بضع قطرات من العرق. فانتهزت (أنطونيا) ذلك لإبداء ملاحظة قالت فيها:
- إذا كان الحق مع سيد (ديهيه) هذا.
أشار (تيوفان) برأسه: نعم. ثم قال:

- ومنذ ذلك الحين، فتحتُ لي أبواب المجد. وأعتقد أنني كنتُ في ذلك العصر جراح القلب الأكثر شباباً في (فرنسا)، إن لم يكن في (أوروبا). إنه المجد، يا (أنطونيا). والشهرة. والقوة. ولو تعلمين أيّ مخدرات تمثّل! إنها تلقي سُمها ببطء، من غير علمنا، وتلوّثنا نهائياً. ويظنّ المرء أنه خالدٌ، ولا يمكن أن يمَسّ، ماذا أقول! إنه خالدٌ اسجدوا، أيها السادة، فما هو الدكتور (دبانه) الذي يمُرُّ لقد كنتُ أشبه شيء بـ (أوديب) الذي سَمَل الغرور عينيه. إن أي مداخلَة (جراحية) لم تكن تخيفني، سواء أكانت معقّدة أم خطرة. كل الأعمال الجراحية الباهرة وُلدت بين يديّ: يديّ المعجزة، كما كانوا يقولون عنهما. وكان بإمكانني أن أجري عمليةً في غرفة مظلمة من شدة ثقتي بنفسي.

وفجأة، اجتاح وجهه تعبير قلق، فسكت بغتة، ثم قال:

- اتصوّر أنك تكرهيني الآن..

- لا أبداً أبداً تابع، أرجوك.

حاول الابتسام، ولكن شفّتيه شكلتا تكشيرة، وقال:

- وفي هذا الوقت تزوّجت. في غاية الشباب، وكان عمري

فقط سبعة وعشرين عاماً. كانت زوجتي ممرضة. امرأة جيدة تتزوج شخصاً غير جيد. وربما خنتها أكثر مما لـ (كازانوفيا)⁽³⁰⁷⁾ Casanova من غزوات. كانت النساء تُطْرِنِي وتتزلف إليّ، ولم أر مجدياً أن أقاومهن. وكان الغرور، دوماً ولا يزال، هذا الغرور اللعين. وكان لنا طفل.

- حقاً؟

سكت (تيوفان).

كانت أجراسُ كنيسة (القديس يوحنا) قد بدأت تُقرَع. والغريب، لم تكن هذه المكاشفة لتُحدث له الماء. لقد انسلَّ خارج نفسه كالدموع التي تسيل ببطء، فاترةً وغير مستمرة. غادر كرسيه، وسار بالطول والعرض، وظهره مقوّسٌ خلال دقائق طويلة. وعندما عاد للجلوس، كان صوته قد وجد ثباته، وهو يقول:

- ومنذ نحو ثلاث سنوات، في 3 حزيران/يونيو سنة 1983 بالضبط، حضر شابٌ إلى عيادتي. وكان يعاني اضطراباتٍ قلبية. وعلى الفور شخّصتُ حالته بوجود (اتصالٍ أُذينيّ في القلب). وهو تشوّهٌ خلقيّ ولادِيّ. وليس فيه شيء خطير، ولكن كان يجب إجراء عملية له. وهذه مداخلةٌ تافهة. وتافهةٌ جداً مثل استئصال الزائدة الدودية. فقط هذا، أنا الدكتور (دبّانه)، لم يكن بإمكانني أن أقتنع بمداخلة تافهة! وكان بإمكانني، كما كان

(307) كازانوفيا: هو (جاكومو جبرولامو - Giacomo Girolamo)، مغامر نسائي من الدرجة الأولى، وكاتب مذكرات يصف فيها مغامراته التي كان يفوي بها النساء بأساليب متعددة من أبرزها الذكاء والشجاعة والجرأة والكرم وحسن التصرف، كما يصف فيها كل ما تعرّض له من مشكلات من جراء ذلك، عاش في الفترة (1725 - 1798)، ومذكراته مترجمة إلى العربية (المترجم).

كل الناس ينصحونني، أن أطبّق نشر القفص الصدري نصفين. أي شقّه على طول القصّ⁽³⁰⁸⁾. وبهذه الطريقة، ينقسم القفص الصدري نصفين، فيصبح بالإمكان الوصول بسهولة إلى القلب. فرفضت ذلك بذريعة خاطئة. لأن هذه الميزة إن كانت تسمح بإجراء العملية بأمان تام، لكن هذه التقنية تترك على المريض ندبة⁽³⁰⁹⁾. وهكذا أجريت العملية، خلافاً وضد جميع الآراء، بجراحة أقل رضية، وقررت أن أدخل من المسلك الأوسط⁽³¹⁰⁾
la voie médiane: هنا

وأشار إلى الجانب الأيمن من قفصه الصدري. ثم قال:

- إن مأساة المغرورين⁽³¹¹⁾، يا (طونيا)، هي أنهم يعتقدون أنفسهم أقوى من الطبيعة، وأقوى من الموت. وذات يوم كنت أقضي عطلة في واحدة من جزر (آران)⁽³¹²⁾ Aran، في (إيرلندا) Irlande، فذكر لي صياد سمك أكبر قدر من الجدّة في العالم بأنه رفض طيلة حياته أن يتعلّم السباحة. وحين سألته عن السبب، أجاب بقوله: «بسبب التواضع. فليس للمرء

(308) القصّ: هو عظمة وسط الصدر الذي تنغرز فيه رؤوس الأضلاع (المترجم).

(309) هذا الشق يترك ندبة، والطريقة التي اتبناها تترك ندبة أيضاً، ولذا قد يكون قصد الكاتب هنا أن قصّ عظم القصّ يضعف القفص الصدري على المدى البعيد ويضعفه، وربما هذا ما عناه بعد قليل من هدف طريقته بأنها ستكون (أقل رضية) (المترجم).

(310) المسلك الأوسط: يعني به إجراء شق عمودي في منتصف البطن، يمتد من أسفل عظم القصّ إلى أعلى المُرّة بقليل، حيث يتم الكشف عن القلب تماماً، ويتم تجنب إيذاء القفص الصدري بأي شق للعظم، وهي الطريقة التي يتبعها اليوم بعض جراحي القلب، وهي موضوع الحديث عن إخفاق بطل الرواية في تطبيقها للمرة الأولى في تاريخ جراحة القلب، حسب سياقها (المترجم).

(311) وهذا هو شأن المتصدرين في قمة السلطة والسلطان، والمنفردين بالشهرة، أو المنصب، أو المال، أو القوة، في كل الأزمان، إلا من وقاه الله شر الغرور وشر نفسه (المترجم).

(312) جزر (آران): تقع على الساحل الغربي الأوسط تقريبا لـ (إيرلندا) غربي خليج مدينة (غالوي) Galway (المترجم).

أن يتحدَّى البحر أبداً . وفي يوم العملية ذاك، كنتُ أتحدَّى البحر. واثقاً بنفسِي جداً، وكنتُ على وجه الخصوص في غاية التفطُّرُس، فاقترفتُ أول خطوة خاطئة لي.

وكلما كان (تيوفان) يتكلَّم، كان لديه انطباعٌ بأن يداً جحيمية كانت تنبُش في جسده. وأعلن:

- ومات مريضِي. ومنذئذ، وأنا أعيش في خِزْي، ليس الخِزْي الذي يلحُّه الآخرون بالمرء، وإنما الخِزْي الذي يفرضه المرء على نفسه. فعرفتُ العذابَ، ذلك العذاب الذي يجعل المرء يُعاني الشعور المرعب بالذنب. لقد قتلتُ نفساً، ومحوتُ حياةً. ومنذ ذلك اليوم، تحوَّلت حياتي إلى كومةٍ بائسةٍ من الرماد. فرحلتُ زوجتي عني. ولم أعد شيئاً. كل زاوية في شارع، وكل بيت كان يذكرني بفعلي المفضج. البستني السماء ثياب (قابيل)⁽³¹³⁾، وأصبح القبر (باريس). وذات صباح، لم أعد أتحمَّل شيئاً، حُزمتُ حقائبي إلى (اليونان). وجئت إلى (باتموس). لأن جدتي لأمي تنحدر من هذه الجزيرة. واتخذتها ملجأ لي. على الأقل لأن أحداً لم يكن يعرف أن الدكتور العظيم (دبانه) تحوَّل قاتلاً.

صاحت (انطونيا):

- لا. كان ذلك حادثاً!

- لا! إنه قتل!

قالت:

(313) قابيل: حسب الديانات السماوية الثلاث هو ابن آدم الذي قتل أخاه (هابيل) Abel، فكان قتله أول جريمة في تاريخ البشر على الأرض، وكان الدافع إلى ارتكابها الغيرة والحسد. (المترجم).

- هذا خطأ! خطأ. حادثة. خطأ طبي كما يحدث في كل مكان، وكل يوم، في العالم.
ومدَّت ذراعيها نحو (تيوفان)، قائلة:
- تعال، أرجوك، اقترب. إني أحبُّك.
جثا على ركبتيه أمامها، ووارى وجهه في ثنايا ثوبها.
وفي شبه العتمة، تمت صوت (تيمور)، قائلاً: «كذبة تم البوح بنصفها، وغُفِرَ نصفها الآخر».

(21)

عزف (تيوفان) الفواصل الأخيرة من معزوفة (ذكريات قصر الحمراء)⁽³¹⁴⁾ Recuerdos de la Alhambra واحتفظ بالآلة إلى جانبه. كان يحب لمس صندوق الرنين، فهو يهدئ باله. إن كل الأخشاب الثمينة المأخوذة من أشجار: ارز (كندا) cèdre، وصنوبر جبال الـ (الب) épicea، والـ (بادوك)⁽³¹⁶⁾ padouk الأفريقي، و(أكاجو)⁽³¹⁷⁾ acajou، والـ (هندوراس)⁽³¹⁸⁾ Honduras، ويستعملها صانعو الآلات الموسيقية الوترية، لصناعة هذه الآلة، كانت تنقل تاريخها. كم كانت الآلة تستغرق من ساعات الصبر حتى ينبثق الصوت من أوتارها؟ وكم من الليالي مضت في الشك؟ وعلى غرار الكائنات

(314) ذكريات قصر الحمراء: معزوفة موسيقية من وضع المؤلف الموسيقي الإسباني وعازف الغيتار الكلاسي من العصر الرومانتي (فرانثيسكو تاريجا) - Francisco Tárrega (1852 - 1909)، ألفها سنة 1896 حين كان في (غرناطة) (المترجم).

(315) الباليساندر: نوع من الأشجار التي يتميز خشبها باللون البنفسجي والبني والصلابة ومقاومة الرطوبة وتُصنع منه التحف والأثاث، وهو ذو رائحة طيبة أيضاً، ينبت في مناطق خط الاستواء، وبخاصة: البرازيل، والهند، ومدغشقر (المترجم).

(316) البادوك الأفريقي: نوع من الأشجار يتخذ من لحائه بعض المصنوعات (المترجم).

(317) أكاجو (هندوراس): نوع من الأشجار يتميز خشبه باللون الزهري والأحمر (المترجم).

(318) هندوراس: من دول أمريكا الوسطى (المترجم).

البشرية، فإن أي غيتار لا يشبه غيتاراً آخر وكل جهاز يثير صورته الخاصة وأحلامه المتنوعة جداً والمعقدة كالروح البشرية. تقدم (تيمور) على كرسيه وصفق بحرارة في نهاية المقطوعة. وقال:

- لا بأس عموماً. أنت لم تعزف قط أحسن من ذلك.
فسارع (تيوفان) إلى إضافة قوله:

- أشكر لك أنك لم تكشف عن حياتي لـ (أنطونيا).
- نعم. أنا أيضاً كذبتُ.

- كذبة تم البوح بنصفها، وغُفِرَ نصفها الآخر.
- لديك فلسفة غريبة، يا بُنَيَّ. على أي حال، وبغض النظر عن أمنيّتك، ليس لديّ نيةً قط للذهاب إلى ما هو أبعد. والأمر الجوهري تم قوله.

- إذا فرّجتَ الهمّ عن نفسك هكذا؟
- لا بأس!

أدخل (تيوفان) غيتاره في قرابه.

أبدى الفتى المراهق ملاحظة بقوله:

- في النهاية، كان الظهور غير المنتظر لـ (ديهيه) هذا فرصة. لقد قالت لي العُصفُورة إنه لولا ذلك لما كانت لديك الشجاعة لتمير الاعترافات.

- به أو بغيره. يؤخّر المرء الاستحقاق، ويعتقد أنه قادر على إدارة التهرّب، إلى اليوم الذي تمسكنا فيه يدٌ من تلابيبنا وتعود بنا إلى مربع الانطلاق. ولديّ قناعة أكثر فأكثر بأننا لا نتحكّم في حياتنا الخاصة إلا جزئياً.

وسكّت الطبيبُ لمراقبة ابنه بانتباه. ثم قال:

- لو تحدثنا، ذات مرة، قليلاً عنك؟ كيف حالك؟

اجتاح تجهّم واضح عيني الصبي، وقال:

- إنني مرهق.

- مرهق!

- إنني أختنق في كل يوم أكثر. وأنا أذوي. كنتُ أحب كثيراً

أن أكون حرّاً. وأن أنطلق، وأن أتحرّك، وأن أطيّر، وأن أهيم حتى

بلا هدف. ومن نحو آخر، سيكون هذا بلا هدف، نظراً لأنني

لا أعرف شيئاً عما ينتظرني.

ثم مال بجذعه إلى الأمام وأضاف قائلاً وهو يثبّت عينيه في

عيني أبيه:

- ثلاث سنوات، إنها مدة طويلة.

- وما المخرج؟ أنت تعلم جيداً أنني مضطر إلى البقاء هنا،

في (باتموس)، وأنت لا تزال فتياً جداً حتى تنطلق وحيداً تماماً

في العالم. ونحن الاثنان كلُّ منا سجين في الآخر. فأنت أنا، وأنا

أنت. فكيف الخلاص؟

دسّ (تيمور) أصابعه في شعره المنفوش وتنهّد قائلاً:

- لو كان بإمكانني فقط أن أتصوّر حلاً.

غطى ملامحه، وهو ينطق بهذه الكلمات، حزنٌ لا حدود له.

قال (تيوفان):

- تعال، تعال قربي. أنا أعلم أنك تعسّ. وأرى ذلك جيداً.

فأنت لستَ (تيمور) الذي أعرفه. لقد غيرتكَ الكآبة. أنت بعيد.

أنت قريبٌ وبعيد في الوقت نفسه. كما لو أن علاقتي بـ (أنطونيا)

أبعدتكَ عني.

- وأبعدتني عنك. ربما كان هذا صحيحاً قليلاً، أليس كذلك؟

فهي تشغل من الآن حيزاً كبيراً. وهي تدفعني نحو الخروج، من غير أن ترغب في ذلك، وهذا ما لا يزعجني، وأعترف لك بذلك، ولكن الباب أُغلق. والمفتاح ليس مع أحدنا.
- أياً ما كانت علاقتي مع (طونيا)، فأنت تبقى دوماً ابني وأحبك دوماً كثيراً. والحقيقة هي أنني لن أصبر أبداً على فقدانك نهائياً.

رفع (تيمور) وجهه نحو (تيوفان) وقال بجديّة:
- غير أنه سيقع.

نظر الطبيب إلى ساعته فجأة، وقال:
- أفاً لقد تأخرتُ. عليّ أن أذهب.
وأخذ مفتاح دراجته النارية.
سأله (تيمور):

- إلى أين تذهب؟
- لأعلن نبأ طيباً لـ (ديمتري).

* * *

تحت تأثير المفاجأة، ألقى (ديمتري) كأس الـ (أوزو) على أرض المقهى - المطعم فتحطّم. ونادى:
- (سبيروس)! هاتِ كأساً على الفور لـ (تيوفان)، وآخر لي، من فضلك.

ثم صاح هذا اليوناني وهو يمسح ذقنه بطرف كُمّه، قائلاً:
- هذا غير صحيح! هذا مستحيل!
- وهو مع ذلك صحيح. أين المشكلة؟

- سيّد (أناغنوستاكيس) اشترى أرض (سيفاكيس) حقاً؟
- قطعاً. وحسب المتفق عليه، سوف يبيعيها في أسرع وقت.

- وكم دفع؟

- عشرة ملايين (دراخما)⁽³¹⁹⁾ drachmes. أكثر مما كنتُ أتوقَّع.

- عشرة ملايين؟ هذه الأرض لا تساوي أكثر من ثمانية!
يا له من لص!

- اهدأ. وإلا أصابتك أزمة قولون.

- لا تتحدَّث عن السوء! وإذا غيَّر (أناغنوستاكيس) رأيه؟

هزَّ (تيوفان) رأسه، وقال:

- أرى أنك لا تعرف (الباشا). إنه ينتمي إلى فئة من الرجال في طريقها إلى الزوال. فهو يفضِّل أن يموت على أن يخون كلمة أعطائها.

حرَّك (ديمتري) رأسه برفق، وهو مرتبك، ثم قال:

- ومع ذلك تبقى هنالك عقبة، يا (تيو). وهي أنني لا أملك وسائل دفع عشرين بالمئة أكثر من المتوقَّع. ولن أستطيع أبداً أن اشتري منك الأرض.

- تشتري الأرض مني؟

- حسناً.. ألسنت تنوي أن تحتفظ بها؟

- كيف سأفعل ذلك ما دامت الأرض لك؟

وسَّع اليوناني عينيه الدائريتين.

كرَّر (تيوفان) قوله:

- نعم، هي لك. هدية مني.

ضرب (ديمتري) بقبضته الطاولة، وكان على وشك أن يُطيح

(319) الدراخما: هي الوحدة النقدية في اليونان قبل انضمامها إلى منطقة اليورو والاتحاد الأوروبي (المترجم).

بالمقَبَلات mezzes التي كانت عليها، وقال:

- هذا غيرُ واردة! لقد فقدت صوابك. فهل تعتقد أنني، أنا

(ديمترى هاتسيس Hatzís)، سوف أقبل؟

- أرجوك. أنس هذا النوع من الخطاب. أنا أملك هذا المال،

ولا ينفعني في شيء.

- (تيو)!

- توقّف! هل تعلم ماذا قالت لي (أنطونيا) ذات يوم؟ قالت:

في أغلب الأوقات، يفتقر الرجال الكرماء إلى الأموال، وأما من

يحصلون على هذه الأموال فيفتقرون إلى الكرم. وقد أمضيت

حياتي في الأخذ. واليوم حانت ساعة العطاء⁽³²⁰⁾.

دفع اليوناني الطاولة، ونهض، وهو يُشْبِرُ كامرأة شريرة،

ويتحدّث بصوت مرتفع تحت نظر أعين الزبائن المذهولة، ويقول:

- هل تريد نصيحة؟ عليك أن تذهب لاستشارة طبيب.

بسرعة! الآن!

ووضّح قائلاً:

- أنت لا تعرف اليونانيين، يا عزيزي. وأنا يوناني أكثر من

جميع اليونانيين في الـ (أتيك)⁽³²¹⁾ l'Attique. وإذا ما قبلتُ

بعرضك فلن أستطيع معاشرتك. والأسوأ أنني لن أتمكن من

معاشرة نفسي! Katalavénis⁽³²²⁾ مفهوم؟

(320) هنالك حكمة فرنسية حول هذا الموضوع تقول: (يجب أن نعطي، قبل أن نأخذ) il faut donner. avant de prendre (المترجم).

(321) الأتيك: منطقة يونانية حول أثينا، كما أشرنا من قبل، ويبدو أن أهلها أكثر اليونانيين عراقاً في الأصل اليوناني (المترجم).

(322) هذه الكلمة اليونانية بحروفها اللاتينية تعني الكلمة الفرنسية: مفهوم (compris) التي وردت في المتن بعدها (المترجم).

الرجل الذي كان يَنْظُرُ إلى الليل

- اتَّفَقْنَا. أعرض عليك حلاً. سأبيعك أرض (سيفاكيس) بالسعر الذي تفكر فيه.

- ماذا تفعل بالعشرين في المئة التي ستسددها لـ (الباشا)؟

- هذا سهل. لسوف تجعل مني شريكاً لك.

- اتفقنا. خمسون بخمسين.

- هذا غير وارد. وغير نزيه. ثمانون بالمئة لك.

ضرب اليوناني الطاولة مرة أخرى براحة يده، وقال:

- أتريد أن تحقرني أيضاً؟ أوليس لديك إذن قلب؟ لك

سبعون بالمئة مقابل ثلاثين لي. وإلا سأتحلّى عن الأمر، ويمكنك الاحتفاظ بالأرض.

تنفّس (تيوفان) الصُّعداء، وقال:

- اتفقنا. لي سبعون بالمئة مقابل ثلاثين لك. كما تشاء.

- لقد كنتُ دوماً أعرف أنك مجنون، أيها

الـ ⁽³²³⁾giatros (الطبيب)

- أكثر مما تتصوّر، يا صديقي. والآن، أدعك. فـ (أنطونيا)

تنتظرني، وكذلك (اليكسيس) على وجه الخصوص. إنه يوم غطسه.

* * *

كان المرء يرى الموجات البيضاء تجري على سطح البحر، وكان

الماء يضرب الرمل بأموّاج مسطّحة طويلة.

كان هنالك زوجان سِتِّيْنِيَانِ يَسْبَحَانِ غَيْرَ بَعِيدَيْنِ عَنِ

(اليكسيس) الذي كان يلهو مع مجموعة من الرفاق. لم

(323) كلمة يونانية بحروف لاتينية، وتكتب باليونانية (γογιατρο) (المترجم).

يكن الجو بمثل هذا الصفاء، كان لئون بحر (إيجة) شديد الزُّرْقَة. إنه وقتٌ نادرٌ بالنسبة لما بعدَ الظُّهر، فقد كان ذا سكونٍ لا نظير له.

(وصيفُ الأنوارِ يستمر بلا كللٍ)

فوق هذه البلاد البرونزية التي تنبثق منها الآلهة

ولا تزال الآلهة دوماً بلا نهاية

في تقطُّعِ الأمواج ونظرةِ العيون)

من أين جاءته هذه الأبيات؟ وأين قرأها؟

قالت (أنطونيا):

- (تيوفان). علينا أن نتحدَّث.

التفتَ إليها، وكانت المفاجأة بجديَّة صوتها. فمئذ وصولهما،

كانت تحتفظ بهيئة حزينه، رافضة للمرة الأولى النزولَ إلى

الماء.

قال (تيوفان):

- إني أسمعك.

فقالت:

- انتهى كل شيء، سأتوقَّف.

- انتهى؟

- (جيهول)، ركوب الخيل، وكل هذا (السيرك).. سأتوقَّف.

إني أضحك من ذلك. فهذه المغامرة لن تُفضي إلى شيء.

بذل (تيوفان) جهداً للإجابة بصوت هادئ، وقال:

- هذا حقك. لكنني أحب أن أعرف السبب.

- لا شيء. كل شيء ولا شيء. إنني تعبٌ، يا (تيو). وأشكر

لك محاولتك. أشكر لك من أعماق قلبي، ولكنني أجد هذا

العلاج مملاً جداً. فمن أجل تقدم صغير جداً، هنالك ساعات من التمرين. للوصول إلى أي شيء؟ لأصبح فارسةً ماهرة؟ لن أكون كذلك أبداً..

- لم يكن هذا هو الهدف.

- إذا ما هو؟ أن أهرول، أهرول، أن أمشي الهوينى، أن أكتفي بحرث كرم (ديمتري)؟ إنني أتخلى عن ذلك.

وتابعت تقريباً على حافة البكاء تقول:

- لقد حاولت. والله يعلم أنك حاولت.

ثم كررت مراراً قولها:

- أنا تعبٌ يا (تيو).

انتظر (تيوفان) بضع دقائق قبل أن يردّ بقوله:

- اسمحي لي مع ذلك أن أقول إنه أمر مؤسف. فليس (تيو)

الذي يتكلم، وإنما الطبيب. وبهذه الصفة، أرى أن قطع العلاج لن يكون قراراً سليماً.

- علاج؟ أتصف هذه الطقوس بأنها علاج؟ اشرح ذلك إذا

ل (جيهول) واستري ماذا يظنها.

- إن (جيهول)، مثل كل الخيول، لا يتعذب كما نتعذب نحن.

إنه يذهب مباشرة إلى المشكلة، من غير أن يسأل نفسه إن كان

هذا يزعجنا أم لا. ذات يوم، في (فرنسا)، في نادي الفروسية

الذي كنتُ أترددُ عليه، رأيتُ بنتاً صغيرة مصابة بالكزاز⁽³²⁴⁾ أمام

حصان. جاء الحصان نحوها، ووضع أنفه على قلبها، وكان هذا

(324) لا أظن أن الكاتب قصد، هنا، مرض الـ (تيتانوس) *tétanos* المعروف في العربية باسم (الكزاز)، ومن أبرز أعراضه تشنج مؤلم في العضلات، وإنما قصد ظهور ما يشبه ذلك من شدة هلع الفتاة أمام الحصان، حتى أنسها وركعت إليه فزال هذا العرض (الترجم).

كافياً لتنخرط في البكاء وتخطت الحاجز العاطفي الذي كان يشلها. لقد كان ذلك إذن يتعلّق بعلاج.

بقيت (أنطونيا) صامتة، ووجهها غامض. وعندئذ تابع يقول:
- أوه بالتأكيد! إن الفوائد لا تكون جلية. فالأمر ليس
مثلاً يتناول المرء حبة (أسبيرين) لإزالة ألم في الرأس، ولكن،
صدقيني، هنالك عملٌ داخلي يتم إنجازه، في الأعماق، في أغوار
الجسد. ويمكنني أن أوكد لك أن التأثيرات المؤاتية تمتد أكثر من
حبة (الأسبيرين). أرجوك، يا (طونيا). لا تهجره الآن.

- لا! إنني لم أصل إليه. ولن أصل إليه أبداً. إن أحداً في مثل
حالتني لن يتمكن منه.

- أنت تخطئين.

- أثبت ذلك!

أخرج مربعاً من الورق مثنياً أربع ثنيات من حقيبة يده وناوله
للمرأة الشابة، وقال لها:

- اقرئي!

فترددت. فكرر قوله:

- اقرئي. وبعدها، تفعلين ما تشائين.

فضت الورقة. وكان الأمر يتعلّق بمقال مقطوع من صحيفة.

وقد برز العنوان بحروف سمیكة سوداء:

(ليس هارتل.. المأثرة المستحيلة)

الألعاب الأولمبية الصيفية، (ستوكهولم)، 12 حزيران/

يونيو، 1956

- بفضل النتائج القياسية الباهرة للفارسة الدانماركية

(ليس هارتل)، فإن التجربة الفردية للتدريب عرفت لحظة من

السعادة الخالصة. وقد رفعت الفارسة، ذات الخمسة والثلاثين عاماً، يدها عالياً بالميدالية الثانية (الفضية)، مبرهنةً على سيطرة استثنائية. وما كان، في حالة السيِّدة (هارتل)، ولنلقت إليه النظر، يبقى إنجازاً عظيماً.

- لتتذكر أن هذه الفارسة المتألقة قد ولدت سنة 1922، وأنها كانت في سن الثالثة والعشرين ضحية لشلل الأطفال، الذي تركها مشلولة الطرفين السفليين. وبمساعدة مدلكتها الطبية، (إيليزابيت بوديكر) Elisabeth Bodiker، وبعد ثلاث سنوات من إعادة التأهيل المركز على الحصان، توصلت إلى أن تسترد تدريجياً الاستعمال الجزئي لعضلاتها، مع أنها بقيت مشلولة ما تحت الركبتين.

- وعلى الرغم من أنها كانت دوماً في حاجة إلى مساعدة على ركوب الحصان والنزول عنه، فقد كانت في عداد الفارسات الأوليات اللواتي سَعَيْنَ للمشاركة في الألعاب الأولمبية في (هلسنكي) سنة 1952، حيث حصلت على ميدالية فضية لك (دانمارك). واليوم، في (ستوكهولم)، وأمام جمهور مبهور، كررت مآثرتها.

- ولا يسعنا إلا أن نحیی هنا قوة إرادة امرأةٍ سمحت شجاعتهَا وتصميمها، في تاريخها، بإحداث تفكير عميق في فائدة الحصان للعناية الجسدية، وفتح الطريق لتطبيقات علاجية جديدة، والعلاج بركوب الخيل واحد منها⁽³²⁵⁾.

(325) في سنة 1965، صُنِّفَتْ (ليس هارتل)، في (الدانمارك)، بين أفضل عشرة رياضيين في كل الأزمنة، ومنذ سنة 1922، سُجِّلَ اسمُها في (بانثيون) panthéon الشخصيات الإسكندنافية الأكثر شهرة. وقد توفيت في 12 شباط/فبراير من سنة 2009 (المؤلف).

- منذ متى وأنت على علم بذلك؟

- بعد وقتٍ قليلٍ من اللقاء بك. وقد وقعتُ بالمصادفة على

الخبر في صحيفة يومية فرنسية كانت تحصي أكبر المآثر الرياضية النسائية. وفي البداية، لم أُجرِ مطلقاً مقارنة مع حالتك المرضية. ولم أفكر في الأمر إلا في وقتٍ متأخر. هل تعرفين الدكتور (باباداكييس)؟

أجابت برأسها: لا.

- لسوف أقدمه إليك. إنه رجل عظيم. ومنذ بضعة أسابيع،

حدثته عنك وعن (هارتل). وكنتُ أريد رأيه. فإن كان هذا العلاج أظهر فاعليته في حالة هذه الفارسة، فلم لا يكون له تأثير فيك؟ وقد أيدني. ويجب أن تعلمي أن (باباداكييس) هو نسيج وحده. وطبيب غيره ربما كان سيهزأ بي.

وخلص إلى القول:

- ها قد عرفت كل شيء.

أعادت الفتاة الشابة المقال إليه، قائلة:

- عليّ أن أفكر.. و..

ودوت صرخة، صرخة حادة، تلتها صرخاتٌ صدئى لها، فقطعت

(انطونيا) جملتها. ووثب (تيوفان) وتركزت نظرتُه على الزوجين

الستينيين. وظن أن أحدهما قد أصيب بوعكة. ولكن بسرعة

فائقة، أدرك أن الأمر لا يتعلق بالزوجين.

كان هنالك رجلٌ يسحب جسداً نحو الشاطئ.

إنه جسد (أليكسيس).

(22)

كان الصبِيُّ يَلْهَثُ إلى حدِّ الاختناق. وكانت رثاه ترتفعان بغير
انتظام، بحثاً عن نَفْثَةٍ مستبعدة. وكانت حَدَقَتاه منقبضتين،
وعيناه المذعورتان تدورانُ في حَجْرَيْهِمَا باختلاج. وكانت شفثاه،
وكذلك أطرافُ قدميه وبيديه، بلون أزرق ضاربٍ إلى البنفسجِي.
شرَع الرجل الذي أخرجَه للتو من الماء في شرحٍ محمومٍ،
قائلاً:

- لقد كان يفرِّق. وعندئذ..

لم يكن (تيوفان) يُصفي له.

كان يفحص، وهو جاثٍ على ركبتيه، نبضه. فوجده متسارعاً،

وغير منتظم بالمرّة.

كان (ميخاليس)، صديق (أليكسيس)، قد لجأ إلى حضن أمه

وانخرط في بكاء حارّ.

اقترح أحدهم قائلاً:

- يجب استدعاء طبيب.

قال (تيوفان):

- أنا طبيب.

وصفَع خدَّ (أليكسيس) صفعة خفيفة، وقال:

- هل أنت بخير، أيها الصغير؟

فخرجت كلمة (نعم) ضعيفة من بين شفثيه. فقال له
(تيوفان):

- لقد ظللت ترغب في المراهنة على (مايول)، على ما أظن.
قال الصبي وهو يلهث:

- لقد حطمت الرقم القياسي بدقيقتين وثلاث ثوانٍ.

- نعم. مع نتيجة مؤسفة. تنفّسُ بهدوء. واسترخ.

وأمر الطبيب حلقة الفضوليين أن يبتعدوا، وأخذ
(اليكسيس) بين ذراعيه وأوصله إلى (أنطونيا). وبادر إلى
طمأننتها قائلاً:

- أهدئي، كلُّ شيء على ما يُرام. إنه بلا شك مرهق قليلاً.

ومدّد الصبيّ على إحدى الحشايا، وجسّ نبضه، ولاحظ أن
مضاعفة الخفقة الثانية التي اكتشفها عند طرف الشاطئ قد
زالت. وسأل الصبيّ:

- تشعر بتحسُّن؟

- بؤ.. ليس الأمر مخيفاً.

- هل رأيت ما الذي يحدث عندما تدفع الآلة أبعد من اللازم؟

دوّت صفّارة مركب. لقد دخلت سفينة الـ (بلو ستار) المرسى.

فكّر الطبيب بضع لحظات. ورأى أن الازرقاق المشاهد لا يمكن
إهمالُه. فهل يكون تقطعاً في تدفق الدم بالقلب؟

وأعلن وهو ينهض قوله:

- لسوف أخذه إلى المستوصف.

قالت (أنطونيا) بذعر:

- لماذا؟ الوضع خطير إذا؟

- للاطمئنان. أودّ أن أجري فحوصاً إضافية. بقصد
الاطمئنان.

- سأرافقك.

أراد أن يرفض، ولكنها قاطعته فجأة بقولها:

- لا تحاول!

* * *

لم يكن (تيوفان) في حاجة إلى أن يفحص مرتين نتائج
تخطيط القلب: فهناك انحراف في محور الـ (QRS)⁽³²⁶⁾ نحو
اليمين، وكتلة في الفرع الأيمن، وتضخمٌ بطيني أيمن.

على أي لعبة (سادية)⁽³²⁷⁾ sadique ينصرف الأمر؟

سحب (تيوفان) الأقطاب الكهربائية الموضوعة على صدر
(اليكسيس) واحدة واحدة، وأمر الصبيّ بأن يرتدي ثيابه.

- سيكون الأمر بخير. أنت قوي. انتظرنا في الخارج. لن
نتأخر عليك.

سألت (أنطونيا) إثر خروج الطفل:

- ما التشخيص؟

- أفضل ألا أتكلّم. فقد طلبتُ صورةً شعاعية للرئتين.

وسأهتمّ أنا نفسي بصورة الرنين المغناطيسي للقلب.

- ومع ذلك لديك فكرة، يا (تيو). فأرجوك لا تحاول أن تراعييني.

(326) مركّب الـ (QRS) هو اسم المقطع المكوّن من ثلاث موجات في رسم تخطيط القلب، يطلق حرف (Q) على الموجة الأولى السفلية، والحرف (R) على الموجة الوسطى الصاعدة، والحرف (S) على الموجة السفلية التالية (المترجم).

(327) السادية نسبة إلى النزعة السادية (sadisme) التي تعني التلذذُ بتعذيب الآخرين والاستمتاع برؤية آلامهم، وهي نسبة إلى الكاتب الفرنسي (مركيز دو ساد) Marquis de Sade (1740 - 1814) الذي عاش حياةً فاضحة قادته إلى السجن، وقد ترك مجموعة كتب تمثلُ بذكر ممارسة الجنس الفنيف والتلذذ به، ولذا نُسبت إليه هذه النزعة (المترجم).

مشى (تيوفان) نحو النافذة، وترك نظرتَه تنطلق نحو الأفق.
- (تيو)؟

أعلن من غير أن يلتفت قائلاً:

- إنها حالة اتّصال أُذينيّ (CIA)⁽³²⁸⁾.

- وماذا يعني هذا بالنسبة لعموم الناس؟

عاد نحو الفتاة الشابة، وقال:

- لدينا في القلب أُذَيْنَان. وهما منفصلان بحاجز. وفي حالة التشوّه الخُلقيّ، يكون هذا الحاجز مثقوباً، والدم الغني بالأوكسجين يتسرّب من الجهة اليسرى للقلب نحو اليمين، ويذهب نحو الرئتين.

- والنتائج؟

- حملٌ زائد كبير على عمل الجانب الأيمن من القلب، نظراً لأنه يتضايق من إدارة كمية أكبر من الدم. ومن هنا يأتي لهاثُ (اليكسيس) خلال جلسات الغطس.

- إذا قلبه في حالة سيئة.

- ليس في حالة سيئة. لا. ولكنه يتعب عند بذل جهد أكثر مما ينبغي. وأبادر بأن أقول لك، لا لطمانتك، إن الأمر لا يتعلّق بمرض خطير وإن التقدير الأولي غير مُلزم. حتى إنني أضيف أن الأمر إن كان يتعلّق بالـ (اتّصال الأذينيّ) (CIA)، فسيكون (اليكسيس) محظوظاً جداً. فنادرًا ما يُكتشَف هذا التشوّه عند طفل. ويمكن أن يعيش (اليكسيس) هكذا حتى سن الأربعين، إلى أن تظهر الاختلالات الأولى: اضطرابات في دقات القلب، وضعف فيه..

(328) CIA: اختصار للكلمات (Communication Inter Auriculaire) (المترجم).

فحصت (أنطونيا) بفضول وجه الطبيب، وقالت:

- قل لي، يا (تيو). ألم يكن الرجل الشاب، الذي أجريت له

العملية، قبل ثلاث سنوات، يعاني أيضاً المشكلة نفسها؟

فقال:

- الحالة نفسها، بفاارق ثلاث سنوات؟ أليس ذلك غريباً؟

وتهرب من السؤال قائلاً:

- هيا نلحق بـ (أليكسيس).

وعندما مدَّ (تيوفان) يده لمساعدتها على النهوض، اكتشفت

فيها اضطراباً خفيفاً.

* * *

صورة الصدر الشعاعية أظهرت ظلَّ القلب موسعاً، قياساً على توسُّع الأذنين الأيمن والبُطين الأيمن، وأظهرت توسُّعاً في الشرايين الرئوية وتمتدداً رئوياً.

وبخصوص صورة الرنين المغناطيسي للقلب، فقد أُكِّدَتْ توسُّع التجويف الأيمن، وسمحت برؤية الفتحة في وسط الحاجز بوضوح، وهو الذي يفصل عادة بين الأذنين. لقد بانَّت الفتحة أوسع بكثير مما كان (تيوفان) يتصوَّر. ولم تترك اللوحة أي شك في ضرورة إجراء تصحيح جِراحيّ.

أشعل سيكارة، ونفث الدخان في اتجاه الباب الذي كانت (أنطونيا) وأخوها ينتظران خلفه.

إن توثُر الساعات الأخيرة كان قد غير ملامحه، وكان يشعر أن التعب قد أنهكه.

(لينكولن) سنة 1846، (كينيدي) سنة 1946. خنفساء (يونغ). (مورغان روبرتسون) وروايته (إس. إس. تيتان). واليوم 3

حزيران/يونيو سنة 1986: و(اليكسيس). يأتي بعد ثلاث سنوات يوماً بيوم بعد مأساة 3 حزيران/يونيو سنة 1983.

هل هي مصادفات؟

إن ربات الانتقام، لا يعرفن سوى قانونهن الخاص، ويعاقبن مَنْ يخرقهن.

إن هذه الشرور كانت تلاحقه على الأثر بوضوح. وإذا ما كان (تيوفان)، في لحظة سذاجة، يتصور أن بالإمكان أن يتخلص منها، فإنها تأتي لتنبهه على ذكراه. وبأي طريقة!

إن ظهرك، يا أبتى، هذه المرة، إلى الحائط. No way out⁽³²⁹⁾. كما يقول الإنكليز.

وهذا بالتأكيد ما كان (تيمور) قد ردده، وهو مبتهج.

خرج (تيوفان) من الغرفة، ولقي (أنطونيا) في خارج المستوصف، وهي تثرثر مع أخيها. فأعلن بصوت هادئ:
- لقد تأكد الأمر. إنه يتعلق بـ (CIA).

ثم نقش شعر (اليكسيس)، وقال:

- حسناً، يا سيد (مايول) لسوف يترتب علينا أن نصلح قلبك الصغير. فاطمئن، إنها مداخله بسيطة تماماً.

وكان السؤال الأول للصبي:

- هل ستحدث الماء؟

- لا. إن بطلاً مثلك لا يمكن أن يتألم. ولن يكون شيء من هذا. صدقني.

- وبعدهذا؟ هل سيكون بإمكانني أن أستمر في الغطس؟

(329) هذا التعبير الإنكليزي يعني: (لا مهرب) أو (لا سبيل إلى التهرب)، ويريد به أن على أبيه هذه المرة أن يواجه الأمر (المترجم).

- طبعاً، وأحسن! هذه هي المشكلة التي كانت تكبحك حتى الآن وتسبب لك اللهاث. وعندما تُشفي، ستحقق نتائج أكبر أعدك.

أضاعت ابتسامة عريضة وجه (اليكسيس)، وقال:

- رائع!

وأشهد (أنطونيا) على ذلك، قائلاً:

- سمعت؟ هذا ممتاز، أليس كذلك؟

وافقت بهدوء، ولكن المرء كان يشعر أنها في مكان آخر.

قالت له:

- حان وقت العودة إلى النزل. فأمننا تكون الآن قلقة⁽³³⁰⁾.

ثم ركبوا في سيارة ال (فيات).

كان الأصيل يمتد على كل القسم الشرقي من البحر، مخيماً على جزيرتي (ليبيسي) و(ماراثي) الصغيرتين، وأما من الجهة المقابلة، فقد كان بحر (إيجة) يدفع أمواجاً من نار، وكانت السماء تمتلئ بسحب ذهبية⁽³³¹⁾.

* * *

سكبت (بيبا) قليلاً من ال (أوزو) وشربته جرعة واحدة، وقالت:

- لا شيء مثل هذا لغسل الهموم!

فقال (الباشا):

(330) للتعبير عن القلق على غائب يستعمل الفرنسيون كناية غريبة هي (سيصير الدم حبراً) (se faire le sang d'encre) كما ورد هنا في الأصل الفرنسي مكان عبارتنا التي أثبتناها في المتن، وفي الكنايات العامية في بعض اللهجات العربية يقال: (دمه احترق) أو (دمه غلي) أي يَفلي، إلخ (المترجم).

(331) الأمواج من انعكاس أشعة شمس الغروب وحركة تلك الأمواج، والسحب من تخلل تلك الأشعة فيها (المترجم).

- Kouklamou⁽³³²⁾، يا دميتي، إنني لا أرى لماذا تضعين نفسك في هذه الحالة. صديقنا آت، ومرة أخرى، أكرّر لك أن العملية لا تشكّل أي خطر. إنها بسيطة، إنها..
- إنني لستُ غبية ولا غير مكترثة، يا (أخيل)! ولقد فهمتُ كل شروح (تيوفان). أنت فقط لا تلمّني إن لم أتوقّف إلا عند شيء وحيد: هنالك شخص لا أعرفه سوف يفتح صدر طفلي ويجعل قلبه الصغير عارياً. إن قلبه سوف يتوقّف عن الخفقان خلال عدة ساعات. وسيكون (أليكسيس)، خلال عدة ساعات، مثل ميّت. ربما كان هذا الأمر تافهاً عند كل الناس، ولكنه ليس كذلك عند الأم.

تناولت (أنطونيا) يد (بيبا) وضغطت عليها بقوة، وقالت:

- بعد هذه المداخلة فقط سيستردّ (أليكسيس) عافيته. ولن يكون هذا الحدّث سوى ذكرى سيئة. والشكرُ لله (ونظرتُ إلى الطبيب) أنه وضع (تيو) في طريقنا. وكان يمكن لولاه أن يموت (أليكسيس).

قال (تيوفان):

- إنه لن يموت من (الاتصال الأذيني). في الواقع، ومن حيث الجوهر، إن الاختلاطات الملازمة لهذا المرض هي التي تطرح مشكلة. ومهما يكن، أريد أيضاً أن أطمئنك. لقد أجريتُ مكالمة هاتفية مع الدكتور (باباداكييس) عندما كنتُ في المستوصف، وعرضتُ عليه الحالة. وهو يعرف أناساً كثيرين. وسيجد لك جراح قلبٍ ممتازاً.

(332) سبق لنا التعليق على هذه الكلمة، وهي يونانية بحروف لاتينية، بمعنى (لميتي) أو (دميتي) التي تلتها تماماً في الأصل الفرنسي، وهي بالحروف اليونانية (κούκλαμου) (الترجم).

تجرات (بيبا) على السؤال باستحياء:

- وهل تعتقد أن مثله يوجد في اليونان؟ ليس الأفضل أن

نأخذ (الليكسيس) إلى (فرنسا) أو (إنكلترا)؟

ثار (الباشا) وقال:

- قولي أيضاً إننا بدؤنا⁽³³³⁾ أي شتيمه هذه! بالتأكيد يوجد

في هذه البلاد جراحون لامعون.

قال (تيوفان):

- (الباشا) يقول الحق. وإن مداخلة كهذه لا يمكن أن تجرى

هنا، في (باتموس). فهي تحتاج إلى تجهيزات ضخمة لا يملكها

المستوصف.

ثم ألقى نظرة إلى ساعته، وقال:

- أعتقد أننا قد استعرضنا المسألة. وسوف أذهب إلى النوم

وانصحكم جميعاً أن تفعلوا ذلك أيضاً. وغداً نتدبر الأمر.

أوقفته (أنطونيا) قائلة:

- امنحني بضع دقائق أخرى.

وتوكلت على عكازيها، قائلة:

- لنذهب إلى الشرفة، موافق؟

فوافق.

كان الليل ندياً، وعبقاً بروائح (الزعرتر) و(الغار).

جلست (أنطونيا) على مقعد، وأسندت عكازيها إلى الجدار

(333) واضح من عبارة (الباشا) هذه أنه يستخف بالبدو الذين يغلب على ذهن أن المقصود بهم هنا هم بدو مصر التي عاش فيها معظم حياته، وعلقت صورتهم في ذهنه، وهو يجهل أن لهم طيهم الخاص بهم، كما أن العيش في الصحراء ينقي أجسادهم من علال كثيرة، فتكون أصح من أجساد أهل الريف، وأهل الريف أجسادهم أصح من أهل المدن، نظراً لموامل الشمس والهواء النقي والغذاء النظيف من التلوث على الأقل (المترجم).

الصغير الذي كان يحيط بالشرفة. قالت:

- لماذا البحث عن جراح، بينما لدينا واحد، هنا، أمامنا؟ وهو الأبرع.

- لأنه يجب البحث عن جراح.

- يمكنك أن تجري العملية لـ (اليكسيس). أنت تعرفها، اليس كذلك؟ وأنت تستطيعها.

- ولكنني لن أفعل ذلك.

قالت مترددة:

- بسبب.. المداخلة الأخيرة سيئة النتيجة؟

- هذا من بين أسباب أخرى. عليّ أن أعود إلى البيت. فأنا مرهق.

- لا، يا (تيو) انتظرا لا تتركني على حافة الفراغ.

- عن أي فراغ تتكلمين؟ من غير المجدي أن تلحني. لن أجري العملية لـ (اليكسيس).

- لم تكن عمليتك (المخففة) جريمة! لقد كانت سوء حظ، وخطأً أتوسّل إليك أن تجريها. اقلب الصفحة. عليك أن تنهي بها أحوالك النفسية. وأنت مدين لنا بذلك.

تغيّر وجه (تيوفان) بشدة. ومن نحو آخر، لم يكن هذا وجهه مطلقاً. إنه لم يكن (تيوفان دبّانه).

تقدّم خطوة نحو الفتاة الشابة، وأمسكها من كتفيها، وقال:

- اسمعيني جيداً، يا (انطونيا). أنا لا أدين بشيء. لا لك ولا لأحد. وإنما يتعلّق الأمر بي. وبحياتي. وما دام لن يكون هناك نعث بمكانين، فسأبقى أنا معنياً بما تسمّينه (أحوالي النفسية).

- لا لا لا يمكنك الاستمرار في الهروب من الواقع. ماذا ترجو؟
عقاباً؟

ضحك باستهزاء، وقال:

- فلتأخذني رباتُ الانتقام.

- وأنت الذي يعطيني دروساً في الشجاعة؟ أنت، يا (تيو)؟
(مدام هارتل) ومآثرها! كلام فارغ! أين الرجل الذي كان يحثني
على تجاوز الذات؟ وكيف تريدني أن أستمِر في تصديقك إذا
كنتَ أنت نفسك لا تشبه هذا الذي تدعو إليه؟
فشدَّ قائلًا:

- أنا من أنا.

- وهذا الذي هو أنت له اسم واحد.

همَّ بخطوة نحو المنزل. فتابعت:

- الجبن..

فدار إلى الوراء، وقال:

- الجبن؟

في زاوية من الشرفة (عند أنطونيا))، كان (تيوفان) غارقاً
في العتمة، فرأى خيال (تيمور) الأثيري يتقدم، وقال لنفسه:
أينما كنا، يوجد سُلْمٌ غير مرئي، وعلى الأقل قد يكون نافذة
مفتوحة في الليل.

قال (تيمور):

- توقّف، يا أبتى.

كان الفتى المراهق يرفع يده على سبيل التوسّل.

واستأنف قوله بصوت أجش:

- لا يمكنك أن تستمر هكذا. فكّر فيّ. إنني تعبٌ جداً،

يا أبتى. حرّزنى. أتوسّل إليك. حرّزنى منك.

فقال (تيو) متلعثمًا:

- أنا أحبك يا بني.

- إذا، تحرّك! تصرف! تخلّص!

وذاب بلمحة واحدة كل ما كان قد بنى عليه مقاومته. وهجم عليه الواقع، مثل طوفان البرد الذي يدمر الزروع والأزهار. إن الظلمات التي لا تُخترق، والتي سترت عنه كل السبل، قد أعمته، وابتلعت منذ ثلاث سنوات وبلا رحمة كل صرخات الضيق التي أطلقها، تبددت الظلمات. وعندئذ أعلن بصوت هادئ وبشكل مدهش، وهو يمد يده نحو الفراغ، قوله:

- إنه هنالك. إنه هنالك، مريضى.

وجّهت (أنطونيا) نظرها، وهي مرتبكة، إلى الاتجاه نفسه الذي يشير إليه، ولكنها لم تجد سوى الليل المرصع بالنجوم وفوانيس الصيادين التي كانت تتراقص على سطح البحر.

وقال مرة أخرى:

- إنه هنالك، مريضى.

فصاحت:

- توقّف! عمّن تتحدّث؟

- (تيمور). (تيمور)، ابني. قُتلَ بيدى، في 3 حزيران/يونيو

سنة 1983.

(23)

وعندما استيقظت، كانت لا تزال بجانبه. كانا قد ناما،
مندمجين، وكان حياتهما تتعلّق بهذه المعانقة.
وكان (تيوفان) لا يزال نائماً.
انفصلت عنه بهدوء ولاحظته.

لا شيء من الطمأنينة على وجه الطبيب. فهو يحافظ على
شفّتين متراصّتين، والجبين متغضّب. لقد كان يغط في النوم،
ولكن من غير سَكِينَة.

(تيمور). (تيمور)، ابني. قُتِلَ بيديّ، في 3 حزيران/يونيو سنة
1983.

عندما أعلن هذا الاعتراف، اعتقدت على الفور أن خنجراً
انغرس في قلبها. فكيف يمكنها أن تتصوّر مثل هذه المأساة؟
وكيف كان بإمكان رجل أن يعيش طيلة ثلاث سنوات مع هذه
الذكرى؟ وهو مسكون بشبح. فليس في المنطق أن الأطفال
يسبقون آباءهم إلى الموت. ويبقى هذا الموت أسوأ من كل الجراح
التي تفرضها الحياة، وأقساها، وأكثرها ترويعاً. طفل يمضي،
يودي به المرض، وها هي من قبل تجربة لعينة. ولكن عندما يكون
الأب - الأم مسؤولاً عن الوفاة، فإن المسألة لا تتعلّق بتجربة،

وإنما بلعنة.. لعنة أبدية.

ومن الآن، وفي نظر (أنطونيا)، هنالك نتيجة فرضت نفسها: تسجيل الكلمة الفصل، ووضع حد لنفخة البوق البشعة التي أطلقتها شريرات ربات الانتقام. كان (تيوفان) قد مات في الوقت الذي مات فيه (تيمور). وكان على (تيوفان)، الآن، أن يعود إلى الحياة وأن يمضي (تيمور) بسلام. حُرّاً. متحرراً من الأغلال. فتح الطبيب عينيه، وجفناه يخفقان. كانت كلماته الأولى قوله:

- (باباداكيس). يجب أن أدعوه.

ووثب خارج السرير وانطلق نحو الهاتف.

ومن الحديث المتبادل بين الطبيبين، لم تسمع (أنطونيا) سوى نَتْف.

أعلن (تيوفان)، عندما عاد إلى غرفة النوم، قوله:

- هذا حسنٌ. عشر (باباداكيس) على جراح. وبيدو، حسب أقاويل الجميع، أنه ممتاز. حظ لا يمكن التقليل من شأنه: لقد مارس أكثر من مرة هذا النوع من المداخلات.

أومات الفتاة الشابة برأسها، وهي صامته.

أضاف (تيوفان) قوله:

- سأصنع قهوة.

على (تيوفان) أن يعود إلى الحياة وأن يمضي (تيمور) بسلام.

كيف أقنعها بذلك؟ أين يجد الكلمات؟

ألقت نظرة احتقار باتجاه عكازتيها، وتملكتها رغبة مفاجئة في أن تلقي بهما إلى الطرف الآخر من الغرفة. وكانت تشعر أنها مجردة تماماً من السلاح، وعاجزة، وغير نافعة بالمرّة.

عاد (تيوفان) ومعه صينية صغيرة وضعها على فخذي الفتاة الشابة: قهوة، وبيض بسكويتات باللوز، والـ koulóurakia⁽³³⁴⁾، التي كانت مولعةً بها.

قالت:

- هذا لطف منك. إنك تحتفظ بها دوماً، فيما أرى.

- دوماً.

وقالت بصوت خفيض:

- أنت لم تحقد عليّ بالأمس؟ بسبب تلك الكلمة؟

- كلمة (الجبن)؟ لا. لقد ارتحُتُ. كان عليّ أن أفتح الخراج.

- لم أكن أتصور ذلك. لقد كنتُ بعيدة جداً عن الحقيقة.

- لن نتحدّث عن ذلك أكثر. لنقلب الصفحة.

شربتُ رشفة من القهوة، وقالت:

- لقد قُلبتِ الصفحة. ولكن الكتاب ما يزال موجوداً. وأنت

تدركه، أليس كذلك؟

يبدو أنه لم يلتقط الإشارة، وتابعت قولها:

- ما ينقص هو الكلمة الفُضْل، يا (تيو). وما دمتُ لن تكتبها،

فسوف يلاحقنا التاريخ.

اجتاح بريقٌ مُكدّرٌ عيني الطبيب، وقال:

- إنني أرى إلى أين تريدان الوصول من ذلك، يا (طونيا).

لا أستطيع. إن ذلك فوق قدراتي. إن ما تطلبين مني فوق طاقتي.

لم تعلق. وقالت ببساطة:

- (لِيس هارتل).

(334) كلمة يونانية بالحروف اللاتينية، وتدلّ على نوع من المعمول يشبه (الغريبة) تقريباً عندنا (المترجم).

- أنا لستُ (لِيس هارتل).
 - أنت (تيوفان دبانِه). رجل شهيم.
 - لقد كنت كذلك. ولست الآن بشيء.
 - لا، لا يصبح المرء «لا شيء»، بين عشية وضحاها. ولا تتحوّل
 موهبةً من الله دخاناً. إنها تبقى فيك. انظر. انظر. انظر يدَيْك. إن
 ساقِي مبتورتان. ولا تزال يداك حيتين.
 تشدّد صوتُ (أنطونيا)، وهي تقول:
 - ماذا ستفعل إذا ما وقعتُ غداً، أو يوماً ما، عن الحصان؟ قُلْ
 لي. وما الشيء الأول الذي تنصحنني به؟
 - العودة إلى الركوب فوراً.
 - بالتأكيد. من أجل نسيان الحادث وعدم الاستمرار على
 الفضل.

- إن موت ابني لم يكن «حادثاً».
 - أنت لن تعرفِ قَدْرَ إجابتي: لقد كان حادثاً.
 - (طونيا)!
 زَمَتْ (أنطونيا) شفيتها.
 وعبرَ النوافذ المفتوحة، كانت سماءُ ذات زُرْقَةٍ رائعة تتدفّق
 داخل الغرفة.
 قالتُ:

- أمس، على شاطئ (سابسيلا)، قلتُ لي: «أرجوك، يا
 (طونيا). لا تغادري. ليس الآن». والآن، أنا أطلب إليك اليوم
 الشيءَ نفسَه: لا تغادري.
 - يا إلهي! ولكن لماذا؟ لماذا هذا الإلحاح؟
 - حتى لا تفقدني.

نظر إليها بدهشة، وقال:

- هل ستتركيني؟

- أبداً.

- إذا؟

- إذا، إذا واصلت التهرّب، فلن نكون متساويين. فعندما أعود لأركب (جيهول) - ولسوف أعود إلى ركوبه - فإن الخوف والشك سوف يظهران في اللحظات الأولى، نظراً لأنك ستُعديني بهما. اضطرب (تيوفان)، وقال:
- أحتاج إلى التنفّس.

* * *

خرج (تيوفان) من البيت وجلس على طرف الطريق. فرأى، في الطرف الأقصى، ساعي البريد (ستافروس)، الذي كان ينطلق، راكباً على دراجته.
تملّكت (تيوفان) رغبةً لا تُقهر في أن يسأله إن كان لديه بريد له، كما كان يسأل آلياً في الزمن الذي كان يفعل فيه ذلك، في حين هو يتهمّم بأن لا بأس من معرفته أن ذلك سيكون أمراً جميلاً أم لا، يعني أن ينتظر رسائل من شخص، نظراً لأن أحداً ليس لديه أدنى فكرة عن المكان الذي يعيش فيه.
- هذه المرة، يا أبتى، أعتقد أن ظهرك إلى الحائط.

ثم يسمع (تيمور) يأتي.

- نعم، يا عجوزي، أنا مدركٌ لذلك.

- يجب أن أذكّر أن (أنطونيا) ماهرة بطريفة غير مألوفة. وهذا مدهش. إن المرء يتعلّم كل يوم. والآن؟ إن ما تطلبه مني فوق طاقة البشر.

- لقد قالت: «على (تيوفان) أن يعود إلى الحياة وأن يمضي (تيمور) بسلام».

تفرّس (تيوفان) في وجه ابنه بذهول، وقال:

- من أين جئت بهذا؟ إنها لم تقل مثل هذه الكلمات أبداً.

- لا، ولكنها فكّرتُ فيها. وأنت تعلم تماماً أنني من سجني أسمع كل شيء، وأن شيئاً لا يفوتني. على (تيوفان) أن يعود إلى الحياة وأن يمضي (تيمور) بسلام. هذه هي كلماتها.

وضع الطبيب وجهه بين يديه، وقال:

- لقد ضعفتُ، يا (تيمور)، فساعدني.

- ما دمتَ قد أذنتَ لي، فأني أقترح عليك ما يلي: تخلّص من ذكرياتك، فإن الذكريات ساعات جدارية متوقّفة. وقد حان الوقت لتتقدّم لك ساعة حقيقية. ساعة تعمل. في اليوم الذي تركتَ فيه الدكتور (باباداكيس)، ألقى إليك بملاحظة. هل تذكرها؟
أشار (تيوفان) بـ (لا).

- لقد بينَ لك قائلاً: «اقرأ هذه الجمل في كل مساء. ولكن لا شيء يضطرك إلى ذلك». وقد دسنت الورقة في الجيب الداخلي لسترتك الكتّانية.

- أنا لا أذكر ذلك.

- ومع ذلك..

- ماذا تقول هذه الورقة؟

- أنت وحدك الذي ينبغي أن تذهب لاستردادها. وهي موجودة دوماً في المكان نفسه.

- قل لي..!

كان (تيمور) قد اختفى.

(24)

إنه لم يكن يَغْرَقُ .
وهو لا يتذكَّرُ أنه عرق قطًّا، لا بسبب الجهد الفيزيائي،
ولا تحت تأثير القلق .
ولم يكن قد عرق قطًّا .
واليوم أيضاً، لم تترقرق قطرة واحدة من العرق على
جبينه .

ويمهارة مُطلقة، كانت أصابعه قد أنجزت الإجراءات التي
كانت تتيح لقلب (اليكسيس) الصغير، منذ توقُّفه، أن يخفُق
ثانية .

وخلفه، كان (تيوفان) يشعر بالِمُضْحَعة النابضة التي كانت
تدفع في الجسم حجم دمه بدلاً من عمل القلب الخامد .
اتجهت نظرة (تيوفان) للحظة قصيرة نحو وجه
(اليكسيس)، مدركاً مع ذلك أنه لن يراه، لأنه مستتر بقنطرة
صغيرة يقف خلفها خبير التخدير .

لقد فكَّر في هذا الجسد الرقيق الذي كان يَسْرَحُ في مكان
آخر، حياً، ولكنه افتراضياً محروم من الحياة، إن هذا معجزة
الطب والتقنية التي تجمَّد كائناً على حدود العدم .

مدً (تيوفان) راحةً يده نحو مناولة الأدوات التي وضعت فيها حامل الإبرة.

لقد تم الاقتراب من المرحلة النهائية. وتحت النور الأبيض للمصباح المانع للظل، ثقب (تيوفان) الأبر من أجل إفراغ بقايا الهواء التي كان يحتوي عليها، وراقب الموجات الأولى من الدم التي كانت تتصبب في تجاويف القلب. وعندما امتلأ القلب تماماً، أعطى إشارة للجراح الثاني.

وبصدمة كهربائية صغيرة شرع القلب في الخفقان إزاء الملقط. باستحياء أولاً، وبنوع من التعتة العضلية، ثم بانتظام. الأمر عادي. لم تكن فتحة التطهير قد خيَّطت بعد.

وبعد نحو ثلاثين ثانية، وقد تأكد (تيوفان) أن القلب قد استأنف الخفقان الذاتي، أمر مناولة الأدوات قائلاً:

0/4 - الخيط

وكانت قد استبقت طلبه.

كان القفص الصدري مقسوماً نصفين، وقد ألقى (تيوفان) نظرة كاملة على مجال العملية، ثم قال:

- نجحنا!

لم تكن هنالك نبرة انتصار. وإنما فقط صيحة ارتياح.

اقترح مساعده قوله:

- هل تريد أن أغلق؟

- لا. أنا الذي سيقوم بذلك.

الرجلُ الذي كان يَنْظُرُ إلى الليل

ولما كان يشعر أنه دوماً أيضاً سيبدأ نفسه، فقد نُقِذَ المرحلة النهائية وقرَّرَ وهو يجمع قسمي القصص الصدري أنه سيثبتُهما بخيط فولاذي.

كان الفريق الجراحي، حول (تيوفان)، يحافظ على صمتٍ شبه ديني.

وعندما نزع، أخيراً، قناعه، سمع صوتاً يتمتم بالقول:
- بطل!

بحث بنظره عن الذي أو التي عبَّرتُ عما في نفسها، فاكتشف (تيمور) واقفاً، وهو متكئاً، في زاوية من غرفة العمليات.

كرَّرَ الفتى المراهق قوله:

- أنت بطل، يا أبتى!

فذهب (تيمور) نحوه، وقال:

- شكراً. كانت عملية جميلة، كما اعتقد.

- في منتهى الإتيقان! سيتمكن (الليكسيس) أن يحطّم كل

الأرقام القياسية التي يتمناها.

كان الأب والابن ينظر كلُّ منهما إلى الآخر بصمت، ثم قال (تيوفان):

- سيفادر أحدنا الآخر هنا، على ما أظن؟

- نعم.

- ولكننا، سنلتقي، يوماً ما، وفي مكان آخر، أليس

كذلك؟

- يوماً ما، وفي مكان آخر. بالتأكيد.

- إِذَا كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ.

- أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَجَدْتَ كَلِمَةَ (بَابَادَاكِيْس)؟

أَكَّدَ (تِيُوفَان)، قَائِلاً:

- نَعَمْ. فِي سِتْرَةِ الْكُتَّانِ. عِنْدَكَ حَقٌّ. مَرَّةً أُخْرَى أَيْضاً. وَتَلَا

مَا فِيهَا وَهُوَ يَبْتَسِمُ:

(اعْتِقَادَاتُكُمْ تَصْبِحُ أَفْكَارُكُمْ

وَأَفْكَارُكُمْ تَصْبِحُ كَلِمَاتِكُمْ

وَكَلِمَاتُكُمْ تَصْبِحُ أَفْعَالُكُمْ

وَأَفْعَالُكُمْ تَصْبِحُ عَادَاتِكُمْ

وَعَادَاتُكُمْ تَصْبِحُ قِيَمُكُمْ

وَقِيَمُكُمْ تَصْبِحُ قَدْرُكُمْ).

تَشْكُرَات

- الشُّكْرُ الْجَزِيلُ لـ (تِيِيرِي جُولِيَان) Thierry

Jullien طبيب القلب والصديق.

- والى (باتريس دِرفَانِيَان) Patrice Dervanian جِرَّاح

القلب الشهير الذي تكرم وفتح لي قليلاً أبواب القلب.

- والى الدكتور (كريستيان لودو) Christian

Ledoux الذي أولى عنايته لـ (اليكسيس)، و(ديمتري)،

و(أنطونيا).

- والى (إيزابيل شوفرييه) Isabelle Chevrier الطبيبة

النفسانية - والمعالجة بركوب الخيل، التي تمكنت بفضلها،

وطيلة ساعات، أن اكتشف العالم السحري للعلاج بركوب

الخيل.

الرجلُ الذي كان ينظرُ إلى الليل

- وإلى (رندا بركات) Randa Barakat الفارسة الماهرة،
التي «كان الحصان دائماً في رأسها»، والتي ألهمتني دور
(جيهول).

- وإلى (جان - إتيين كوهين - سيا) Jean - Étienne
Cohen - Séat على نصائحه الأدبية القيمة جداً.
- وبالتأكيد إلى ناشري الوفيّ (تيريّ بيّار) Thierry
Billard الذي يلقّب بـ (خريشة رفيعة) أو (رجل
الذبابة) Patte de mouche.

د. محمود فارس المقداد

- مولود في مدينة بصرى بمحافظة درعا سنة 1951 .
- إجازة في الآداب - قسم اللغة العربية 1974 .
- دبلوم دراسات أدبية عليا 1975 .
- دكتوراه دولة في أدب صدر الإسلام والعصر الأموي عن أطروحة «الترسلُ النثري عند العرب من الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي»، جامعة دمشق - كلية الآداب - قسم اللغة العربية، سنة 1986 .
- معيد فمدرس في جامعة دمشق قسم اللغة العربية 1978-1991 .
- أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية بجامعة عمر المختار في البيضاء (ليبيا) 1991-1993 .
- أستاذ مساعد في كلية التربية الأساسية - قسم اللغة العربية بالكويت 1993-2007 .
- عضو جمعية البحوث والدراسات في اتحاد الكتاب العرب بدمشق 1993 .
- أستاذ مساعد حاليا في جامعة دمشق - كلية الآداب الثالثة بدرعا - قسم اللغة العربية.

Twitter: @ketab_n

حمادة إبراهيم محمد إسماعيل

- حاصل على دكتوراه الدولة في الآداب والعلوم الإنسانية من جامعة السوربون بباريس مع مرتبة الشرف الأولى، يوليو سنة 1975م.
- يعمل كأستاذ ورئيس قسم اللغة الفرنسية بمركز اللغات والترجمة بأكاديمية الفنون.
- من كتبه باللغة الفرنسية:
- 1 - De la mort de l'entente à la mort biologique dans le théâtre de Ionesco.
- . The periodical of the faculty of Arts, Mansourah University, Mai, 1978
- 2 - Jean Tardieu, dramaturge initiatique. Les Livres de France, 1990
- من كتبه باللغة العربية:
- 1 - الاتجاهات المعاصرة في تدريس اللغات الحية لغير الناطقين بها، دار الفكر العربي (1986).
- 2 - الطفل في القصة العالمية، هيئة الكتاب، القاهرة، (2010).
- من نصوصه في العروض المسرحية:
- 1 - أولاد العم كام، مسرح الطليعة عام (1995).
- 2 - شد حيلك، المسرح العائم (2001).
- له العديد من الدراسات والترجمات لأعمال أجنبية منها:
- 1 - الأعمال المسرحية الكاملة للكاتب المسرحي الفرنسي أوجين يونسكو. صدرت في خمسة مجلدات في الكويت (1973-1988) ثم في هيئة الكتاب (34 مسرحية، في مجلدين، القاهرة 1998).
- 2 - الأعمال المسرحية الكاملة للكاتب المسرحي الفرنسي ألفريد جاري، الكويت، في ثلاثة مجلدات (1991 / 1993).
- 3 - سباق الملوك تييري مونييه، سلسلة دمن المسرح العالمي، الكويت (1970).
- له العديد من المراجعات منها:
- 1 - رويسبير لرومان رولان، الكويت، (من المسرح العالمي)، العدد 81، (1971).
- 2 - 14 يوليو لرومان رولان، الكويت، (من المسرح العالمي)، العدد 20، (1971).
- 3 - خادم سيدين لكارلو جولدوني، (من المسرح العالمي)، الكويت، العدد 96، (1974).
- 4 - من الأعمال المختارة، للكاتب الإيطالي لويجي بيراندللو (من المسرح العالمي)، الكويت، العدد 99، (1975).
- 5 - الحصان المغنى عليه لفرانسواز ساجان، (من المسرح العالمي)، الكويت، (1978).
- قام بإعداد دورات وسلاسل متخصصة في تعليم اللغة العربية.
- له عدة أعمال إذاعية ومسرحيات وقصص وروايات وأعمال شعرية بعضها من تأليفه وبعضها مترجم.

Twitter: @ketab_n

تأليف : ليونيد أندرييف	314	حياة إنسان
تأليف : ميخائيل بولجاكوف	315	دون كيشوت
تأليف : كنيث ياسودا	316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق
تأليف : خلدون طائر	317	ملحمة علي الكاشاني
تأليف : جلال آل أحمد	318	نون والقلم
تأليف : تشاندرا سيخار كامبار	319	سيرى سامبيجي
تأليف : جورج أورويل	320	أيام بورمية
تأليف : ايتالو كالفينو	321	ست وصايا للألفية القادمة
تأليف : ت. س. إليوت	322	السكرتير الخصوصي
تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين	323	قصص برازيلية
تأليف : رولان بارت	324	شذرات من خطاب في العشق
تأليف : جيمز ماكبرايد	325	لون الماء
تأليف : أمريتا بريتام	326	وجهان لحواء
تأليف : اليخاندرو كاسونا	327	المنزل ذو الشرفات السبع
تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين	328	من الأدب الباكستاني الحديث
تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك	329	مختارات من القصة التركية المعاصرة
تأليف : بهرام بيضاني	330	مسرحية محكمة العدل في بلخ
تأليف : بنانا يوشيموتو	331	مطبخ - خيالات ضوء القمر
تأليف : جونتر جراس	332	الطباخون الأشجار - الجرة المكسورة
تأليف : هاينرش فون كلايست	333	شمل تشابه ضائع
تأليف : أندريه شديد	334	حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم
تأليف : فلاديمير هلباتش	335	زهرة الصيف
تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين	336	طام - طام زنجي
تأليف : ليوبولد سيدار سنغور	337	اليبروح
تأليف : نيكولو ماكيافلي	338	منزل النور
تأليف : جوهر مراد	339	كثبان النمل في السافانا
تأليف : تشنوا أشيبي	340	أناطول وجنون العظمة
تأليف : أرثور شنيتسلر	341	غرام ميتيا
تأليف : إيفان بونين	342	أرنجنندن والحارس الليلي
تأليف : فيمي أوسوفيسان	343	ورقة في الرياح القارسة
تأليف : تنغ - هستغ بي	344	مدرسة الدكتاتور
تأليف : إيريش كستتر - تيد هيوز	345	رسائل عيد الميلاد
تأليف : سليمان جيغو ديوب	346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك
تأليف : فريدريش شيلر	347	مسرحية عن ذراء أورليان

تأليف: سليمان جيفو ديوب	348	حكايات وخرافات أفريقية (2)
تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية	349	الأدغال والسهول العشبية تحكي القصة القصيرة الإسبانية الأمريكية في القرن العشرين
تأليف: وول سوينكا	350	مسرحيتنا: 1- محنة الأخ جيرو 2- تحول الأخ جيرو
تأليف: أو. هنري	351	روض الأدب (مختارات قصصية)
تأليف: ب. بريشت	352	مسرحية «أنتيجون»
تأليف: هنري برونل	353	أجمل حكايات الزمن يتبعها فن الهايكو
تأليف: لاوشه	354	مسرحية «المقهى»
تأليف: برايان فرييل	355	مسرحيتنا: 1- صناعة تاريخ 2- ترجمات
تأليف: ج. م. كويتنزي	356	رواية «الشباب»
تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين	357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)
تأليف: إيجون وولف	358	مسرحيتنا: 1- تلاميذ الخوف 2- الغزاة
تأليف: وليام سارويان	359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)
تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية	360	حامل الإكليل (قصص مختارة)
تأليف: سيلافومير مروچيك	361	الصورة (مسرحية)
تأليف: تحسين يوجل	362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)
تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي	363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولندا)
أندجي ماليشكا		
ستانيسلاف ليم (ستانيسواف)		
سوافومير مروچيك		
تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات	364	سبع نساء... سبع قصص
تأليف: نويل كاورد	365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)
تأليف: روبرين دايشيد غونساليس غاليفو	366	بالأبيض على الأسود (رواية)
تأليف: تيان هان	367	مسرحيتنا: 1- سهرة في المقهى 2- موت ممثل مشهور
تأليف: مايكل هلمان	368	إمرأة وحيدة، فروغ فرخزاد وأشعارها، سيرة حياة

تأليف: بيجى شانيفاسكي	369	«الملاح، (مسرحية من الأدب البولندي)
تأليف: بول أوستر	370	ليلة التنبؤ (رواية)
تأليف: نويل كاورد	371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)
تأليف: أمادو همباطي با	372	لا وجود لخصومات صغيرة
تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي	373	الليلة التي أمضاها ثوروفي السجن (مسرحية)
تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين	374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث
تأليف: بول بولز	375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)
تأليف: بول بولز	376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)
تأليف: فروغ فرخزاد	377	«الأسيرة»، (مختارات من ديوان شعر)
تأليف: مونيكا علي	378	شارع بريك لين (الجزء الأول)
تأليف: مونيكا علي	379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)
تأليف: كورماك مكارثي	380	الطريق (رواية)
تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك	381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية
تأليف: مارغريت دوراس	382	عشيق الصين الشمالية (رواية)
تأليف: إرنست همنغواي	383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)
تأليف: إرنست همنغواي	384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)
تأليف: إرنست همنغواي	385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)
تأليف: آراهيند أديفا	386	النمر الأبيض (رواية)
تأليف: دوبرافكا أوجاريك	387	موطن الألم (رواية)
تأليف: باسكال كينيارد	388	فيلا أماليا (رواية)
تأليف: جوليان بارنز	389	الإحساس بالنهاية (رواية)
تأليف: إيزابيل إبراهيم	390	ياسمينة (وقصص أخرى)
تأليف: شيخ حامد كان	391	المغامرة الغامضة (رواية)
تأليف: أناندا ديبي	392	الرجال الذين يحادثنوني (رواية)
تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين	393	أنطولوجيا القصة الإيرانية الحديثة
تأليف: أمادو همباطي با	394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال
تأليف: نور الدين فرح	395	خرائط (رواية)
تأليف: كريستن توروب	396	إله الصدفة (رواية)
تأليف: ألبرتو مينديس	397	أزهار عباد الشمس العمياء (رواية)

تأليف: تيه نينغ	398	الأبدية بعيدة جدا (وقصص أخرى)
تأليف: سوزانا تامارو	399	اذهب حيث يقودك قلبك (رواية)
تأليف: إدريس الشرايبي	400	الحضارة أمي (رواية)
تأليف: أنيتا ديساي	401	فنان الاختفاء (ثلاث روايات قصيرة)
تأليف: بزرك علوي	402	عينها (رواية)
تأليف: ديبورا ليثي	403	السباحة إلى المنزل (رواية)
تأليف: داهيد فوتكينوس	404	الرقة (رواية)
تأليف: يوهوا	405	على قيد الحياة (رواية)
تأليف: يورج أكلين	406	الأب (رواية)
تأليف: داهيد فوينكينوس	407	إنني أتعافى (رواية)
تأليف: بينلوبي فيتزجرالد	408	الوردة الزرقاء (رواية)
تأليف: مجموعة من الكاتبات التركيات	409	إبداعات نسائية (مجموعة قصصية)
تأليف: هاينريش هاينه	410	الإياب (ديوان شعر)
تأليف: جان كريستوف روفان	411	سبع حكايا تعود من بعيد
تأليف: توف جانسون	412	المخاض الحقيقي (رواية)
تأليف: يوهوا	413	اليوم السابع (رواية صينية طويلة)

البيان		إبداعات عالية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة		مجلة الفنون		المسرح العالمي	
		د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت		20	-	12	-	12	-	25	-	20	-	20	-
الأفراد داخل الكويت		10	-	6	-	6	-	15	-	10	-	10	-
المؤسسات في دول الخليج العربي		24	-	16	-	16	-	30	-	24	-	24	-
الأفراد في دول الخليج العربي		12	-	8	-	8	-	17	-	12	-	12	-
المؤسسات في الدول العربية الأخرى		-	50	-	30	-	20	-	50	-	50	-	50
الأفراد في الدول العربية الأخرى		-	25	-	15	-	10	-	25	-	25	-	25
المؤسسات خارج الوطن العربي		-	100	-	50	-	40	-	100	-	100	-	100
الأفراد خارج الوطن العربي		-	50	-	25	-	20	-	50	-	50	-	50

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك

تجديد اشتراك

الاسم:	•
العنوان:	
اسم الطبوعة:	مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:	نقدًا / شيك رقم:
التوقيع:	التاريخ: / / ٢٠٠٠ م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك الحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي،

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

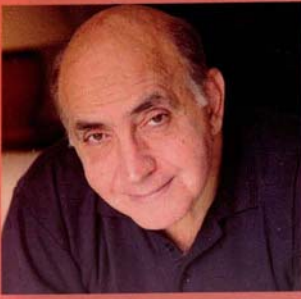
ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

Twitter: @ketab_n



الجمهورية الإسلامية الإيرانية
المركز القومي للأرشيف والادب



المؤلف جليل سِينُويِه

- كاتب مصري - فرنسي.
- ولد في القاهرة سنة 1947 من أم فرنسية والدتها يونانية وأب من أصول سورية - لبنانية مهاجرة إلى مصر.
- نشأ وتعلم حتى الثانوية العامة في مدارس اليسوعيين بالقاهرة.
- سافر إلى فرنسا وهو في العشرين من عمره لدراسة الموسيقى واستقر في باريس ونال الجنسية الفرنسية.
- كتب كلمات بالفرنسية لكثير من مشاهير الغناء بفرنسا. وكتب بالعربية كلمات «حلوة يا بلدي» لدليدا.
- أفاد من إتقانه الفرنسية والعربية في أعماله.
- له نحو سبعة وعشرين عملاً.
- ترجمت أعماله إلى كثير من لغات العالم الحية. وقد ترجم منها إلى العربية نحو تسعة أعمال. ولا يزال الكاتب ناشطاً.
- أهم الجوائز التي حصل عليها:
 - 1 - جائزة «جان دور» Jean D'Heurs.
 - 2 - الجائزة الأدبية.
 - 3 - جائزة الحي اللاتيني.
 - 4 - جائزة أصحاب المكتبات.

الرجل الذي كان ينظر إلى الليل

ماذا يصيب المشاهير ذوي المجد والشهرة والثراء عندما يُفقدون إنساناً واحداً حياته. وعن طريق الخطأ لا نعمداً؟ هل ينسحبون من الحياة العامة والأضواء؟ هل يشعرون بخيبة الأمل؟ هل يعودون إلى صفوف الناس للشعور بنبض حياتهم وسماع إيقاعات أمانيتهم الصغيرة؟ أم أنهم يواصلون المسيرة متحدّين الواقع متشبّثين بما وصلوا إليه من مكاسب وامتيازات ومن غير شعور بالذنب أو عذاب الضمير؟ لا شك أن هؤلاء فئتان: إحداهما تشعر بتأنيب الضمير ووجع الشعور بالذنب أو التقصير. وثانيتهما توغل في الخطأ ولا تهزها الأرواح المهزقة لا خطأ ولا قصداً. وإنما تعمداً أحياناً باسم أوهايم يتخيلونها. أولم يقل النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»؟

تمضي هذه الرواية في معالجة ذلك الشعور المتضخم بالألم وتبكيه الضمير والشعور بالذنب الفظيع. خطأ طبي وقع فيه جراح قلب شهير أودى بحياة مريضه رغمًا عنه، فعاقب نفسه بنفسه وانسحب من مدينة الأثوار (باريس) حيث المجد والشهرة والمسرات. واختار منفى طوعياً له في جزيرة يونانية تدعى (باتموس) في بحر (إيجة). أهلها بسطاء طيبون. وأجواؤها هادئة. وتعيش على ذكرى (يوحنا اللاهوتي) التي أقام فيها مدة وكتب (رؤياه) الشهيرة. زاعماً - أي الطبيب - أنه طبيب عام. ووضع طاقاته الخلاقة في خدمة مرضى الجزيرة. وبنى علاقات ودية مع أهلها. وبعد ثلاث سنوات من الإقامة. وقع في حب فتاة شابة وصلت إلى الجزيرة مؤخراً مع أمها وأخيها الصغير. وكانت معاقة بسبب شلل أطرافها السفلية منذ سن الـ 12 سنة. وهي الآن في سن الـ 26. وهي جميلة وذكية. وقد وصلت بالدكتور الشهير إلى كشف كل أسرارها وحياته الغامضة قبل قدومه إلى الجزيرة. وتتعرف تفاصيل حياته في مصر وفرنسا. وتعيد إلى نفسه الثقة. ويساعدها بدوره على الخروج من عزلتها وكآبتها لتعود إلى الشعور بأنها إنسان سوي ابتلي غصباً عنه بما هو عليه من إعاقة. وفي هذه الرواية تفاصيل ومعارف ومعلومات تعجز هذه العجالة عن الإلمام بها. وأمتع ما في الرواية الوقوف على الطبيعة البشرية. وتحديد المواقف الإنسانية التي لا يمكن للمجتمعات البشرية أن تستمر وتسعد من غيرها.